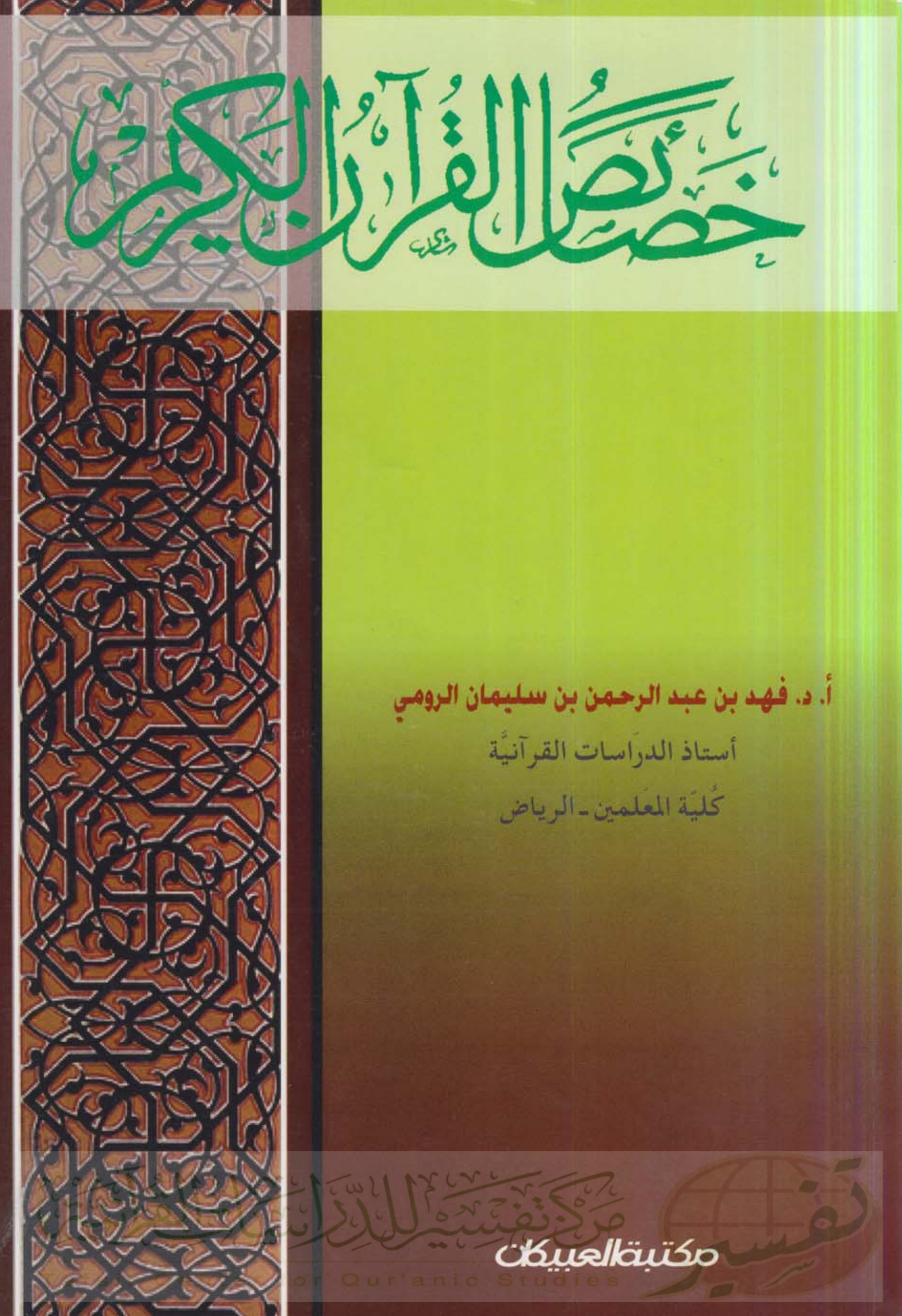

خصائص القرآن الكريم
أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي
أستاذ الدراسات القرآنية
كلية المعلمين - الرياض
مكتبة العبيكان



تأليف

أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي

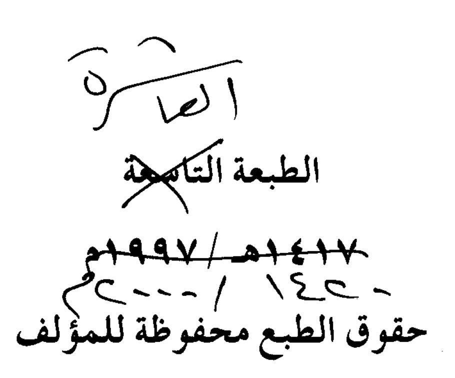
أستاذ الدراسات القرآنيّة

كُليّة المعَلمين ـ الرياض









الطبعة التاسعة

١٤١٧هـ/١٩٩٧م

توزيع

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

الطبعة التاسعة

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية ـ الرياض هاتف ٤٧٦٦٢٧٩

ص.ب ١٥١٧٦ الرياض ١١٤٤٤ السعودية

صدر الإذن بطبع هذا الكتاب من رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برقم ١٥٠٤/ ٥ وتاريخ ٧/ ١١/ ١٤٠٨
ومن المديرية العامة للمطبوعات ـ وزارة الإعلام ـ بالرياض برقم ٦٥٦٤/ م وتاريخ ١٢/ ١١/ ١٤٠٨





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله يخص من شاء من عباده بما شاء من المحامد، ويوفق إلى الخير خلصاءه.

الحمد لله جعلنا من أمة محمد ﷺ وخصها بين الأمم، فجعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وأرسل إليها خير رسله نبيه وصفيه وخليله محمد بن عبد الله ﷺ، وأنزل عليها خير كتبه وأفضلها وأسماها وأعلاها.

أما بعد . . .

حين أنزل الله القرآن الكريم وأرسل به نبيه محمداً ﷺ، لم يرسله إلى أمة نبغت في علومها وتفوقت في معارفها أو بلغت شأواً في الرقي والتقدم . .

إذاً لوجد المشكِّكون فجوة ينفذون منها لإنكار فضل القرآن ولنسبوا أثره إلى واقع الأمة وحالها، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسله إلى أمة كانت قبائل متشتتة، لا صلة دينية توحد صفوفهم، ولا مصلحة اقتصادية تضمهم، ولا رابطة سياسيَّة تربطهم، ولا سلام يسود بينهم ديدنهم توارث العداوات والأحقاد، وشغلهم الحروب والغارات، ودأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأصنام والأوثان.

إن نظرتَ إلى مجتمعهم وجدتهم قبائل رحَّل، تشتعل الحروب بينهم عشرات السنين لأوهى الأسباب، واسألوا داحس والغبراء والبسوس إن شئتم.

وإن نظرت إلى اقتصادهم وجدته في أدنى الدرجات، لا يعرفون من التجارة إلا أطرافها، وجل مالهم الإبل والغنم، ينتقلون بها من مرعى إلى آخر، يتغذون بلحومها، ويشربون ألبانها، ويتدثرون بأصوافها، اللهم إلَّا قليلاً من رجالهم

يرحلون صيفاً إلى الشام وشتاءً إلى اليمن، يقايضون بأنعامهم ونتاجها حلياً وأقمشة، وهؤلاء وأولئك لا يعرفون سبيل الصناعة والإنتاج.

ولو نظرت إلى علومهم لرأيتهم على أقصى درجات الجهالة، أُمّة أُميّة لا تقرأ ولا تكتب، ولا يعرف أنهم برزوا في علم من العلوم، ولا في فنٍّ من الفنون، اللهم إلاّ الشِّعر! وما يغني الشعر في مثل هذا المجتمع؟ وما الحاجة إليه؟! إلاّ أن تكون لإيقاد نار حربٍ أو زيادة اشتعالها، أو لفخر جاهلي.

ولو نظرت إلى سياستهم لم تجد لهم علاقات سياسية بالدول المحيطة بهم كفارس، والروم، والقبط، والأحباش، اللهم إلاّ علاقات أفراد لا تشكل سياسة عامة، ولم تمدُّ الدول المجاورة أيديها لهم لإيجاد علاقات سياسية لا لشيء إلاّ لأنهم خفاف الوزن في نظر الأمم جميعاً، إضافة إلى أن موقعهم الجغرافي بعيد عن مضطرب الأمم المتمدنة حينذاك.

أيها الأحبة...

لست هنا أؤرخ لهذه الأمة في تلك الفترة، ولكني أريد أن أقدم صورة واضحة لهذا المجتمع حتى نعرف مدى التأثير الذي أحدثه القرآن فيهم، ونعرف التأثير الذي يمكن أن يحدثه في الأمم التالية.

نزل القرآن على هذه الأمة بواسطة نبيها محمد ﷺ فلم تلبث إلاّ سنواتٍ قلائل حتى دبَّت فيها الحياة وسَرَت في جسدها سريانها في الأرض الخاشعة إذ نزل عليها الماء فاهتزَّت ورَبَت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج.

فوحَّد كلمتها، وجمع شملها، وسارت تحت راية واحدة راية الإيمان ونهضت نهضة قوية، وسارت وفودها في العالم سيرة القوي الأمين، وصالت جيوشها صولة القادر العادل، فإذا بها أمة الأمم وجالية الظُّلْمِ والظُّلَم وصاحبة السيف والقلم.

ولا يزال التاريخ يحدثنا عن مآثر هذه الأمة في البلاد المفتوحة ويسطر بأحرف

من نور فترة الحكم الإسلامي لهذه الدول، وسيظل ـ بإذن الله ـ تاريخها زهرة التواريخ، وستظل آدابها ينبوع الآداب والأخلاق.

وما علينا والرسول ﷺ قد بيَّن أن قرنه خير القرون، فبالله عليكم بأي شيء ارتقى هذا الجيل من الجاهلية التي ألمعنا إلى شيء من صور جاهليتها إلى هذه المنزلة التي صارت بها الأمة المثاليَّة.

لا شكَّ أنَّ الأصابع ستشير بأكفِّها:ـ إنَّه القرآن، فلنبحث عن السِّر في القرآن إذاً.

كيف خرَّج القرآن هذا الجيل المميَّز في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ البشريَّة كلِّها، ثم لم يعد يخرِّج مثل هذا الجيل مرَّة أخرى؟!.

لا أنكر وجود أفراد في الأجيال التالية يقتربون من أفراد ذاك الجيل، لكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل جمع الصحابة في جيلٍ واحدٍ كما تجمَّعوا في الجيل الأوَّل[1].

هذه حقيقة لا تنكر، فلنتأمل فيها عَلَّنا نصل إلى سِّر نهضتها فنأخذ به في وقتٍ نحن أحوجُ ما نكون إليه.

تُرى ما سِرُّ نهضة هذه الأمَّة؟ القرآن هو هو ما يزال بين أيدينا كما أنزل. وسنَّة الرَّسول ﷺ لا تزال بين أيدينا أيضاً، ولم يغب عنا إلَّا شخص الرسول ﷺ، فهل هو سُّر النهضة؟!.

لو كان الأمر كذلك لما كانت دعوته للناس كافَّة بل كانت مربوطة بشخصه وبحياته، ولَتَكَفَّل الله بإبقائه حياً فعلم أن الأمر ليس مربوطاً بشخصَ الرَّسول ﷺ.

فلنبحث إذاً عن سبب آخر.

---

(١) انظر معالم في الطريق: سيد قطب، ص١١.

إن تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن بقوله: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا لهُ لحافظون﴾ مع جعله سبحانه الدعوة للناس كافَّة، يدلُّ على أنَّ مناط الدَّعوة هو القرآن الكريم، وأنَّ سرَّ بقائها هو في بقاء القرآن[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ سؤالاً عريضاً يكاد يسد الأفق يقول: لِمَ لَمْ يتحقق للأجيال التالية ما تحقَّق للجيل الأول ما دام القرآن هو القرآن لم يتغيَّر ولم يتبدَّل؟.

إذا ما أردنا الحصول على إجابة صادقة فلنتأمل الصلة بين الجيل الأول والقرآن من جهة، وبيننا وبين القرآن من جهة أخرى، فلعلَّ الفارق يكون هنا.

كان الجيل الأوَّل لا ينهل إلاَّ من القرآن، وهدي الرَّسول ﷺ، وما هَديهُ إلاَّ من نبع القرآن، وكانت الحضارات تحيط بالقوم حضارة الرومان، وحضارة الفرس، ومخلَّفات الحضارة الإغريقية، وحضارات أخرى قاصية ودانية، حضارة الهند وحضارة الصين.

وكانت اليهودية والنصرانية تعيش بين أظهر القوم في المدينة، وفي اليمن، ومع ذلك كان منهج التلقي عند الجيل الأول مقصوراً بقصد على القرآن الكريم[2]، وحين أقول بقصد فإنِّي أعني ما أقول وأعيه، نعم القرآن وحده، لا شيء سواه ـ وهدي الرسول ﷺ من نبع القرآن كما أسلفت ـ.

ولذلك غضب الرَّسول ﷺ حين رأى في يد عمر رضي الله عنه قطعةً من التوراه وقال له: «لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»[3].

---

(١) معالم في الطريق: سيد قطب، ص١٢.

(٢) معالم في الطريق: سيد قطب، ص١٣.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده جـ ٣، ص ٣٨٧، والدارمي في سننه ١/١١٥، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح جـ ١، ص ٦٣.

بل قال عليه الصَّلاة والسَّلام وهو يرسم لهم منهج التلقي مُظهراً حرصه على صفاء النَّبع: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عنِّي غير القرآن فليمحه»[1].

أيُّ حرصٍ يظهره الرسول ﷺ، على صفاء النبع القرآني في فترة التكوين الأولى.

هذه ظاهرة في منهج التلقي للقرآن عند الجيل الأول ينبغي الوقوف عليها، وظاهرة أخرى نراها ترسم لنا بوضوح العلاقة بين هذا الجيل والقرآن. وهي أن هذا الجيل جيل الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن أحدهم يقرأ القرآن لتذوق أساليب اللغة العربية، أو لمجرد الثقافة البحتة أو يحفظ آيات ليستشهد بها في المناسبات واللقاءات، أو ليتلوه في الاحتفالات والمناسبات أو ليتكسَّب في حفظه أو تلاوته، بل كان هذا الجيل يتلقَّى القرآن ليترجمه من فوره بعد فهمه إلى عملٍ جاد وتطبيقٍ كامل.

ولذلك كان الصحابي يحسُّ وهو يقرأ أنَّه إنَّما يتحمَّل واجبات وتكاليف فيقرأ من الآيات ما يستطيع حمله من تكاليفها، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان الرَّجل إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهنَّ حتَّى يعرف معانيهنّ والعمل بهنَّ)[2].

إذاً فقد كان منهجهم منهج التلقي للتنفيذ وكان هذا المنهج وحده يفتح لهم آفاقاً من الفهم والمعرفة لا تفتح لمن سلك منهجاً غيره، وكان هذا المنهج يمزج بين أرواحهم وبين القرآن، ويخلط القرآن بذواتهم[3] فيحولها إلى منهج واقعي، ويتحوَّل الرَّجل إلى الرجل القرآني.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد، ص٢٢٩٨، حديث رقم ٣٠٠٤، سنن الدارمي، جـ١ ص١١٩، ومسند الإمام أحمد جـ٣ ص١٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره جـ١ ص٨٠، وقال الأستاذ أحمد شاكر (هذا إسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود، ولكنه مرفوع معنى)، وانظر تفسير القرطبي جـ١، ص٣٩.

(٣) معالم في الطريق: سيد قطب، ص١٥.

خلاصة الأمر:

أنّ علاقتهم رضي الله عنهم تقوم على منهجين أساسيين:ـ

أحدهما:ـ الاقتصار على نبع القرآن الصافي والسنة المبيِّنة للقرآن.

وثانيهما:ـ التلقي للتنفيذ والتطبيق الفوري.

فوصلوا إلى ما وصلوا إليه.

ثمّ ما الذي حدث بعد ذلك؟! حدث أن صبَّت ينابيع في ذلك النبع الصافي فصبَّت فلسفة الإغريق، وأساطير الفرس، وإسرائيليَّات اليهود والنصارى، ورواسب الحضارات والثَّقافات، واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم، فعكّر صفوه، فتكدَّر صفاء الجيل.

ودرس قوم القرآن لمناصب دنيويّة وأهداف زائفة، وأغراض هابطة، وقرأه آخرون فلم يجاوز حناجرهم.

فخرَّج منهج التلقي للتنفيذ... جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وخرَّج المنهج الآخر، الأجيال التالية فهل نتَّعظ.. وهل نستفيد ونستعيد...؟

فإذا كان هذا هو أثر القرآن الكريم في هذه الأمة، فلا عجب إذا اختصَّ بخصائص كثيرة ومزايا عظيمة، وقد اختصَّ أيضاً الدِّين الذي جاء به القرآن الكريم وهو الإسلام بخصائص عظيمة وكتب فيه الكتاب وما زالوا يكتبون، واختصَّ أيضاً بخصائص كثيرة الرسول الذي أنزل عليه هذا القرآن ﷺ، وقد تحدَّث بنفسه عليه الصلاة والسَّلام عن بعض ما أُوتي، وأدرك علماء المسلمين كثيراً غيرها، واختصَّت هذه الأمة بمزايا عظيمة ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى في آخر كتابه «فنون الأفنان» ثلاثين نوعاً منها.

وخصائص هذه الأمة، وهذا النبي، وهذا الكتاب، وهذا الدين بيِّنة لا تخفى على ذي لبٍّ، لكن العقول قد تدرك شيئاً ولا تستحضره، وقد تدرك مفرقاً ولا تجمعه، فإذا استحضر لها أو جمع حسبت نفسها لم تكن تعلمه من قبل،

فإذا ذُكِّرت ذَكَرَت وإذا عُلِّمت عَلِمَت.

وقد ذاكرت يوماً خصائص القرآن الكريم فتاقت نفسي إلى كتاب يدرسها، أو مقال يجمعها، فما وجدت على كثرة المؤلفات في علوم القرآن شيئاً من ذلك، كنت أحسب أن المؤلفات فيه كثيرة والدراسات مستفيضة فأعدت النظر وقلبت الفكر بين مخطوط ومطبوع، فما وجدت إلاَّ مُخْتَصِراً مُقْتَصِراً، أو مخرِّفاً مشعوذاً.

وفي هذا الموضوع مجال خصب يمرح فيه بعض المشعوذين والدجالين وبالتحقيق والتدقيق يذهب زغل المبطلين.

نظرت في المخطوط والمطبوع - ما وصلت يدي إليه - فوجدت المخطوط يَسِمُها بـ (الخواص) فألَّف في (خواص القرآن) العديدُ منهم يوردون فيه من الخرافات والشعوذة ما نُنزِّه كتابَ الله عنه، ونربأ أن نشير إلى أسمائها وهي كثيرة.

ويزيفونها حيناً بعبارة (أسرار خواص القرآن) وكأنَّ في القرآن طلاسم وألغازاً كانت عن الناس مخفية.

ووجدت في المطبوع شيئاً من ذلك، وشيئاً من ضلالات الصوفيَّة الذين اتخذوا التقديس والتبرُّك شعاراً لضلالاتهم فإن أنكرت عليهم اتَّهموك بغمط القرآن حقَّه تماماً كما يقذفون من نهاهم عن الغلو في الأنبياء والصالحين والمزارات والقبور بأنه لا يحب أهلها، أو من أنكر عليهم الغلو في رسول الله ﷺ وإطراءه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، بأنَّه لا يحبّ الرسول!!.

أقول إن أولئك أوردوا في خصائص القرآن ما يلائم مذهبهم الضالّ وعقيدتهم المنحرفة.

ووجدت في المطبوع خصائص للقرآن مسلَّمة ومحمودة، أُسسها الكتاب والسنة، والبيان المُقنع لأولي الألباب لكن ما أورده هؤلاء إما أن يكون مقتصراً على جانب واحد من خصائص القرآن، أو أن يكون مجملاً الحديث عن خصائص معدودة.

ولم أر كتاباً أفرد فيه مؤلفه خصائص القرآن الكريم معتمداً على التحقيق متثبتاً مما يقول سالماً من الأهواء والبِدَع.

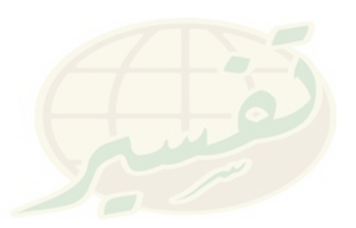
فحاولت أن أجمع هنا ـ ما استطعت ـ من خصائص القرآن معرفاً بإيجاز لكل واحدة منها مبتعداً عن خرافات المخرفين وبدع المبتدعين مستنداً إلى الكتاب والسنّة، وما أقرّ به أرباب اللغة وفصحاؤها مذعنين، وأرباب العلوم والمعارف معترفين.

وقد قدمت أكثر هذه الخصائص في برنامج إسبوعي من إذاعة القرآن الكريم من الرياض، في دورة إذاعية مدتها ستة أشهر من رجب ١٤٠٨ إلى نهاية ذي الحجة ١٤٠٨.

أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه وأن يتجاوز لي عمّا شابه من قصور وأن يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

إنه سميع مجيب وصلى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم....

المؤلف



تمهيد:

الخصائص: جمع (الخصيصة) وهي الصفة التي تميز الشيء وتحدده. اما الخواص فجمع (خاصة) خلاف العامة. وخاصة الشيء ما يختص به دون غيره[1] وعلى هذا فـ (الخصائص) أعم من (الخواص) فكل (خاصة) تميز الشيء وتحدده، وليس كل (خصيصة) تختص بالشيء دون غيره.

وحين أردت أن اكتب في هذا الموضوع آثرت الكتابة عن (الخصائص) واعتنيت عناية بالغة بـ (الخواص) مع ما شاب هذه الأخيرة من شوائب كما أشرت إلى ذلك في المقدمة، ولم اتناول هنا شيئاً من تلكم الخرافات والشعوذة والطلاسم والألغاز.

ولم أقصر الحديث عن هذه (الخصائص) على ما فهمه بعض الباحثين وقصدوا من ورائها تحرير النص القرآني وتحديد أبعاده من حيث هو قرآن، ويريدون بذلك تمييزه عن الحديث النبوي والحديث القدسي فضلا عن كلام البشر الآخرين.

وكانت العمدة فيما حدوده ان القرآن هو اللفظ والمعنى جميعاً، فغير جائز إخضاعه إلى الرواية بالمعنى، لأنه بالمعنى فحسب لا يكون كلام الله وإنما يكون معنى كلام الله. فالخصائص عندهم مميزة لهذا القرآن بهذا المعنى.

وعلى هذا فلا يعتبرون مزايا ألفاظه وحدها أو مزايا معناه وحده أو مزايا رسمه أو فضائله أو حِكَمَه أو أحكامه أو آداب تلاوته ونحو ذلك من الخصائص.

---

(١) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ــ بمصر ج١ ص ٢٣٧.

وهذا خلاف ما أردت هنا فإني أريد بالخصائص كل ما يتميز به القرآن الكريم من كل وجه عن الحديث النبوي، والاحاديث القدسية، وسائر الكتب السماوية فضلاً عن سائر كلام البشر، ويشمل هذا بلاشك ما يختص به القرآن دون غيره.

فإذا عددت مثلاً من خصائص القرآن (انه متواتر كله) فإني أريد بها المزايا التي يمتاز بها، ولا يعني هذا أن لا يشترك معه في التواتر شيء ففي الأحاديث ماهو متواتر وفي غيرها ايضاً ما هو متواتر فهي إذاً من (الخصائص) بمعنى الصفة التي تميز الشيء وتحدده ولهذا قلت بَعْدُ (إن التواتر لم يكن لكتاب آخر غير القرآن)[1] ولم اطلق الاختصاص.

وحيناً أعد من خصائص القرآن الكريم (رسمه) أو (تحريم روايته بالمعنى) أو (التعبد بتلاوته) ونحو ذلك، وأريد الصفات التي لا يشترك معه فيها شيء لا من الحديث النبوي ولا من الحديث القدسي ولا من غيرهما أبداً فهي إذاً من (الخواص) بمعنى ما يختص به دون غيره.

(فإن قلت) إذا كان ما ذكرت من النوعين فلم قصرت العنوان على أحدهما فقلت خصائص القرآن الكريم ولم تقل خواص القرآن الكريم.

(قلت فعلت ذلك لأمور:

أولها: من باب التغليب

ثانيها: أن (الخواص) كما أشرت قد اصطبغت في أذهان بعض الباحثين بكتب معينة تبحث في الشعوذة والدجل والسحر، فتحاشيت هذا اللفظ.

ثالثها: ان (الخصائص) أعم من (الخواص) كما ذكرت.

---

(١) انظر ص ١٨٩ ــ ١٩٠.

وعلى كل حال فهذا مرادي، وهذا جهدي وطاقتي، فإن أصبت فالحمد لله وان أخطأت فاستغفر الله واتوب إليه على كل حال. ورحم الله من ارشدني إلى عيوبي، ومن الله أسأل التوفيق والغفران إنه سميع مجيب وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.






خصائص القرآن الكريم

من خصائص القرآن الكريم:

أسلوبه

يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، والأسلوب الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه وان أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبراً[1].

والأسلوب في اصطلاح الأدباء هو الطريقة الكلاميّة التي يسلكها المتكلّم في تأليف كلامه واختيار مفرداته.

وتختلف أساليب المتكلمين بعضهم عن بعض بل تختلف الأساليب عند الشخص الواحد، وكم رأينا من رجل تكون له حاجة عند آخر ويخشى منعها فيقف يصف عبارته ويختار ألفاظها، ويضيف إليها، ويحذف منها، حتى توافق قبولاً عند صاحبه، وتحدث تأثيرها في نفسه، فيستجيب له، وقد يُحدِّث صاحبه من غير ترتيب عبارة. والمعنى واحد هنا وهناك لكن الأسلوب يختلف، فإذا كان لكل حديث أسلوبه فلا عجب أن يكون أسلوب القرآن الكريم خاصاً به لا يدانيه أسلوب ولا تجاريه طريقة.

والحكمة سامية بعث الله رسوله محمداً ﷺ في أمّة كانت في أدنى درجات الجاهلية، يأخذ أحدهم أربعة أحجار يجعل ثلاثاً أثافي لقدره ثم يعيد الرابعة[2]، وينحتون الأصنام والأوثان، ويسجدون للتمرة ثمّ يأكلونها، ويئدون أولادهم ويتقاتلون فيما بينهم، لا لشيء إلاّ لأمرٍ تافه حقير، ثم وبقدرة الله وإرادته، يتحوّل هذا المجتمع شيئاً فشيئاً إلى مجتمعٍ مثالي، ليس لجيل واحد، ولا لعصر واحد، ولا لقرن واحد، بل للأجيال كلها على مر العصور والقرون، فصار خير القرون، بل صار القدوة التي يجب أن يقتدي بها المسلمون.

---

(1) لسان العرب مادة (سلب) جـ1 ص473.

(2) انظر سنن الدارمي جـ1 ص4.

ولا شك أن هذا المجتمع في تحوُّله من حال إلى حال قد مرَّ بدرجات عديدة يحتاج كلٌّ منها إلى أسلوب خاص في مخاطبته، والقرآن يتابع هذه التحوُّلات والتغيُّرات في هذا المجتمع ويخاطب كل حالة بما يناسبها فحين كان الكفر هو السائد بينهم مالت الآيات إلى قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، والوقع الحاد بما يصخّ الآذان ويشتد قرعه على الأسماع، ويصعق القلوب ليوائم جو الردع والزجر والتقريع للمخاطبين، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصُّور نفخةٌ واحدة، وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكَّةً واحدة، فيومئذٍ وقعتِ الواقعة، وانشقَّتِ السماءُ فهي يومئذٍ واهية، والمَلَكُ على أرجائها ويحملُ عرش ربِّك فوقهم يومئذٍ ثمانية، يومئذٍ تُعرضونَ لا تَخفى منكم خافية، فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فيقولُ هاؤُمُ اقرءوا كتابِيَه، إنِّي ظننتُ أنِّي مُلاقٍ حسابيه، فهو في عيشةٍ راضية، في جَنَّةٍ عالية، قُطوفها دانية، كُلوا واشربوا هَنيئاً بما أَسلفتم في الأَيَّام الخالية، وأمَّا من أُوتي كتابه بشِمالهِ فيقولُ يا ليتني لم أُوت كتابِيه، ولم أدرِ ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عنِّي ماليه، هَلَكَ عنِّي سُلطانيه، خُذوه فغُلُّوه، ثُمَّ الجحيم صَلُّوه، ثم في سِلسلةٍ ذَرعُها سَبعون ذِراعاً فاسلُكوه، إنَّه كان لا يُؤمنُ باللهِ العظيم، ولا يَحُضُّ على طعام المسكين، فليس له اليوم هاهُنا حميم، ولا طعامٌ إلَّا من غِسلين، لا يأكله إلَّا الخاطئون، فلا أُقسم بما تُبصرون، وما لا تبصرون، إنَّه لقول رسولٍ كريم، وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون، ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون، تنزيلٌ من ربِّ العالمين، ولو تَقوَّل علينا بعضَ الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوَتين، فما مِنكم من أحدٍ عنه حاجزين، وإنَّه لتَذكِرةٌ للمُتقين، وإنَّا لنعلم أنَّ منكم مُكذِّبين، وإنَّه لحسرةٌ على الكافرين، وإنَّه لحقُّ اليقين، فسبِّح باسم رَبِّك العظيم﴾[1].

وحين ساد الإيمان وأقبلت القلوب على القرآن طالت المقاطع والآيات واسترسلت في البيان المتأني والوقع الهادىء بما يريح الآذان ويجذب القلوب ليوائم جو المحبة والاتباع والانقياد، وخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس،

(١) سورة الحاقة: الآيات ١٣-٥٢.

وما أنزل الله من السَّماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبثَّ فيها من كلِّ دابَّة وتصريف الرِّياح والسحاب المسخر بين السَّماء والأرض لآيات لقوْم يعقلون﴾[1].

ونحو ذلك من الآيات المدنية.

إنَّ في متابعة القرآن الكريم واستمرار نزوله أثناء تحوّل المجتمع من أقصى دركات الجاهلية إلى أعلى درجات الإسلام، ومن ثم تغير الأسلوب من حالٍ إلى حال، لدليلٌ على أنَّ القرآن يشتمل على أساليب صالحة لمخاطبة البشرية على كل حال.

خاصة إذا علمنا أن أسلوب القرآن ليس موجهاً إلى شخص بعينه ولا إلى جيل بعينه، بل خوطبت بالقرآن أجيال وأجيال، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكل جيل يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه ولو اختلّت فيه لفظة أو حذفت منه عبارة، أو أضيفت إليه جملة لم يصلح لمخاطبة الناس جميعاً، وهذا ولا شك إعجاز فوق إعجاز.

وأسلوب كهذا الأسلوب له - نفسه - خصائص كثيرة، انكبَّ على تحصيلها طائفة من علماء اللغة وأرباب الفصاحة والبلاغة، وما زالوا منذ نزوله يعبّون[2] من نَقَاخه وينهلون من معينه، وطال بهم الموقف ولم يرتووا ولم ينقص منه شيء حتى حفيت منهم الأقدام وعريت الأقلام ولم يقدموا مع كثرته إلاَّ قُلاًّ من كثرة ومن البحر قطرة.

ولست بالقاصد هنا حصراً لصور خصائص أسلوبه، ووجوه إعجازه، ولكني ذاكرٌ منها شيئاً بَلاًّ للشُّغاه وتَغمُّراً[3] للقلوب، ونضحاً[4] للأكباد.

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٦٤.

(٢) العب: أكثر درجات الشرب، انظر فقه اللغة للثعالبي، ص١٦٨.

(٣) التغمر: أقل درجات الشرب، فقه اللغة للثعالبي، ص١٦٨.

(٤) النضح: أول الرِّي، فقه اللغة، الثعالبي، ص١٦٨.

فمن خصائص الأسلوب:

نظمه

والنظم في اللغة: التأليف[1]

قال في المعجم الوسيط: ويقال: نظم القرآن: عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغةً.. والنظيم: المنظوم ومن كل شيء: ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد[2]

والحديث عن فكرة النظم القرآني حديث لا يستوعبه هذا المقام، وقد تتابع في الحديث عنها طائفة من العلماء يشيرون إليها تارة ويفردونها بمؤلفات تارة أخرى.

ولعلَّ هذه الفكرة هي أبرز ما قدَّمه العلماء السابقون من دراسات حول إعجاز القرآن[3].

وقد فتح أبو عبيدة القاسم بن سلاَّم بكتابه مجاز القرآن الطريق إلى بيان الإعجاز القرآني عن طريق نظمه وتأليفه، وإن كان هو نفسه لم يعرض لبيان أسرار الإعجاز[4].

ولكنَّ الجاحظ هو الذي أدَّاه إحساسه العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الرونق والحيوية إلى أن يصيح في معاصريه: إن إعجاز القرآن في نظمه[5]، وألف في ذلك كتاباً سماه (نظم القرآن)، ولعله أوَّل من استعمل هذه اللفظة سواء تردد مفهومها في ذهن من قبله، أم لا[6].

---

(١) انظر القاموس المحيط ص: ١٥٠٠ ولسان العرب ج١٢ ص: ٥٧٨.

(٢) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بمصر ج٢ ص ٩٤١.

(٣) علوم القرآن: عدنان زرزور ص ٢٣٤.

(٤) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز: د/فتحي عامر ص٥٣.

(٥) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز: د/فتحي عامر ص٥٣.

(٦) علوم القرآن: عدنان زرزور، ص١٣٤.

وفكرة النظم عند الجاحظ فكرة لفظية تعتمد على حسن الصياغة، وكمال التركيب، ودقة تأليف اللفظ، وجمال النظم، ولا عجب أن يغلب جانب اللفظ عند الجاحظ على المعنى فهو ينكر على صاحبه استحسان المعنى فيقول: (وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك)[1].

ثمَّ نجد فكرة النظم عند ابن قتيبة في كتابه: (تأويل مشكل القرآن) بلاغيَّة، ويظهر هذا من إلحاحه في بسط مذاهب البلاغة المختلفة دون أن يقف أمام التركيب وضم الكلام بعضه إلى بعض على ما يقتضيه علم النحو[2].

أما الرماني (ت٢٩٦) فإنَّ أعلى مراتب البيان عنده ما اكتملت فيه البلاغة من جمال التعبير، وروعة الأداء من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس، فهو يقف عند المعنى، والعبارة، والصورة، ويستنبط النّكتة من الآية في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) في إطار من البيان البلاغي، فالبلاغة عنده وجه من وجوه الإعجاز.

والتصور في مفهوم النظم عنده أنه اعتبره طريقاً إلى البلاغة التي هي أحد وجوه الإعجاز وبذلك غفل عن حالات النظم باعتبار صلته بالنحو ويتبع ذلك الغفلة عن كثير من فنون علم المعاني[3].

وقد رسم عبد الجبّار الهمداني معالم فكرة النظم القرآني في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) حين نصَّ على أنَّ أفراد الكلام لا تظهر فيها الفصاحة، وإنَّما تظهر الفصاحة في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بدَّ مع الضم

---

(١) الحيوان: للجاحظ، جـ٣، ص١٣١-١٣٢.

(٢) فكرة النظم: د. فتحي عامر، ص٥٧.

(٣) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز: د/فتحي عامر ص٦٣.

أن يكون لكل كلمة صفة[1] قال: (وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالإعراب. . . وقد تكون بالموقع. . . ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض)[2].

ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى أفصح منها إذا استعملت في غيره، والنظم لذلك مظهر الإعجاز[3].

خلاصة الأمر أن عبد الجبار فسَّر فكرة النظم تفسيراً أدقّ من سابقيه فنفى أن يكون مرجع الفصاحة التي يفسر بها الإعجاز القرآني والتي يتفاضل بها البلغاء إلى اللفظ أو إلى المعنى أو إلى الصور البيانيَّة، وإنَّما مرجعها إلى الأسلوب والأداء والصياغة النحوية للتعبير[4].

لكن الذي أعطى فكرةَ النظم صورتها الواضحة، وميّزها تماماً مّما قد يعلق بها، أو تعلق هي به هو عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) وقد بسط المراد عنده بفكرة النظم في القرآن.

فالمفردات عنده سواء لا فضل لإحداها على الأخرى ما دامت منفردة إلاَّ بأحد أمرين **أولهما**: أن تكون واحدة منها مستعملة، والثانية غريبة وحشية. **وثانيهما**: أن تكون واحدة منها أكثر خفة على اللسان من الأخرى، وفيما عدا ذلك فلا تمايز بينها إلى أن تأخذ مكانها من النظم، ومن ثم تتفاضل في مكان دون مكان أو في تعبير دون آخر، ويقول: (إعلم أنَّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشكّ، أنْ لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتَّى يُعلَّق بعضها ببعض ويُبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس)[5].

---

(١) علوم القرآن: عدنان زرزور، ص٢٣٥.

(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، جـ١٦، ١٩٩.

(٣) علوم القرآن: عدنان زرزور، ص٢٣٥.

(٤) البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف، ص١٦١.

(٥) دلائل الإعجاز: الجرجاني ص١٠٢.

فالنظم عند الجرجاني وثيق الارتباط بالنحو، وليس المقصود بارتباط النظم بالنحو أن يخضع لتلك القواعد الجافة الشكلية من الرفع والنصب والجر والجزم وتقديم الفعل على المفعول وتأخيره عنه الخ . . . ولكنه يقصد النحو البلاغي أو البلاغه النحوية وبذلك يكون أخضع النحو لفكرة النظم وأخضع فكرة النظم إليه، وأصبح النظم الذي يرتبط بالنحو، أو النحو الذي يعود إليه النظم مباحث في الأسرار البلاغية والنكات الفنيّة التي تحلق في تصويرها حتى تصل إلى أرفع مراقي البيان[1] وذلك هو الإعجاز الذي أذاب فيه الرجل كتابه (دلائل الإعجاز بالشرح والتمثيل).

ونذكر مثلاً ضربه الجرجاني بيَّن فيه أنَّ الفضل إنَّما يعود إلى الارتباط بين الكلمات بعضها مع بعض، والتزام أحكام النحو البلاغي ومعانيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين**﴾[2]، فقال: (فتجلَّى لك فيها الإعجاز، ويهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلاّ لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلاَّ من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها. . . إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟.

قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم إن كان النداء بيا دون أي نحو: «يا أيتها الأرض» ثم إضـفة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن اتبع نداء

---

(١) فكرة النظم: فتحي عامر ص٨١.

(٢) سورة هود: الآية: ٤٤.

الأرض وأمرها بما هو شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فُعل الدالة على أنه لم يَغِض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: ﴿وقُضي الأمر﴾، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو: ﴿واستوت على الجودي﴾، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة، بقيل في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ويحضرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلّقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟.

أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب)[1].

ومما لا شكَّ فيه أن عبد القاهر، فتح باب البلاغة النحوية وتَذَوُّقها على مصراعيه، وظلَّ صاحب مدرسة متميِّزة في تحديد معالم فكرة (النظم القرآني)، وهذه الفكرة بلا شك من خصائص أسلوب القرآن التي لا توجد في كتاب سواه.

---

(١) دلائل الإعجاز: الجرجاني ص٩٤-٩٥.

من خصائص الأسلوب.

وقعه

ونقصد بوقعه أمرين:

أ ـ نظامه الصوتي.

ب ـ جماله اللغوي.

وكثير ممن كتب عن هاتين الناحيتين من أسلوب القرآن يطلق عليهما (النظم الموسيقي)[1]، أو (الموسيقى الداخلية)[2]، أو (الإيقاع الموسيقي في القرآن)[3]، أو (الموسيقى الباطنة)[4]، ونحو ذلك.

ونحن نرفض مثل هذا الإطلاق لأمرين:ـ

الأول: أن كلمة (موسيقى) لفظة يونانية وفي لغة العرب متسع لصفات القرآن.

الثاني: أن الموسيقى علم على اللهو والطرب ونحن نربأ بالقرآن أن نهبط به إلى ما ينهى عنه.

وأحسن من تحدَّث عن ذلك هو الدكتور/ محمد عبد الله درّاز، في كتابه (النبأ العظيم)، وأغلب من تحدَّث بعده فإنَّما ينقل عنه إمَّا لفظاً وإمَّا معنىً، وقد يشير إلى المصدر، وقد لا يشير ذلكم أنه ـ رحمه الله ـ صوَّر هذا المعنى للقارىء تصويراً دقيقاً، وشخَّصه له تشخيصاً محكمًا حتى ليكاد القارىء أن يراه ماثلاً أمام عينيه.

---

(١) علوم القرآن: عدنان زرزور، ص٢٤٣.

(٢) مباحث في علوم القرآن: د/ صبحي الصالح، ص٣٣٤.

(٣) الإعجاز الفني في القرآن: عمر السلامي، ص٢١٥، والتعبير الفني في القرآن: بكري شيخ أمين، ص١٨٦.

(٤) محاولة لفهم عصري: مصطفى محمود، ص١٣.

ومهما أوتيتَ من حسن البيان، ودقة التعبير، فلا أحسب أني سآتي بمثل ما جاء به في هذا الجانب من غير اقتباس للفظه أو لمعناه، وما دام الأمر كذلك، فلعلّي اكتفي بنقل قوله هنا: ـ (أوّل ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

١ ـ دع القارىء المجوّد يقرأ القرآن يرتّله حقَّ ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثمَّ انتبذ منه مكاناً قصيّاً لا تسمع فيه جَرْس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغُنّاتها، واتصالاتها، وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جُرِّدت تجريداً، وأرسلت ساذجة في الهواء. فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جُرِّد هذا التجريد، وجُوِّد هذا التجويد.

ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر. وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً، وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أهواؤها، وتذهب مذهباً متقارباً، فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا أعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد. بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوِّع متجدِّد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد، وفواصل، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء. فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممّن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب. فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟.

وترى الناس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين شعر نفياً وإثباتاً، ولم تَعرِض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها؟.



وأنت فهل تبيَّنت هاهنا الجواب، وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟.

إنَّ أوَّل شيء أحسته تلك الأذن العربيَّة في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسِّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوّعاً يجدّد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنّة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النَفَس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدِّ الإسراف في الاستهواء، ثم إلى حدِّ الإملال في التكرير. فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيَّأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها، سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوبٌ تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيءٍ منه.

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلَّا في الشعر، ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ما هو بشعر؛ لأنه ـ كما قال الوليد ـ[1] ليس على أعاريض الشعر، في رجزه ولا في قصيده، ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدِّ وسط: فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

(٢) ـ فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فطَرَقَتْ سمعَك جواهرُ حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة. فاجأتك منه لذَّة أخرى في نظم تلك الحروف، ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَفَس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلُم جرًّا، فترى المجال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كركرة ولا ثرثرة،

---

(١) تقدمت كلمة الوليد في ص١٤.

ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر، وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها، برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيه الأمران تقديراً لا يبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيجٌ منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلّا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلىء النفيسة، فإنّه جلّت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يُغَشّيَ جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قِواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمتهُ أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يختار لها صِواناً يحببها إلى الناس بعذوبته، ويُغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالَب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوقٍ وحاسةُ تسمعُ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرِّه، وينفذون بها إلى بعيد غَوْره: ﴿**إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون**﴾[1].

هل عرفت أنَّ نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزَّةً وغرابةً؟ وهل عرفت أنَّ هذا الجمال كان قوَّةً إلٰهيَّةً حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟.

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدِّلين، وأنَّ ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كفِّ أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به، ذلك أن الناس ـ كما يقول الباقلاني ـ: إذا استحسنوا شيئاً اتَّبعوه، وتنافسوا في محاكاته

---

(١) سورة الحجر: الآية: ٩.

بباعث الجِبِلّة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاّحق فيهم شأو السابق أو أربَى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتّاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلاّ مناهل مورودة، ومسالك معبَّدة، تؤخذ بالتعلم، وتُراضُ الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يُخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شَرَعٌ في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟.

ما ذاك إلاّ أن فيه مَنَعَةً طبيعيَّة كفَّت ولا تزال تكفُّ أيديهم عنه، ولا ريب أنَّ أوّل ما تلاقيك هذه المناعة فيما صوَّرناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتَّخذه في رصف حروفه وكلماته، وجُمَله وآياته، من نظامٍ له سمتٌ وحدة، وطابع خاصٌّ به، خرج فيه عن هيئة كلِّ نَظْمٍ تعاطاه الناس أو يتعاطَونه، فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يُدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيِّين أو المرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كلِّ قارىء، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كلِّ سامع، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغلٌ دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد، ﴿وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خَلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾[1].

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عما تحته من الكنز الدفين ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السر المصون، بل فَلَيْتَ القشرة عن لبِّها. وكشفت الصَّدَفة عن درِّها، فنفذتَ من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع.

---

(١) سورة فصلت: ٤١، ٤٢.

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله تعالى في بحث الإعجاز (العلمي) وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز (اللغوي) وإنما اللغة ألفاظ.

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها (تارة) من حيث هي أبنيةٌ صوتيَّةٌ مادَّتها الحروف، وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها. وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفاً (وتارة) من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدده، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثرَ مِن تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام.

أمَّا النَّظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة، فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة، إذ الفضيلة البيانية إنَّما تعتمد دقَّة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقةً أو خيالاً؛ وأن يكون هدىً أو ضلالاً[1]؛ عكس الفضيلة العلميَّة، فإنَّها عائدة إلى المعنى في نفسه على أيِّ صورةٍ أخرجته، وبأيِّ لغةٍ عبَّرت عنه.

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى فيكون التعبير الجيِّد، مِّما يزيد في قيمته العلميَّة، لكن النظر هاهنا في قيمة البيان لا في قيمة المبيَّن، فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى نفرغ من هذه النظرة اللغويَّة[2].

ثم تحدَّث رحمه الله تعالى عن خصائص القرآن البيانيَّة وضرب الأمثلة لها.

---

(١) ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامه لأنها تصف ما في أنفسهم على أتمِّ وجه، (درَّاز).

(٢) النبأ العظيم، د/ محمد عبد الله درَّاز، من ص١٠١ إلى ص١٠٧.

وحين قرىء القرآن على العرب رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمله وقعاً لغوياً رائعاً كأنه لائتلاف آياته وسوره قطعة واحدة، أدركوا ذلك وأدركوا أنه لا قدرة لهم على الإتيان بمثله والذين جنحوا لمعارضته منهم كمسيلمة حسبوا أن (وقعه) إنَّما هو في وزن كلماته، وجرس حروفه فحسب، وهذا لا يتَّفق في شيء من كلام العرب، إلَّا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع[1].

ومن هنا جاء مسيلمة بسجع يضحك الثكلى ويأبى أن يتفوه به من له أدنى درجة من حكمة، وأدرك قومه زيف قوله، ولكن العصبيَّة الجاهليَّة عندهم، حملتهم على أن يقول أحدهم مخاطباً مسيلمة الكذَّاب ـ

(أشهد أنك كاذب وأنَّ محمَّداً صادق ولكن كذَّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر)[2].

وإدراك وقعِ القرآن ـ مجرد إدراك ـ لا يحتاج إلى كبير ذوق أو إلى إرهاف حس (فقد ينسى أحدهم الآية من القرآن فينقطع إلى الصمت من قراءته، أو تتدخَّل في لفظه بعضُ الآيات المتشابهة في السور، أو يسقط بعض اللفظ في تلاوته، فيضلّ في ذلك ثم لا ييسره للذكر، ولا يذكره بالآية المنسيَّة ـ أكثر ما يتذكَّر ـ إلا نسقُ الحروف في بعض كلماتها ولا يبين له مواقع الكلم المتشابهات إلَّا نظام كل كلمة من آيتها ولا يهديه إلى ما أسقطه من اللفظ غير إحساسه باضطراب النظم وتخلخل الكلام[3].

ولا تحسبن أن وقع القرآن لا يظهر إلَّا في سورة كاملة أو في آيات متعددة بل هو يظهر كذلك في اللفظة المفردة.

وإن شئت مثلاً ـ والقرآن كله شاهد على ذلك ـ فإنَّا نذكر لك مثلاً لوقع القرآن في آيات ثم مثلاً لوقعه في لفظة واحدة.

---

(١) انظر: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» مصطفى صادق الرافعي، ص٢٤٣.

(٢) قائل هذه العبارة طلحة النمري، انظر تاريخ الأمم والملوك: الطبري جـ٣، ص٢٨٦، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، جـ٢، ص٢٤٥.

(٣) إعجاز القرآن: الرافعي ص٢٧٦.

أمّا مثال وقعه في الآيات ففي قوله تعالى: **﴿والنَّجم إذا هوى، ما ضلَّ صاحبكم وما غَوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاَّ وحيٌ يوحى.... إلى قوله تعالى: تلك إذاً قسمةٌ ضيزى﴾**[1].

تلكم فواصل متساوية في الوزن تقريباً ـ على غير بحور الشعر ـ متحدة في حرف التقفية تماماً ذات وقع متّحد تبعاً للوزن وللقافية ولأمر ثالث لا يظهر ظهورهما، وإنما ينبعث من تآلف الحروف وتآخيها في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل فكأنّما لحمت الكلمة بالكلمة لا تبغي عنها انفكاكاً أو كأنّما الجملة كلمة واحدة تآلفاً واتّحاد كلمات، ومردّ إدراك ذلك إلى الحس الداخلي ورهافة الشعور الذي يفرق بين إيقاعٍ وإيقاع، حتّى ولو اتّحدت القوافي والأوزان[2].

وإن شئت فاقرأ سورة الرحمن كلّها، ثم اسأل نفسك من أين انساب وقعها الرخي أمن مطلعها، أم من خاتمتها، أم من خلال آياتها؟ لا شكّ إن كنت ذا إحساسٍ مرهف، وإن كنت مّمن يتذوّقون بديع الكلام، أنّك واجدٌ ذلك فيها كلّها في فواصل آياتها، ومقاطعها، وفي كلماتها، وفي حروفها، وفي سياقها، وجملها، بل لو ابتسرت جملة منها من غير اختيار وأمعنت في أجزائها لوجدت الإيقاع يسري في كلماتها وفي حروفها.

ذكرت تلك السورتين مثلاً والقرآن كله كذلك، أما إن شئت مثالاً لوقع القرآن في لفظة مفردة فإنّي مورده لك مثلاً مختصراً لفظه تاركاً لك التأمل في معناه ما شئت.

فتأمل كلمة (تحيد) من قوله تعالى: **﴿وجاءت سكرة الموت بالحقِّ ذلك ما كنت منه تحيد﴾**[3]، حيث تقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في **تلك اللفظة**[4].

ولعل فيما ذكرت إشارة عجلى إلى هذه الخاصيّة في أسلوب القرآن الكريم.

---

(١) سورة النجم: الآيات ١ ـ ٢٢.

(٢) انظر التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص٨٥-٨٦.

(٣) سورة ق: الآية: ١٩.

(٤) مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص٣٣٥.

من خصائص الأسلوب:
أنَّه لا يعلو عن أفهام العامَّة ولا يقصر عن مطالب الخاصة:

وهذان مطلبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجأوا إلى قاعدة يعتذرون بها فقالوا: (لكل مقام مقال)، أما أن يأتي كلام واحد يخاطب به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكياء ومن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كل منهم مطلبه ويدرك من معانيه ما يكفيه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكمله إلا في القرآن الكريم وحده.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنتُه، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايتُه، فيخشع قلبُه، وتدمع عيناه، فينقاد له ويذعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحَته، وتُهيمن عليه بلاغتُه، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتشدهه أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زِمَامَ فكره، وقياد عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعة شأنه[1]، فيُذعن ﴿ربَّنا وسعت كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا﴾[2]، ثم يرفع يديه: ﴿ربِّ زدني علمًا﴾[3]، فتدركه الخشية[4]، ويذعن لربه ويؤمن بشرعه.

والآيات هي هي هنا وهناك لم تتغير ولم تتبدل، ولا نقصد ـ معاذ الله ـ أن الآية تحتمل وجهين متعارضين وجهاً للعامة ووجهاً للخاصة، بل هو معنى واحد لكنه من العطاء بحيث يدرك منه كل قارىء قدر طاقته ووسع عقله وفكره فلا يحمله ما لا يطيقه، ولا يقصر عن حاجته.

---

(١) قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾، المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

(٣) سورة طه: من الآية ١١٤.

(٤) قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. فاطر من الآية ٢٨.

وزد على هذا كله أنه لا يخاطب العامة والخاصة في عصر واحد، إذاً لهان الأمر على صعوبته، لكنه يخاطب أولئك في كل عصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يخاطب العلماء وقت نزول القرآن ويخاطبهم الآن في عصرنا هذا ويخاطب علماء القرون الآتية ان كان ثَمَّ قرون لم ولن يجد فيه أحد منصف من هؤلاء قصوراً في معانيه، ولا خللاً في تراكيبه، ولا عيباً في أساليبه، وقل مثل هذا في العامة في كل عصر، كل هذا مع تحوُّل الأساليب وتغيُّرها من قرنٍ إلى قرن، لا تنبو عن أفهامهم لفظة، ولا يلتوي على ألبابهم معنى، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان أكثر مِمّا يحتاجون إلى فهم لغتهم العربيَّة. قسمًا بمنزل القرآن أنَّ هذا لا يكون في كلام البشر الذي إن أرضى العامّة بمعانيه المكشوفة وحقائقه الظاهرة هبط عن ذوق الخاصَّة ومشربهم وعقولهم، وإن أرضى العلماء منهم بدقائقه ورموزه واشاراته عجزت عقول العامة عن دركه فانصرفت أذهانهم ومجّته أذواقهم.

فهيهات هيهات أن تقوى البشرية كلها والجـن أجمع على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو اجتمعوا له.

ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم:

إرضاؤه العقل والعاطفة:

وفي كلِّ إنسانٍ قوَّتان:

أ ـ قوَّة تفكير،

ب ـ وقوَّة عاطفة ووجدان.

أما الأولى، فقوة تغوص باحثة عن الحقائق المستترة والمعاني الباطنة. وأمَّا الثّانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر في القشرة البادية، والنفس الإنسانية إمَّا أن تغوص مع تلك أو تطفو مع هذه لا تستطيع أن تغوص أو تطفو في آن واحد، أو لحظة واحدة.

ومن هنا فلم نر ولن نر إنساناً كائناً من كان عالماً أو حكيمًا أو اديباً أو شاعراً

يمسك بالأمر من طرفيه. فيأتي بكلام واحد فيه حاجة هاتين القوّتين، ولو وجدت هاتان القوتان عند أحد من الناس فإنّهما لا يعملان إلاّ مناوبة كلما قويت واحدة، اضمحلت الأخرى، وكاد ينمحي أثرها، وكلنا يحس من نفسه تناقص (قوة الوجدان) عند استيلاء (قوة التفكير) فكم ترك المهموم من طعام، وكم هجر من لذيذ المنام.

وحين تظهر (قوة الوجدان) تضعف (قوة التفكير) فلا يتقن عقله فكراً ولا يصيب هدفاً وأدرك ذلك العلماء فقالوا: (لا يقضي القاضي وهو حاقن لأنه ضاق قلبه فلا يحسن منه القضاء، ولا يقضي وهو غرثان لأنه بالجوع يشتد جوابه لأحد الخصمين، ولا يقضي وهو غضبان لأن حرارة الغضب تستر العقل فلا يصلح للقضاء)[1].

وأدرك ذلك الحكماء فقالوا: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل حتى يجد.

أقصد من هذا أن (قوة التفكير) و(قوة الوجدان) قوتان تتنازعان في النفس الإنسانية تجذبه تلك حيناً وتجذبه الأخرى حيناً وهو ـ إن حازهما جميعاً ـ يتأرجح بينهما يمسك بتلك مرة وبتلك أخرى ولا يمسكهما معاً.

فإن تكلّم المتكلّم ووفى بحقِّ العقل بخس حقَّ العاطفة، وإن وفى حقَّ العاطفة بخس حقَّ العقل، فإمّا أن يأتي بكلام علمي مجرد يرضي به فكره وعقله، وإمّا أن يأتي بكلام أدبي منمق يرضي به عاطفته حتى بات الناس يقسمون الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما:

(١) أسلوب علمي.

(٢) أسلوب أدبي.

وقسمت الدراسة في عصورنا هذه إلى علميَّة أو أدبيَّة، فطلاب العلم يدرسون حقائق العلوم لا يأبهون لجفاف الأسلوب.

---

(١) محاسن الإسلام: لأبي عبد الله محمد بن عبدالرحمن البخاري ص١١٤.

وطلّاب الأدب يدرسون ما يثير الوجدان ويحرّك أوتار الشعور ولا يهمهم بعد ذلك أن يكون غيّاً أو رشداً، حقيقةً أو خيالاً، صدقاً أو كذباً، بل يقولون أعذب الشعر أكذبه، تراهم جادّين وهم هازلون، يستبكون ولا يبكون، ويُطربون وإن كانوا لا يَطربون[1]، في كلِّ وادٍ يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون، إلاّ من شاء الله.

فلا تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء وما كلام المتكلم إلاّ نتاج قوته، إما قوة التفكير، وإمّا قوة الوجدان[1]، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

أقول لا تطمع بهذا من إنسان ولن تظفر به في كلام بشر وليس من سنن الله في النفس البشرية بل اختص الله بهذا كتابه (القرآن الكريم) فجمع في آياته بل الآية الواحدة (قوة الحقيقة البرهانية) حتى يقنع بحججه أرباب دقائق الحقائق الباطنة، (وقوة المتعة الوجدانية) حتى يشبع متذوقي القشرة السطحية للعبارة، فهو كلام الله جلَّ شأنه الذي لا يشغله شأن عن شأن، فهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان واحد وأن يمزج الحق والجمال فلا يبغيان، ويخرج من بينهما شراب خالص سائغ للشاربين.

تدبروا في آيات القرآن الكريم فسترون أنها في معمعة البراهين والأحكام لا تنسى نصيب القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب، تجد ذلك في مطالعها ومقاطعها، بين كلماتها وحروفها[2]. رَتِّل على رسلك:ـ ﴿وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلقهُ، قالَ مَنْ يُحيي العِظَامَ وهِيَ رَميم﴾[3]، ترى كيف أوردت هذه الآية شبهة على البعث ثم ردَّت على تلك الشبهة بما لا يبقي لها أثراً بعبارة وجيزة، بليغة، فصيحة، تناسقت ألفاظها، وسمت معانيها، ودقت دلالتها بما لو ابتغى إلى مثلها سبيلاً أفصح الفصحاء، وأعلم العلماء، واجتمعا له لم يقرراه إلاّ في صفحات وصفحات، إن هما قرَّراه. ورتِّل ـ إن شئت ـ قوله تعالى: ﴿لو كَانَ فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفَسدَتا﴾[4]، وتأمَّل

---

(١) انظر النبأ العظيم: درّاز، ص١١٤-١١٥. (٢) انظر النبأ العظيم: درّاز ص١١٦.

(٣) سورة يس: الآية ٧٨. (٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

وتدبّر كيف اجتمع في كلمات سبع عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة، ودقة التصوير لما يعقب التنازع من (الفساد) الرهيب مما لو ابتغى مثله فلاسفة العصور كلها لما استطاعوا تقريره إلاّ بعبارة طويلة جافّة.

وإن شئت - وكل القرآن كذلك - فاقرأ قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغَلَّقت الأبوابَ، وقالت هَيتَ لكَ، قالَ معاذَ الله إنَّه رَبِّيَ أحسنَ مَثواي، إنَّه لا يُفلح الظَّالمون﴾[1].

تأمل كيف اشتملت على العظات البالغة، والبراهين الساطعة، وآداب الشرف والعفاف والأمانة وخشية الله، وفوق هذا كله، كيف قابلت بين دواعي الوقوع في الغواية الثلاثة:

(١) مراودتها له.
(٢) إغلاق الأبواب.
(٣) دعوتها له (هيْت لك).

بدواعي العفّة الثلاثة:

(١) قوله: (إنه ربي).
(٢) قوله: (أحسن مثواي).
(٣) قوله: (إنه لا يفلح الظالمون).

فصورت هذه الآية بجزالة لفظ، وفصاحة عبارة، وسموّ معنى، وهي تسوق قصّة من القصص جدلاً عنيفاً بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، وبسطت جوانب القضية وشخصت الأحداث حتى لكأنك تنظر إليها من زاوية خفية.

وهكذا القرآن كله يسوق عويص القضايا ودقيق المعاني بأسلوب سائغ ييسر على النفوس أن تتجرّع الأدلة العقلية، ويرفّه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجه العقول والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان[2].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٣.
(٢) مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، جـ٢، ص٢١٠.

من خصائص الأسلوب في القرآن الكريم :
جودة السبك وإحكام السرد

وبيان ذلك ـ كما يقول الزرقاني رحمه الله تعالى ـ: (أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجُمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنَّه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنـه حلقة مفرغة، أو كأنه سِمْط[1] وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار: نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره)[2].

وهذا الإمام السيوطي ينقل عن ولي الدين الملوي قوله: (قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب، أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتَّبةٌ سورهُ كلُّها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزّة، ومن المعجز البيِّن أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كلِّ آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جمٌّ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له)[3].

ولا تحسبنَّ أن جودة السبك، وإحكام السرد، ليس أمراً بذي بال، ذلكم أن الكلام هو مرآة المعاني، فإذا اتسق واتَّحد وترابطت أجزاؤه، وتلاحمت أفراده، وأحكم سرده: صفت معانيه وانجلت، وإلا يكن الكلام كذلك فإن المعنى حتمًا سيتبدد وستتفرق أجزاؤه كما تتبدد الصورة على المرآة المشروخة.

---

(١) السِّمْطُ: القلادة.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني ١/٥٣.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢ ص١٠٨.

إذاً فجودة السبك وإحكام السرد ضرورة لصفاء المعاني، فإذا علمت ذلك فاعلم أيضاً أن تحقيقه عويص سلمه وصعب المرتقى بل الأمر فيه يحتاج إلى ملكة راسخة وحذق مكين في علم الكلام.

فعلى من رام ذلك أن يختار الموقع المناسب لكل عبارة من كلامه أيها يجعل قاعدة، وأيها يجعل تتمة، وأيها يكون مطلعاً، وأيها يختم بها كلامه، فإذا قرَّ قراره في ترتيبها كان عليه أن يحسن ربطها ويحكم سردها ويمزج بينها مزجاً بل عليه أن يختار أحسن أساليب المزج، وحسنها ليس واحداً في كل مقام فقد يكون الإسناد مرّة أفضل، وقد يكون التعليق أُخرى، وقد يكون العطف ثالثة، وقد تكون الإضافة رابعة. ثم عليه أن ينقي بعد ذلك عباراته من الحشو ومن نَبْوَةِ لفظه أو جسأة حرف قد تخدش رهافة حس المتذوق. فإن أتقن ذلك وأداه حق أدائه، انتقل إلى المعنى الثاني وفعل به كما فعل بالمعنى الأول وزاد على ذلك إتقان ربطه بالمعنى السابق وبالمعنى اللاحق.

ورصف المعاني كرصف المباني يضعها البنّاء لبنةً لبنة، ويضع بين اللبنات ما يربط بعضها ببعض ثم يعود عليها كلها بما يغطي آحادها ويظهرها كالسبيكة الواحدة، ثم يكر أخرى يزيل ما خرج عن سمتها أو نبا عن حدها، وعلى قدر إتقانه للبناء تكون مهارته.

فإذا أدركت ذلك فانظر في كلام البشر، فستجد أكثرهم لا يتقنون تنظيم أغراضهم وأجزاء كلامهم بل يسوقونها أشتاتاً مفككة، وكثيراً ما عاب النقاد فحول الشعراء بسوء التخلص حين ينتقلون من معنى إلى معنى في القصيدة الواحدة، وقد يضطر خاطبو البلاغة للربط بين غرض وغرض إلى استخدام أسماء الإشارة أو أدوات التنبيه أو كثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعناوين وعبارات (أما بعد)، (وإن قلنا)، (ونقول كذا)، (قلت)، أو الإشارة في مقدمة الأبحاث إلى تقسيمه إلى أبواب وفصول كاعتذار مسبق للانتقال الفجائي من معنى إلى معنى.

أما القرآن الكريم فانظر في سبكه، وتأمّل في سرده، وأبصر هل ترى من

فطور، ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير، فهو: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾[1].

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2].

﴿كتابٌ أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبير﴾[3].

﴿قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾[4].

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾[5].

---

(١) سورة الزمر: من الآية ٢٨ .

(٢) سورة النساء: من الآية ٨٢ .

(٣) سورة هود: من الآية الأولى.

(٤) سورة الفرقان: من الآية ٦ .

(٥) سورة الكهف: الآية الأولى.

من خصائص الأسلوب في القرآن الكريم:
تعدد الأساليب واتحاد المعنى

وقد اكتسى القرآن لباساً فضفاضاً من الجدة والروعة وظهرت على صفحته حلاوة وطلاوة، لا يمله قارئه، ولا يسأمه سامعه، ولا يضج من تصريفه تاليه، وما ذاك إلاّ لأن القرآن اعتنى بتصريف القول فجاء بالمعنى الواحد بألفاظ متعددة وطرق مختلفة، يلهث دونها بآماد أبلغ البلغاء، ويكبو خلفها بقرون أفصح الفصحاء.

وإن شئت مثالاً على تصريف القول في القرآن أوردت لك مثلاً اقتبسته من أمثلة أوردها الشيخ الزرقاني ـ رحمه الله تعالى ـ فذكر (منها تعبيره ـ أي القرآن الكريم ـ عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

(١) الإتيان بصريح مادة الأمر، نحو قوله سبحانه: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**﴾[١].

(٢) والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو: ﴿**كُتِبَ عليكم الصِّيام**﴾[٢].

(٣) والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿**ولله على النَّاس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾[٣].

(٤) والإخبار عن المكلَّف بالفعل المطلوب منه نحو: ﴿**والمطلَّقات يتربَّصن بأنفسهنَّ ثلاثة قروء**﴾[٤]، أي مطلوب منهن أن يتربصن.

---

(١) سورة النساء: من الآية ٥٨.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٨٢.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ٩٧.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٢٨.

(٥) والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره نحو: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾[١]، أي مطلوب من المخاطبين تأمين مَنْ دَخَلَ الحرم.

(٦) وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر نحو: ﴿حافظوا على الصلوات والصَّلاة الوسطى﴾[٢]، أو بلام الأمر نحو:

﴿ثم ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم، وليطَّوفوا بالبيت العتيق﴾[٣].

(٧) والإخبار عن الفعل بأنه خير نحو: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾[٤].

(٨) ووصف الفعل وصفاً عنوانياً بأنَّه بِرّ نحو: ﴿ولكنَّ البِرَّ مَن اتَّقى﴾[٥].

(٩) ووصف الفعل بالفرضيَّة، نحو: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾[٦]، أي من بذل المهور والنفقة.

(١٠) وترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً، فيضاعفه له، وله أجر كريم﴾[٧].

(١١) وترتيب الفعل على شرط قبله نحو: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾[٨].

---

(١) سورة آل عمران: من الآية ٩٧.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٣٨.

(٣) سورة الحج: من الآية ٢٩.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٢٠.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٨٩.

(٦) سورة الأحزاب: من الآية ٥٠.

(٧) سورة الحديد: من الآية ١١.

(٨) سورة البقرة: من الآية ١٩٦.

(١٢) وإيقاع الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام نحو: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكَّرون﴾[١]، أي تذكَّروا.

(١٣) وإيقاع الفعل عقب ترجٍّ نحو: ﴿ولعلَّكم تشكرون﴾[٢].

(١٤) وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل نحو: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[٣])[٤].

هذا مثال واحد من أمثلة تصريف القول في القرآن الكريم جاء (الأمر) فيه بهذه الأساليب المتعددة.

وهكذا تجد التعبير القرآني يعدد الأساليب في أداء المعنى الواحد بألفاظ متعددة بين إنشاء وإخبار وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة وخطاب، ومضي وحضور واستقبال، واسمية وفعلية، واستفهام، وامتنان، ووصف، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك.

وتصريف القرآن للقول مِنَّة يمنها الله على الناس ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعاً، وتدبُّراً وعملاً، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: ﴿ولقد صرَّفنا للنَّاس في هذا القرآن من كلِّ مثلٍ، فأبى أكثر الناس إلَّا كفوراً﴾[٥]، وقوله سبحانه: ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للنَّاس من كلِّ مثلٍ، وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً﴾[٦])[٧]، وقوله سبحانه: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾[٨]، ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد﴾[٩].

﴿وكذلك نصرِّف الآيات وليقولوا درست﴾[١٠] وغير ذلك من الآيات.

---

(١) سورة النحل: من الآية ١٧.
(٢) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.
(٣) سورة المائدة: من الآية ٤٤.
(٤) مناهل العرفان: الزرقاني جـ٢، ص٢١٥-٢١٦.
(٥) سورة الإسراء: من الآية ٨٩.
(٦) سورة الكهف: من الآية ٥٤.
(٧) مناهل العرفان: الزرقاني جـ٢ ص٢١٨.
(٨) سورة الإسراء: من الآية ٤١.
(٩) سورة طه: من الآية ١١٣.
(١٠) سورة الأنعام: من الآية ١٠٥.

من خصائص الأسلوب في القرآن الكريم :
الجمع بين الإجمال والبيان

الإجمال والبيان أمران متقابلان لا جتمعان في كلام واحد إن وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثاني زال الأول، فكلام البشر إما أن يكون مجملاً، وإما أن يكون مبيناً ولا يكون بحال من الأحوال مجملاً مبيناً في آن واحد هذا في كلام البشر.

أما القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى، فالأمر غير ذلك فهو خارق للعادة فلا عجب إذاً أن يجتمع في آية منه واحدة البيان والإجمال جميعاً.

تقرأ الآية القرآنية فتجد فيها من الوضوح والظهور ما يبوئها درجة القمّة في (البيان) بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض، يسبق معناها إلى نفسك دون كد ذهن ولا إعادة تلاوة، حتى تحسب نفسك قد أحطت بكل معناها لم يبق منه شيء، فإن أعدت النظر مرة أخرى لاح لك منها معانٍ جديدة، كلها صحيح أو يحتمل الصحة فإن زدت التمعن وأطلت، أعطت من المعارف والأسرار قدر ما يستوعبه ذهنك، حتى تكل ويكل مهمك، ومعانيها لا تزال تفيض حتى ترى للآية الواحدة وجوهاً متعددة تدرك منها ما تدرك ولو نظر فيها غيرك لرأى وجوهاً لم تطلع عليها وانكشف له من معانيها ما لم ينكشف لك فتؤمن حينئذٍ أن في الآية (اجمالاً) يضم المعاني العديدة.

ولهذا السر أيضاً وسعت الآية الواحدة طوائف متعددة يستدلون بها - على اختلاف آرائهم - على ما ذهبوا إليه والآية هي هي.

وإن شئت مثلاً من الآيات التي جمعت بين البيان والإجمال فاقرأ قوله تعالى: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[1]، (هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس، ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها: أنه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٢.

سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله :ـ لماذا يبسط الرزق لهؤلاء، ويقدره على هؤلاء؟ أصبت. ولو قلت: أنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد أصبت، ولو قلت: أنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت، ولو قلت: أنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله أصبت، ولو قلت: يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت، فعلى الأول يكون الكلام: تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا، وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطه يده جلَّ شأنه، وعلى الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر، حتى يبدل عسرهم يسراً، وفقرهم غنىً من حيث لا يظنون، وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين، إما بدخولهم الجنة بغير حساب، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العد، ومن وقف على علم التأويل واطّلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب)[1].

فهلاَّ تأمَّلت معناها (البيِّن) الذي تبادر إلى ذهنك ثم هذه المعاني التي (أجملت) فيها بعد أن أمعنت النظر ذلكم المراد بقولنا: إن آيات القرآن تجمع بين الإجمال والبيان، وهو أمر لا تجد مثله فيما سواه.

(١) النبأ العظيم: درّاز، ص١١٧-١١٨.

من خصائص الأسلوب في القرآن الكريم :
إيجاز اللفظ مع وفاء المعنى

اللفظ والمعنى طرفان متقابلان إن أدنيت هذا أبعدت الآخر، ولئن كان يتسنى لخياط اللباس أن يوازن بين قطعة الثوب، وجسد الإنسان فيوافق هذا لذاك فإن الأمر غير ذلك عند أرباب الكلام، فإن هم اتجهوا إلى اللفظ ينقونة من الطول ويخلصونه من الفضول... قصروا في المعنى فعادوا يشرحون ويوضحون فيقعون في أسوأ مما هربوا منه، وإن هم اتجهوا بأذهانهم إلى المعنى وإظهاره جلياً لا غموض فيه ولا إبهام، لم يجدوا مفراً من أن يمتطوا صهوة الإسهاب والإطناب، لأنهم لا يجدون في قصير العبارة شفاء ووجيز اللفظ وفاء... فيبقون بين بين يسهبون حيناً... فيفون بالمعنى مع الإسهاب وهذا فيه ما فيه عند أرباب البلاغة، أو يوجزون اللفظ فينقص المعنى بقدر إيجاز اللفظ... وهذا فيه ما فيه من العي والحصر.

وكل ذلك يدركه المرء من نفسه أو من غيره ما كتب كاتب شيئاً وتعقب نفسه إلاّ وقال: لو قلت كذا، لكان أفضل، ولو أضفت كذا، لكان أوفى، ولو حذفت كذا، لكان أجمل، ولو عاد سبعين مرة لوجد في كل مرة ما يحتاج لمحو أو إثبات أو تهذيب أو تبديل، يدفعه لذلك أمران لا ثالث لهما، إما أن يكون في اللفظ إسهاب أو نحوه، أو أن يكون في المعنى قصور أو نحوه.

أما أن يجمع بليغ من البشر بين إيجاز اللفظ ووفاء المعنى، فإن هذا متعذر... وحين نقول متعذر، لا نعني أبداً أنه لا يتسنى له الإتيان به على الإطلاق، وإنما نقصد ونؤكد على أنه لا يملك أن يكون كل كلامه على هذا النمط، وإلاّ فقد عرف أهل البلاغة الإيجاز مع وفاء اللفظ وضربوا له أمثلة.

ومهما أوتي البليغ من البلاغة فإنه قد يملك أن يجمع بين هذين الأمرين (الإيجاز اللفظي، والوفاء بالمعنى) في جمل معدودة، لكن الإعياء والفتور لا بد أن يلحقا به في بقية كلامه فينحل من عقدة كلامه ما كان وثيقاً وينفلت من يده

زمام الكلام الذي كان يطوعه ويملكه ثم يجد من العبارات التي كانت قبل قليل تنقاد له جموحاً، ويجد في امتطائها مشقة.

واسأل أهل الذكر هل رأى أحدهم قصيدة شعرية أو قطعة نثرية جاءت كل جملها جامعة بين إيجاز اللفظ ووفاء المعنى؟! فإن فعلت أجابوك بمقول واحد: إنَّ أشعر الشعراء وأبلغ الكتَّاب لم يتمكنوا من ذلك إلاَّ في أبيات معدودة أو جمل محدودة، وكم قال الشعراء من قصائد لم يبرز الشاعر فيها إلا بأبيات معدودة، وظهر القصور والضعف في أبيات أخرى من نفس القصيدة، ولولا تشبث هذه بتلك لهجرها الناس واندرست وما ألقى لها الناس بالاً، وما ذاك إلاَّ لأن الشاعر استطاع في أبيات (معدودة) أن يصور المعاني وافية بعبارة وجيزة وكلَّ عزمه وفترت قوته عن أن يحقق هذا في كل قصيدته.

فإن أردت أن تقرأ كلاماً جمع هاتين الغايتين من أوله إلى آخره، فاقرأ القرآن الكريم حيث البيان الذي لا تحس فيه عوجاً ولا أمتا، يؤدي لك كل معنى بلا قصور في عناصره الأصلية ولا صوره الكمالية، بأحسن عبارة لا غرابة في ألفاظها، ولا كدر في كلماتها، ولا زيادة في كلمة، ولا قصور في حرف، بل تجد في كل كلمة جزءاً من الصورة لا بد منه، إن حذفتها نقص من الصورة قدرها، وإن أبدلتها شذَّ من الصورة عرضها، فلا ترغب بها بديلاً، ولا ترضى بغيرها مثيلاً...

وسر ذلك أنه كلام الله العليم الخبير، تنزه عما يعتري البشر من الكلل والقصور والإعياء فلا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ وهو العزيز الحكيم.

وكأني بك تورد شبهة قد ترد على ذهن اللبيب المستفسر تقول الكاف في قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾[1]. قال كثير من العلماء إنها زائدة قالوا ذلك فراراً من الوقوع في الاستحالة العقلية التي يفضي إليها بقاء الكاف على معناها الأصلي لأن معناها حينئذ ليس مثله شيء ففي ذلك إثبات للمِثْل ونفي لِمثْل المِثْل، وهذا لا يصح أن يقال فلجأوا إلى القول بزيادة الكاف، فإن سلَّمنا ذلك، سلَّمنا زيادة

---

(١) سورة الشورى: من الآية ١١.

في اللفظ عن المعنى، وهذا خلاف ما نريد تقريره هنا.

وقد وجه العلماء ذلك بتوجيهات عدة تبقي المعنى الأصلي للكاف، من غير أن يؤدي للوقوع في الاستحالة العقلية فتكون ثَمَّ المطابقة بين اللفظ والمعنى.

فطائفة رأوا أنها لا تؤدي إلى المستحيل العقلي لا نصاً ولا احتمالاً وحجتهم في ذلك أن نفي مثل المثل يتبعه عقلاً نفي المثل أيضاً.

إذ لو كان هناك مثل لله، ـ تعالى الله عن ذلك ـ، لكان لهذا المثيل مثل هو الله فصار لمثله مثل، لأن كل متماثلين يُعتبر كل واحد منهما مثلاً لصاحبه، وعلى هذا فإنه بنفي مثل المثل انتفاء للمثل وهو الذي نقصده.

هذا توجيه وهو على صحته، إنما أريد به دفع القول بزيادة الكاف لابيان ضرورة البلاغة إليـه، ونحن هنا لا نريد أن نقف عند حد عدم زيادة هذا الحرف بل نريد أن نثبت أن لهذا الحرف معنى خاصاً يعطي جزءاً من الصورة الكاملة للمعنى لا يغني عنه غيره.

وبيان ذلك أنه لو حذفت الكاف من الآية لأصبحت: (ليس مثله شيء) وهي بهذا النص لا تفيد المعنى الـذي تفيده بإضـافة الكاف، إذ أنها تفيد ـ بالحذف ـ نفي المثل المكافىء التام المماثلة فحسب، وذلكم هو ما يسبق إلى الفهم ويتبادر إليه، وإذاً لدبت الوساوس إلى النفس أن هناك رتبة لا تماثل الألوهية تماماً ولكنها تليها مباشرة فتبحث عمن يحتل هذه المرتبة فقد يكون ملكاً، أو نبياً، أو كوكباً، أو نجماً، أو من الجن، أو من الأوثان. . . الخ، فيكون له بالإله الحق شَبَهٌ هو دون المطابقة التامة تجعله يشارك الإله الحق في شيء من خلقه أو أمره، فجاء حرف الكاف سيفاً باتراً يقطع كل شبهة ويحسم كل وسواس بوجود المثيل أو شبه المثيل وكأنه يقول ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله فضلاً عن أن يكون مثلاً له مماثلة تامة، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى[1].

ولعل قائلاً يقول: لِمَ لَمْ يكن النص إذاً (لا يشبهه شيء) إذا كان المقصود

(١) اقتبست هذا التوجيه مما كتبه د/ محمد عبد الله درَّاز: ـ النبأ العظيم، ص١٣٢-١٣٣.

نفي شبه المثل؟ فأقول أن قولنا: (ليس مثله شيء)، تفيد نفي المثل، ولا تفيد نفي شبه المثيل، وقولنا: (لا يشبهه شيء)، تفيد نفي شبه المثيل ولا تفيد نفي المثيل، أما قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾[1]، فتفيد نفي المثل وشبه المثيل، والله أعلم.

من خصائص الأسلوب في القرآن:
تصوير المعاني

حين يستقر في ذهني معنىً من المعاني وأريد أن أنقله كما هو إلى ذهنك فإني أترجمه إلى ألفاظ وكلمات تنساب من مقولي وتلج عن طريق أذنيك إلى عقلك فيستقبلها ذهنك ويحولها إلى معان قد تطابق المعاني الأصلية التي في ذهني، وقد لا تطابقها، إمَّا لقصور في الترجمة عندي، أو لقصور في الإدراك عندك أو لهما معاً.

ولا ريب أني سأبذل وسعي وقدر طاقتي لإيصال ما في ذهني إلى ذهنك وسأسلك لذلك ما استطعت من الوسائل، وبما أن الألفاظ ليست إلَّا نبرات صوتية جامدة، فلا شك أن تشكلها إلى لوحة ترسم بنفسها المعنى المراد حتى تكاد أن تدركه العين قبل أن يستوعبه الذهن. لا شك أن هذا من أنجع السبل لانتقال المعاني من ذهن إلى ذهن.

والرسم بالكلمات والحروف فن لا يجيده كثير من الناس، لا أريد بذلك رسمها المحسوس على الورق، ولكني أريد إظهار المعاني بكلمات تكاد أن تجعلها بصورة المحسوس حتى تهم بلمسها بيديك، وحتى تلج إلى ذهنك مترابطة متكاملة، لا تكلفه مشقة تركيبها، ولا تثقله بمهمة تجميعها، فتقسره قسراً على الفهم والإدراك، بل تفجؤه بانطباعها فيه بمجرد توجهه إليها.

هذا ما أقصده هنا بتصوير الألفاظ للمعاني في القرآن الكريم أو ما يعرف بـ (التصوير الفني في القرآن الكريم)، وهو علم ارتبط في الأذهان حقاً بسيِّد

---

(١) سورة الشورى: من الآية ١١.

قطب ـ رحمه الله تعالى ـ، فهو أول من أتقن الكتابة فيه ورسم حدوده ومعالمه، وأبرز حقيقة إن لم تكن غير ظاهرة عند من سبقه، فهي بلا شك باهتة لا تكاد تبين تلكم الحقيقة هي أن: (التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن)(١).

ويوضحها رحمه الله تعالى بقوله:ـ (لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية، والحالات النفسية، وإبرازها في صورة حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص المروية، والأمثال القصصية، ومشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، والنماذج الإنسانية... كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخييل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة)(١).

ثم قارن رحمه الله بين هذه الطريقة في نقل المعاني والطريقة الأخرى التي تنقل المعاني، مجردة من التصوير، فقال: (فما فضل هذه الطريقة على الطريقة الأخرى التي تنقل المعاني والحالات النفسية في صورتها الذهنية التجريدية، وتنقل الحوادث والقصص أخباراً مروية، وتعبر عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظياً لا تصويراً تخييلياً؟.

يكفي لبيان هذا الفضل أن نتصور هذه المعاني كلها في صورتها التجريدية، وأن نتصورها بعد ذلك في الهيئة الأخرى التشخيصية.

إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة، وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحواس بالتخييل ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد)(٢).

---

(١) التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص٣٢.

(٢) المرجع السابق، سيِّد قطب، ص١٩٤.

وينبغي أن نقول إن القرآن الكريم لا يكتفي بالتعبير عن المعنى بصورة محسوسة ثم يقف عند ذلك بل يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية، لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل.

فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين إلى نظارة وينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، أو مثل يضرب، ويتخيل أنه أمام أحداث يراها حين وقوعها، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الأحداث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة، إنها الحياة هنا.. وليست حكاية الحياة.

فإذا ما ذكرنا ـ وكدنا ننسى ـ أن الأداة التي تصور هذه المعاني، وتشخص هذه الأحداث إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تُصَوِّر، ولا شخوص تُعَبِّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن)[1].

والأمثلة على هذا النوع كثيرة جداً ومتنوعة جداً، لا نريد تعداد أنواعها، ولا استقصاء أمثلتها، فالمقام ليس مقام التعداد، ولا الاستقصاء، ومن أرادها فدونه كتابيّ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ، (في ظلال القرآن)، و(التصوير الفني في القرآن)، والمقام هنا مقام تمثيل ومن أمثلة سيِّد رحمه الله نقتبس مثلاً أو مثلين...

فمن ذلك ما ضربه الله مثلاً للمنافقين في قوله سبحانه: ﴿أو كصيِّبٍ من السَّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهُم في آذانهم من الصَّواعق حَذَر الموتِ واللهُ محيطٌ بالكافرين، يكاد البَرقُ يَخطف أبصارهم، كلَّما أضاءَ لهم مَشوا

---

(١) التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص٣٢-٣٣ بتصرف.

فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إنَّ الله على كل شيء قدير﴾[1].

قال ـ رحمه الله تعالى ـ: (إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء. . . إن الحركة التي تغمر المشهد كله:

من الصيب الهاطل. . إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يجثم الظلام. . إن هذه الحركة في المشهد لترسم ـ عن طريق التأثر الإيحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون. . . بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكسون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور، وما يفيئون إليه من ضلال وظلام، فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس)[2].

وقد يكون التصوير بتجسيم المعاني ونقصد به جعلها في صورة مجسمة، فيصف العذاب بأنه غليظ: ﴿ومن ورائه عذابٌ غليظ﴾[3].

واليوم بأنه ثقيل: ﴿ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾[4]، فينقل العذاب من معنى مجرد إلى شيء ذي غلظ وسمك وينتقل اليوم من زمن لا يُمْسَك إلى شيء ذي كثافة ووزن، وكقوله سبحانه: ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾[5]، لبيان أن القلب الإنساني لا يتسع لاتجاهين وكقوله: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً

---

(١) سورة البقرة: الآيتين ١٩-٢٠.

(٢) في ظلال القرآن: جـ١ ص٤٦.

(٣) سورة إبراهيم: من الآية ١٧.

(٤) سورة الإنسان: من الآية ٢٧.

(٥) سورة الأحزاب: من الآية ٤.

أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾[1]، لتفظيع الغيبة حتى لكأنما يأكل الأخ لحم أخيه الميت[2].

ولا يلزم أن يكون التصوير في جملة من الآيات أو في آية كاملة بل قد يكون التصوير في كلمة واحدة، خذ مثلاً كلمة كبكبوا من قوله تعالى: **﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾**[3]، (كبكبوا... وإننا لنكاد نسمع من جَرْس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام وصوت الكركبة الناشىء من الكبكبة، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه)[4].

تلكم سمة بارزة في أسلوب القرآن الكريم يفعم الكلمة بالحركة، والجملة بالمشاهد والصور المتحركة، حتى لتحسب نفسك في معمعة الحدث فتنفعل مع المشهد قدر حضور ذهنك وقدر تأملك وتدبُّرك، ومن ثم يكون التأثر بالنص القرآني، فتلين له القلوب وتقشعر له الجلود، وتفيض منه الدموع، وتظهر علامات الدهش والعجب من حيث يدري التالي له أو من حيث لا يدري لأن القرآن بأسلوبه هذا نقله برمته، بمشاعره وأحاسيسه، بقدر ما أعطى القرآن منها إلى معانيه المجسَّمة وحقائقه المصوَّرة.

---

(١) سورة الحجرات: من الآية ١٢.

(٢) انظر لمزيد من هذه الأمثلة، التصوير الفني في القرآن: سيد قطب ص٦٠-٧١.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٩٤.

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، جـ٥، ص٢٦٠٥.

من خصائص الأسلوب في القرآن الكريم:
التأثير بلا تأثر

كلنا يدرك من نفسه ومن غيره من البشر أنه إذا أخذ في الجدل دفاعاً عن نفسه، أو إقناعاً بقضية يراها واضحة جلية، ولا يراها خصمه كذلك، ظهرت على كلامه مسحة من الانفعال والتأثر إيجاباً أو سلباً، فيفرح باقتناع خصمه وتسليمه، ويحزنه ويؤلمه حين يخفق في ذلك. لم يسلم من ذلك حتى الأنبياء عليهم السلام.

خذ مثلاً نوحاً عليه السلام، حين جرت به السفينة وبمن آمن معه فتنبهت فيه عاطفة الأبوة، فأخذ ينادي ابنه يحاول إقناعه (متأثراً) بهذه العاطفة فيناديه بأكثر العبارات دفقاً للاستعطاف من الأب لابنه (يابني)، ﴿**يا بني اركب معنا**﴾[1]، ويزداد تدفق العطف والاستعطاف: ﴿**ولا تكن مع الكافرين**﴾[1].

ولم تحفل البنوة العاقة باستعطاف الأب فآوت إلى فتوتها مخدوعة بقوّتها: ﴿**سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء**﴾[1]، فتجيبه عاطفة الأبوة التي لا تزال تتدفق: ﴿**لا عاصم اليوم من أمر الله**﴾[1]، ثم تستدرك هذه العاطفة متشبثة بأمل: ﴿**إلاَّ من رحم**﴾[1]، حتى لا تقطع أملها ويحسم الموقف موج كالجبال، ومع هذا فلم يقض هذا الموج بضخامته على عاطفته، فما زالت تتدفق، وترفع كفَّيها: ﴿**ربِّ إنَّ ابني من أهلي**﴾، ويأتيها الجواب الحكيم الذي لا يشوبه التأثر فتقنع وتسلم الأمر.

هذه عاطفة نوح في جدله مع ابنه طغت على أسلوبه فأثرت على صاحبها فصاغ كلامه وفق رغبتها.

وخذ مثلاً آخر في مقابلة نوح مع ابنه، قصة إبراهيم عليه السلام مع والده. في هذه المرة غلبت عاطفة البنوة فخاطب الابن والده ممتطياً صهوة أكثر العبارات تأثيراً في قلب أقسى الآباء (يا أبت)، مصدِّراً هذا النداء لكلِّ جملة يوجِّهها إلى

(١) سورة هود: من الآيتين ٤٢-٤٣.

والده: ﴿يا أبتِ لِمَ تعبُدُ مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ★ يا أبت إني قدجاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ★ يا أبت لا تعبد الشَّيطان إنَّ الشيطان كان للرحمن عصياً ★ يا أبت إنِّي أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطانِ ولياً﴾[1].

استعطاف ما بعده استعطاف، وشفقة ما بعدها شفقة، تكاد كلُّ كلمةٍ تفيض عاطفة وتأثراً من إعراض والده عن دعوته، وكما لم تحفل البنوة العاقة باستعطاف الأب في قصة نوح مع ابنه، فإن الأبوة هنا بكل قسوتها تظهر في جواب الأب حتى كلمة (يا بني) لم تظهر من فم الأب لما فيها من فيض عاطفة واستبدل بها ﴿يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنَّك﴾ غلظة ما بعدها غلظة، وزادها غلظة ﴿واهجرني ملياً﴾، وهذه العاطفة من إبراهيم عليه السلام طغت على أسلوبه فأثرت عليه فصاغ كلامه وفق رغبتها، وطغت القسوة على أسلوب الأب فأثرت عليه فصاغ كلامه وفق رغبتها أيضاً.

وإنما تظهر مسحة الانفعال في الحديث إيجاباً أو سلباً في كلام البشر وما هي إلا قصور في الحول والقوة والقدرة فعوضته بها يحقق غرضها ويشبع رغبتها.

أما القرآن الكريم فلا تظهر عليه هذه السمة في جدله بل تلمح من وراء العبارة قوة أعلى من أن تنفعل قوة تؤثر ولا تتأثر تسوق الحجج والبراهين في عزة من لا تنفعه الاستجابة ولا تضره المعصية.

انظر إليه حين يجادل عن القرآن الكريم فلا يزيد في وصفه على كلمة: ﴿وهو الحق﴾[2]، هكذا بكل عزّة في لجة الخصام ووسط معمعة الشبهات تصدع كلمة (وهو الحق)، ولو أراد بشر أن يدفع عن نفسه في مثل هذا الموقف لانتفخت أوداجه، وغلت شرايينه، وعلا صوته، وأسهب قوله، كيف لا والحق معه وأولئك يغالطون في حقائق لا تلتبس، ولكن هذا القرآن ليس بكلام بشر حتى يكون

---

(١) سورة مريم: الآيات ٤٢-٤٥.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٩١.

كذلك، ولكنه كلام الكبير المتعال. وانظر إلى جدل القرآن في موضع آخر يدفع عن نفسه نسبته إلى بشر بعينه: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلِّمُه بشر**﴾[1]، فجاء الجواب بلا انفعال: ﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾[1].

بكل استعلاء وكبرياء جاء الجواب بإبطال هذه النسبة حتى أنه لم يخرج عن حدود الشبهة فلم ينف في هذا الموضع نسبته لإنسان آخر وإنما أبطل نسبته لشخص معين هو هذا الشخص الذي ألحدوا إليه وكأنما فصل هذا الجواب على هذه الشبهة تفصيلاً، لله ما أعف هذه الخصومة، وما أعز هذا المتكلم وما أغناه عن الاستعطاف، لا تنفعه طاعة فيستجديها ولا تضره معصية فيستدفعها، تالله ما هذا بكلام بشر بل كلام عزيز كبير حكيم متعال[2].

وبعد،

هذه بعض خصائص أسلوب القرآن الكريم وحق لكتاب هذه بعض خصائص أسلوبه أن يتميز عن كل كتاب، وأن يعلو كل كلام ولا يعلى عليه، وأن يحطم الشبهات، فلا يبقى عذر لتاليه، وتقوم به الحجة، حجة الله على العباد يوم القيامة.

من خصائص القرآن الكريم:

طريقة تأليفه

إني سائلك: ـ لو رمت أن تجمع كلامك في يوم واحد وتضمه معاً وتربط بين جمله واحدةً تلو الأخرى، هل سترى في جمله ترابطاً وفي معانيه اتحاداً وفي جرسه توافقاً؟ إني لأجزم وأنت تدرك ذلك أنه لن تتحقق فيه ميزة واحدة من هذه المزايا.

والتنافر والتباين سيكونان أكثر كلما اتسعت مدة الزمن فلو جمعت كلامك في سنة لكان أكثر تبايناً ونفوراً وتفككاً وانقطاعاً وإن زدت زاد..

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) انظر النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز ص١٢٦-١٢٧.

حتى الأدباء في نثرهم والشعراء في قصائدهم لو ذهبت ترتبها متصلاً بعضها ببعض لرأيت فيما بينها فجوات ولشعرت مهما كان حسك وذوقك بهزة النقلة وهزة الجرس تماماً كما تحس بها في سيارة أنهكها الاستخدام بيد سائق تحت التجربة تشعر بنقلة السيارة من قوة إلى قوة، ومن حال إلى حال، بل يتجاوز الإحساس المشاعر إلى البدن فتذهب مع اضطرابات السيارة إلى الأمام تارة وإلى الخلف تارة أخرى، وعن اليمين والشمال حيناً آخر.

حتى الحديث النبوي وهو كلام أبلغ البشر وأفصحهم، هل في قدرتك أن تجمع منه أحاديث لمناسبات مختلفة، وأغراض متباينة، وأزمان متباعدة، فتأتي بها سرداً في حديث واحد يصقله الاسترسال وتربطه الوحدة، وتصبغه دقة السبك، ومتانة الأسلوب، من غير أن تزيد بينها شيئاً، أو تنقص حرفاً بحيث لا يوجد بين أجزائه تفكك، إنك لو أوتيت ما أوتيت ما استطعت أن تركب من هذا وذاك شيئاً من ذلك.

ألا إن هذا ليس بمستطاعك في كلام البشر، وليس بمستطاع غيرك من البشر، ألا إن مصداقه وتحقيقه إنما وقع في القرآن الكريم لأنه كلام الله العليم الحكيم.

نزل القرآن في نحو ثلاث وعشرين سنة، ينزل خمس آيات خمس آيات، وقد يزيد وقد ينقص في أزمنة متباعدة، وأوضاع متباينة، ومجتمع متغير، وأغراض متعددة، وموضوعات متنوعة، وأساليب متبدلة، وأسباب مختلفة.

تالله إن لبعض هذه الأمور الأثر الأكبر في تشتيت الكلام، وتفكيك الأساليب، واختلاف المعاني لو كانت في كلام بشر، أما في القرآن فلا. كيف والرسول ﷺ كلّما نزلت عليه آية من الآيات قال ضعوها في مكان كذا من سورة كذا وهو بشر لا يدري (بطبعه) ما سينزل عليه بَعْدُ من الآيات، ولا ما سيحدث من الأسباب يقول هذا بلا تربص ولا تحيُّر ولا تريُّث، وكأنَّما رسمت بين عينيه خطة شاملة لسور القرآن وآياته كاملة، قبل أن تنزل. ولأحداثه قبل أن تقع وعلى هدي هذه النظرة يرسم وعلى ضوئها يرشد، بعزم أكيد، وتصميم وثيق، وتاريخ

القرآن يخبر أن آية نسخ حكمها وآية نسخت تلاوتها، وآية نسخ حكمها وتلاوتها، لكنه يؤكد أنه ما من آية نُقِلَت من موضع إلى موضع في سورتها، أو من موضع في سورة إلى موضع في أخرى، ولو وقع ذلك لقيل (تخير) لأحكم (وتردد) في أمتن (وتحير) في أسبك. . وتقلب وتغيير حتى استقر في الأحكم ترابطاً، والأمتن أسلوباً، والأدق سبكاً، وما جاء ذلك إلا بعد تقليب نظر، وإعمال ذهن، ولكنه لم يقع.

بل جاء ترتيب الآيات فور نزولها، واستقرت فيه لا تبغي منه انفكاكاً، ولا يبغي بها بديلاً، حتى أن الناظر فيه يحسبه أنها نزل جملةً واحدةً، بل الذي يعلم تنجيمه لا يدرك من نفسه أبداً مواضع البدايات والنهايات في كل نجم من الآيات، وخذ بيدك سورة البقرة وبالأخرى سورة الأنعام، واعرضهما على من شئت فإنه لن يدرك بحال من الأحوال أن الأولى نزلت مفرقة على بضعة وثمانين نجمًا، في تسع سنين، وأن الثانية نزلت دفعة واحدة كما يقول الجمهور.

ولن تعلم أنت من نفسك أن مثل سورة الضحى، وسورة اقرأ، وسورة الماعون، إنما نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين.

وإني لأستحلف ـ المنكر ـ بالله أيعقل أن يكون هذا القرآن من بشر وقد اتحدت معانيه، واتصلت جمله، وترابطت كلماته، ودقَّ سبكه، حتى لكأنَّه سبيكة واحدة مع الأسباب التي أشرنا إليها آنفاً.

وإن زال إنكاره وبقي شكه فليجمع أهل زمنه من شاء من بلغائهم، وفصحائهم، ثم ليطلب منهم أن يشتركوا في تأليف كتاب واحد تخضع ظروف تأليفه لظروف أو بعض ظروف نزول القرآن، ثم اسألهم بعد ذلك أن يجمعوا كلامهم وينظموا منه كلاماً محكمًا لا ترى فيه اختلافاً ولا تبايناً ولا عوجاً، ولا أمتاً، تالله لو فعل وفعلوا، لوجد ولوجدوا اختلافاً **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**[1] وتالله إن طريقة تأليف القرآن لتنطق بملء فيها أنه تنزيل من حكيم حميد، الذي يعلم ما كان وما سيكون، ولا يشغله شأن عن شأن.

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

من خصائص القرآن الكريم:
حفظ اللغة العربية

من المعلوم أن اللغة العربية تنقسم إلى قسمين:-

لهجات بائدة، ولهجات باقية.

أما البائدة فأهمها ثلاث: الثمودية، والصفوية، واللحيانية. أما الباقية: فهي لهجات القبائل الباقية في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام، ومن أشهرها قريش، وتميم، وطيء، وهذيل، وغيرهم، وليس المقام مقام الحديث عن هذه اللهجات وخصائصها، ولكن السمة الظاهرة أن العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية جعلت لهجة قريش هي قاعدة اللغة العربية الأصيلة، ذلكم أنها أغزر اللهجات مادة وأرقها أسلوباً وأغناها ثروة، فمن ثَمَّ هي أقدر اللهجات على التعبير الدقيق الجميل عن المعاني.

وقد علَّل الفرَّاء ذلك بقوله: (كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلَّموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ)[1].

أما اللهجات الباقية فقد كانت مليئة بالكلمات الثقيلة على السمع، واشتهرت قبائل بإقلاب الحروف وإبدالها مما يحيل الكلمات عن معانيها ويصرف الأذهان عن المراد بها، وقد جمع العلماء شيئاً من هذا ونسبوه لقبيلته كعنعنة تميم[2].

---

(١) المزهر: السيوطي، جـ١، ص٢٢١.

(٢) يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً فيقولون في أذن: عذن، وفي أسلم: عسلم.

وكشكشة ربيعة[١]، وكسكسة هوازن[٢]، وتضجع قيس[٣]، وعجرفية ضبة[٤]، وتلتلة بهراء[٥]، وفحفحة هذيل[٦]، وعجعجة طيء[٧]، والخلخانية الشحر وعمان[٨]، وغمغمة قضاعة[٩]، ووتْم حِمير[١٠] والانطاء[١١] والطمطمانية[١٢] والمعاقبة[١٣]، وغير ذلك[١٤].

وإضافة إلى الاختلاف في هيئة النطق أو ما يسمى بـ (اللهجة) فقد كان هناك اختلاف في معاني المفردات وقد يصل إلى اختلاف التضاد[١٥]، وكل هذا نتيجة لاختلاف أقاليم القبائل وبيئاتها وظروف حياتها، وعاداتها وتقاليدها، ومدى اتصالها بالقبائل الأخرى أو انقطاعها، وهذه اللهجات بلا شك متقاربة في تعبيراتها وأساليبها وتصاريفها وحركات إعرابها، ولم تكن مواطن الاختلاف بينها

(١) يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً فيقولون: منش وعليش أي منكِ وعليكِ.

(٢) يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سيناً، يقولون: أبُوسَ وامُّس يريدون أبوكَ وأمكَ.

(٣) التضجع: إمالة الحرف إلى الكسر.

(٤) التقعر والجفاء في الكلام.

(٥) هي أنواع منها كسر ما عدا الياء من حروف المضارعة، تقول: تِيثم وتِيذن بدلاً من تأثم وتأذن.

(٦) يجعلون الحاء عيناً، يقولون في أحل الله الحلال: أعل الله العلال.

(٧) يجعلون الياء المشددة جيماً، يقولون: في تميميّ: تميمجّ.

(٨) يقولون (مشا الله) أي (ما شاء الله).

(٩) مثل الهمهمة كلام لا تفهمه.

(١٠) يجعلون السين تاءً، فيقولون: كالنات أن كالناس.

(١١) يجعلون العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء كانطى في أعطى.

(١٢) هي إبدال لام التعريف ميماً، يقولون طاب أمهواء أي طاب الهواء.

(١٣) تعاقب الواو مع الياء يقول: أُوْيَةٌ وأُيَيَةٌ، وعزوت وعزيت، وتحوز وتحيز.

(١٤) انظر في ما ذكرنا المزهر: السيوطي جـ١، ص٢٢١، وفقه اللغة للثعالبي، ص١٠٧، ولهجات العرب، أحمد تيمور باشا، واللهجات العربية في التراث، جـ١، ص٣٥٩-٤٠٩.

(١٥) انظر المزهر: للسيوطي، جـ١ ص٢٥٦.

لتخرجها بأي حال من الأحوال عن اعتبارها لغة واحدة ذات أصول وقواعد تطرد في جميعها.

ولا يعني ذلك أبداً انفصال أي قبيلة بلهجتها عن اللغة العربية واستقلالها عنها، بل هم مع ذلك يدركون بأنفسهم عيوب لهجاتهم ويقرون بالفصاحة لغيرهم إذ لا تزال حاسة الذوق عندهم مرهفة يتذوقون بها أسرار البلاغة ويدركون بها وجوه البيان، ويعرفون بها عيوب الكلام، فهذا معاوية يسأل يوماً: مَنْ أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير، قال: من هم؟ قال: قريش، قال: ممن أنت؟ قال: من جرم)[1]، فهم وإن قصرت لهجتهم فقد استقامت أذواقهم، وصفت موازينهم، بها يعرفون صحيح الكلام وسقيمه، وأصيله ودخيله.

ومما لا شكَّ فيه أن أول سبيل لحفظ اللغة في تلك الفترة هو توحيد اللهجات، وجذب القبائل إلى لغة واحدة، وقد كانت كما أشرت من قبل لغة قريش هي أفضل اللهجات وذلك لسببين أشار إليهما اللغويون أولهما: - بعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ولهذا لم يحتج أهل الصناعة العربية إلا بلسانهم أو ما كان قريباً منه[2]، وثانيهما: - أن العرب كانوا يفدون عليهم في موسم الحج ويقيمون عندهم قريباً من خمسين يوماً في كل عام فيتخيرون من لغات أولئك الوفود ما استحسنوه، ويهملون ما استبشعوه، فصاروا أفصح العرب[3].

فلا عجب إذ نزل القرآن أن ينزل بلسان قريش ويجمع الناس على لغتهم فقضى على مواطن الخلاف، ومحى جوانب الاختلاف، فجمع الشمل، ووحَّد الكلمة، وهذَّب العبارة، وارتقى بالأسلوب، فحفظ اللغة بعد أن لاحت في الأفق نذر الافتراق، فالاندثار، ووحَّدها بعد أن بدت سمات الاختلاف.

---

(١) البيان والتبيين: الجاحظ ٤٩١-٤٩٢.

(٢) دراسات في العربية وتاريخها: محمد الخضر حسين، ص١٢٨.

(٣) المزهر: السيوطي، جـ١ ص٢٢١.

أما إن سألت عن وجه حفظ القرآن الكريم للغة العربية، فإنه أمر بيِّنٌ لا يحتاج إلى بسط وطويل بيان، وإنما يحتاج إلى إشارة تكفي اللبيب، أكتفي فيها ببيان الوجهين الرئيسين لحفظ القرآن للغة.

ذلكم أن القرآن سلك لحفظ اللغة العربية سبيلين واضحين:-

السبيل الأول: توسيع انتشارها بين الناس، وفي ذلك حفظ لها ونستطيع أن نسمي هذا السبيل سبيل القوة الدافعة. أما السبيل الثاني فهو سبيل التزامها ونستطيع أن نسمي هذا السبيل سبيل القوة الواقية[1] وإليك البيان:

أولاً: سبيل القوة الدافعة:

كانت اللغة العربية محدودة الموطن تقبع في شبه جزيرة العرب، لكن القرآن حين نزل بها ملأ صدورهم ففتحوا البلدان المجاورة وبثوا القرآن بين أهلها فأقبل أهل البلاد المفتوحة على القرآن وآياته يحفظونها وعلى لغته العربية يدرسونها.

يقول الأستاذ/ أ. ولفنستون في كتابه تاريخ اللغات السامية: (كانت لغة العرب في البلاد التي يفتحونها تتغلب شيئاً فشيئاً، حتى يتم لها الفوز على اللغة الأصلية للأمة المغلوبة، كما حدث ذلك في مصر والعراق والشام والمغرب والأندلس.

لذلك لم تقو اللغة القبطية على المقاومة طويلاً بل أخذت تنهزم أمام اللغة العربية تدريجياً وجعلت تتدهور شيئاً فشيئاً حتى حصرت في الأديرة والكنائس ثم اضمحلت بمضي الزمن حتى صار الكهنة الذين يستعملونها الآن للصلوات في بعض الكنائس لا يفهمونها جيداً، ويستعملون إلى جانبها الترجمة العربية)[2].

---

(١) انظر علوم القرآن: د. عدنان زرزور ص١٥ وما بعدها.

(٢) تاريخ اللغات السامية: أ. ولفنستون: ص٢٢٠-٢٢١.

وبهذا تعربت أقطار واسعة كالعراق والشام وشمال إفريقية، فاتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واتسعت معها رقعة اللغة العربية، وانتشر اللسان العربي بين أمم لم تكن تعرفه من قبل، بل ظهر من العجم من يُعلِّم العرب لغتَهم، ويصحِّح لهم عبارتهم، ويُخَطِّيء من يلحَن منهم، وظهر منهم أئمة البلاغة والفصاحة، وكأنهم أهل فطرتها، وأصحاب بجدتها.

وقِفُوا أيها الأحبة وتأمَّلوا.. قفوا واسألوا التاريخ قديمه وحديثه: لِمَ أقبل أهلُ البلاد المفتوحة على لغة الفاتح يتعلمونها ويدرسونها وينافسون أهلها في ميادينها، فإن زعم زاعم أنه من تقليد المغلوب للغالب، فإن هذا لا يصح ذلكم أن تلكم المناطق قد غزيت قبل الإسلام وبعده، وأيدت الغازي قُوةُ سلطةٍ لكنها لم تهجر لغتها، ولم تؤيد لغة الغزاة بل رفضتها، وتشبثت بلغتها، حتى خرج الغزاة، وحين دخل الإسلام بلادهم بادروا من أنفسهم إلى لغته يقرأونها ويبزُّون فيها الأقران بلا سلطة تدفعهم، ولا قوة تقسرهم، وما ذاك إلَّا لأن القرآن الكريم يفتح قلوب من أسلموا للغة العربية ويجذهم إياها ويندبهم إليها وهم بأمره يأتمرون وعلى هداه يسيرون.

ما الذي كان يمنعهم مثلاً أن يجمعوا بين العربية لغة دين وبين لغاتهم التي لم يفرِّطوا بها من قبل لغة حياة.. ما السر في هجرهم للغاتهم وإقبالهم على العربية، بل كيف اندثرت لغتهم في جيل أو جيلين، وشأن اللغات أن لا تندثر بهذه السرعة؟! الا إنه حبُّ القرآن.

ثم اطو صفحات تاريخ الإسلام أربعة عشر قرناً لتصل إلى عصرنا الحديث لا تكاد تجد دولة عربية واحدة لم يدخلها الاحتلال البريطاني أو الفرنسي أو الإيطالي أو الهولندي أو الإسباني، ومع هذا لم تستطع قوات هذه الدول كلها تحويل لغة بلد واحد من البلدان العربية إلى لغتها وخرجت منه وخرجت معها لغتها بل احتلت هذه القوات دولاً أخرى غير عربية في آسيا وفي إفريقيا، ولم تتغير لغة بلد من تلكم البلدان

وتستبدل بلغتها لغة الفاتح. لِمَ لَمْ تؤثر هذه اللغات المتعددة كما أثرت العربية؟!، لا شك أن سرَّ هذا أنَّ اللغة العربية هي لغة القرآن، فبانتشاره انتشرت وبالإقبال عليه أُقْبِلَ عليها ودُرِسَتْ.

ثانياً: سبيل القوة الواقية:

وهـذا سبيل وضعـه القـرآن الكـريم أيضاً لحفظ اللغة العربية فبالإضافة إلى نشرها في الأقطار وتوسيع رقعتها فقد جدد فيها وهذَّبها وسما بها إلى الذروة العليا من الكمال اللغوي، كيف لا وقد وسعت القرآن لفظاً وغايةً، وكأن في السموِّ بها إشارة إلى عالميَّتها المقترنة بعالميَّة الرسالة التي تحملها.

ومثل هذا السمو بهذه اللغـة يحتاج إلى أمور ثلاثة:

(١) توسيع المصطلحات والمدلولات.
(٢) درء انحرافها ودخول الدخيل بها.
(٣) التعبد بتلاوته بنصه العربي.

أما الأمر الأول:

فإن القرآن حين نزل بلغة العرب قد أحدث تأثيره الظاهر فيها، فهذَّبها ورقَّق من حوشيهـا، وسما بأسلوبها، فهو حين نقل أهلها من حال الكفر إلى حال الإيمان، ومـن حال الشرك إلى حال التـوحيد، جاء بحشـد من الألفـاظ الاصطلاحية، والمدلولات الإسلامية، التي لم يكن أولئك يعرفونها من قبل.

وهي ألفـاظ لمصـطلحات أخرجت عن مدلولها الأول إلى مدلول جديد واقتضى القرآن أيضاً تأسيس علوم جديدة، ولكل علم مصطلحاته، وعباراته، وتعريفاته. قال ابن فارس في توضيح ذلك: (كان العرب في جاهليتهم على إرث آبائهم في لغاتهم، وآدابهم، ونسكهم، وقرابينهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت،

فعفى الآخرُ الأولَ، وشغل القوم بعد المغاورات والتجارب، وتطلب الأرباح والكدح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف، وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة، بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبالتفقه في دين الله عز وجل، وحفظ سنن رسول الله ﷺ مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام، فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن وحتى تكلموا في دقائق الفقه، وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوِّن وحفظ حتى الآن)[1]، ثم ذكر ابن فارس طائفة من العلوم الشرعية ومصطلحاتها التي جدَّت على لغة العرب، ولا شك أن مثل هذا مما ينمي اللغة ويزيدها شمولاً واتساعاً ويؤهلها لحمل هذه الرسالة، فالألفاظ وعاء للمعاني، وبقدر ما تتسع ألفاظ اللغة، أي لغة، بقدر ما تعظم قدرتها على حمل المعاني، والرسالة الإسلامية ذات معانٍ سامية شاملة عامة لكل الناس في كل زمان،وفي كل مكان، وحق لهذه المعاني أن تختار اللغة التي تستطيع نقلها والتعبير عنها.

أما الأمر الثاني:

فقد درأ القرآن تحريف اللغة العربية، وحال دون سريان اللهجات المحلية وانتشارها، وأصبح سداً منيعاً دون دخول الكلمات الأعجمية التي تضعف هذه اللغة أو توهن قوتها، أو تفكك كيانها.

خاصة في عصور التفكك والانحدار حين تكالبت الأمم على البلاد الإسلامية من المغول والتتار والصليبيين وأصحاب الأهواء والبدع والمذاهب الفاسدة، ومع هذا كله بقيت اللغة العربية سليمة نقية، لم تشبها شائبة، ولم تتغير، ولم تتبدل، بل لو بعث فينا رجل مِمَّن عاش قبل أربعة عشر قرناً وخاطبنا بالعربية، ما أنكر منَّا، ولا استنكرنا منه، وليس هذا لغير اللغة العربية، دونكم مؤرخو اللغات سلوهم عن لغة واحدة غير العربية مكثت تلك الفترة، ولم يدخل

---

(١) الصاحبي: ابن فارس ص٤٤-٤٧.

فيها الدخيل، وينطمس منها ما انطمس، إن لم تندثر كلها، ولا يبقى منها إلّا إسمها.

تلكم اللغة اللاتينية، لغة كتب يقدسها أصحابها، وما زالوا كذلك لو سألت أتباعها اليوم أن يقرأوا شيئاً منها بتلكم اللغة، لعزَّ ذلك حتى في كنائسهم يردِّدها رهبانهم ثم يترجمونها لأهلها، إن لم يتخذوا الترجمة أصلاً مع كثرة أتباعها وكثرة نُسَخ كتابها، لكن هذا كله لم يشفع لها بالبقاء ذلكم لأنه لم يكن بين تلكم الكتب وبين لغاتها مثل ما بين القرآن الكريم ولغته العربية من وشائج ربطت اللغة بالقرآن، فبقيت ببقائه، وحفظت بحفظه الذي تعهد الله به.

أما الأمر الثالث:

الذي أعان على سلامة اللغة العربية فجعلُ التعبد بتلاوة القرآن الكريم بنصه العربي بألفاظه وحروفه العربية والحث على ذلك ببيان فضل التلاوة وأن بكل حرف عشر حسنات[1].

بل فرض الإسلام تلاوة القرآن بنصه العربي في كل الصلوات الخمس المفروضة، والجمعة والعيدين، والاستسقاء، والجنائز، والرواتب، والنوافل. يقول الأستاذ ساطع الحصري في وصف المحن التي مرت بها اللغة العربية في تاريخها الطويل وسبب سلامتها: (ومما يجب أن لا يغرب عن البال أن اللغة العربية بعد أن أصبحت لغة الجميع في هذه البلاد الشاسعة تعرضت إلى محن خطيرة مدة قرون طويلة بسبب ما طرأ على العالم العربي من التفكك السياسي والجمود الفكري والاجتماعي، والانحطاط الثقافي، لأن كل ذلك كان من شأنه أن يؤدي إلى انحلال الروابط المادية والمعنوية بين مختلف الأقطار العربية، ويفسح مجالاً واسعاً لتغلب العامية، ويطلق العنان للهجات المحلية، ولذلك أصبحت اللغة العربية معرضة لخطر التفكك التام، والتفرع إلى لغات عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً لا يترك مجالاً لتفاهم المتكلمين بها... وذلك مثل ما

---

(١) سيأتي بيان فضل التلاوة ص١٣٥.

حدث للغة اللاتينية، إلى أن يقول. . . : (ولكن القرآن وقف سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة، وحال دون استشراء هذا التفكك وذلك لكونه عربياً ولكون الـديانـة الإسـلامية تفرض على جميع المسلمين والمسلمات حفظ طائفة من آياته وتلاوتها كل يوم عدة مرات خلال الصلوات)[1].

تلكم أيها الأحبة الحصون التي بناها القرآن لحماية أللغة العربية.

وبهذا أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بعد أن كانت لغة محلية، وهذا الذي أقوله ليس نتاج عاطفة ولا وليد هوى، ولكنه الحق والحقيقة، واقرأوا إن شئتم ما كتبه المستشرق أ. ولفنستون، حيث قال: (ومهما يكن من شيء فإن الانقلاب العظيم الذي أصاب اللغة العربية، إنما حدث عقب ظهور الإسلام، فقد انقلبت إلى لغة عالمية تتكلم بها شعوب كثيرة جداً فقد نزح عرب الحضر والبادية من أطراف الجزيرة تحت قيادة أبطال المسلمين إلى جميع نواحي المعمورة وفتحوا الممالك والأمصار باسم الدين الحنيف في زمن وجيز، وكانت اللغة العربية تسايرهم خطوة خطوة، في جميع البلاد التي انتشروا فيها وبسطوا سلطانهم عليها.

وأثَّر القرآن أثره الشديد في جميع اللهجات العربية في جميع أنحاء الجزيرة، فقد بدأت تتبلبل وتضطرب وتنجذب بقوة إلى لغة القرآن حتى اندمجت كلها في لهجته، التي هي لهجة الحجاز كما كان ينطقها خاصة أهل مكة.

ولما كانت الجيوش الإسلامية تقوِّض العروش، وتُبيد الممالك، وتقيم مكانها دولاً إسلامية وطيدة الأركان، كانت اللغة العربية تقوِّض أركان اللغات، وتمحو أغلب آثارها من الوجود، وتأخذ هي مكانها من الألسن، حتى أصبحت بعد ذلك أمماً وشعوباً إسلاميةً خالصة)[2]، ثم تحدث ولفنستون عن الحروب السياسية والدينية التي حدثت في القرن الأول وعن تأثر العرب بحضارة الأمم التي اتصلوا بها وتنامي هذا التأثر في القرنين الأول والثاني إلى أن قال: (وطبيعي أن تؤدي

---

(١) ماهي القومية: ساطع الحصري، عن كتاب علوم القرآن: د/عدنان زرزور ص ٢١.

(٢) تاريخ اللغات السامية: أ. ولفنستون: ص٢١٤-٢١٥.

هذه النهضة العلمية إلى تدرج وتحول عظيمين في اللغة العربية، فقد نشأت لهجات كثيرة مختلفة وظهرت أساليب شتى متباينة كان حتماً أن تصل في نهاية أمرها إلى الانفصال عن العربيةِ لولا تأثير القرآن، الذي لَمَّ شعث العرب، وحمل المسلمين جميعاً على أن يحافظوا على اللغة العربية محافظة شديدة)[1].

أيها الأحبة، هل ترون بعد هذا شيئاً كالقرآن الكريم في حفظه للغة العربية ونشره لها.

من خصائص القرآن الكريم:

معارفه

لم يقتصر القرآن الكريم على علم دون علم، وإن كان غرضه الهداية العامة للناس، فإنه اشتمل على معارف تقوم بها الحجة، ويعم بها النفع، وتشهد بملء فيها باستحالة إتيان مثل محمد ﷺ بها من عند نفسه، وهو الرجل الأمي، بل باستحالة ذلك على الخلق كلهم إنسهم وجنهم، مهما أوتوا من علم وأدب، فهو الكتاب الذي حوى المعارف من أطرافها وأطرها أطراً لهداية الناس.

يسوق الحجة، فإذا أفواه الفلاسفة فاغرة مازجها العجب والدهش لقوة الحجة، وجزالة اللفظ، ووضوح العبارة، يهدم فكر أهل الأوثان، ويصحح تحريف أهل الأديان، ويقدم العقيدة الصحيحة نقية طاهرة كاملة شاملة. وإذا العلماء منه يستقون وعلى منهله يرِدون، وإذا المعارف تتفجر منه ينابيع، وإذا بها ترجع إليه رجوع الفرع إلى الأصل.

يقول الرافعي رحمه الله تعالى: (غير أننا نوثق الكلمة في أن القرآن الكريم هو كان سبب العلوم الإسلامية ومرجعها كلها، بأنه ما من علم إلاَّ وقد نظر أهله في القرآن وأخذوا منه مادة علمهم، أو مادة الحياة له، فقد كانت سطوة الناس في الأجيال الأولى من العامة وأشباه العامة شديدة على أهل العلوم النظرية إلا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسباً من التأويل والاستشهاد والنظر، أو يبتغوا

(١) تاريخ اللغات السامية: أ. ولفنستون: ص٢١٦.

بها مقصداً من مقاصده أو يريغوا[1] معنى من معاني التفقه في الدين والنظر في آثار الله، إلى ما يشبه ذلك. . . وما يزال أثر ذلك ظاهراً في فواتح الكتب العلمية لذلك العهد على اختلافها فما تستفتح من كتاب إلا أصبت في مقدمته غرضاً من تلك الأغراض التي أشرنا إليها أو ما يصلح أن يكون غرضاً منها)[2].

وقد عدَّ السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (الإتقان): «النوع الخامس والستون من علوم القرآن في العلوم المستنبطة من القرآن ثم أورد بعض الأقوال في أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين وقد كان الناس يدركون منه ما يدركون إلى أن قام أهل العلم فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته. . . فسموا القراء!.

واعتنى النحاة بالمعرب منه، والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي. . . الخ.

واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده. . . الخ، وسموا هذا العلم بأصول الدين، وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز.

---

(١) قال في القاموس: روغ الثريدة: دسمها ورواها.

(٢) إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي ص١٣٦-١٣٧.

وتكلموا في التخصيص، والإخبار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفرَّعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودوَّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأوَّل الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير وذكر الموت والميعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسمّوا بذلك الخطباء والوعَّاظ.

وأخذ قوم مما في آيات المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتَّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبليغ النظم، وحسن السياق والمبادىء، والمقاطع والمخالص، والتلميح في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة وغير ذلك»[1].

---

(١) انظر الإتقان: السيوطي جـ٢، ص١٢٦-١٢٧.

والمؤلفات التي تعتمد على القرآن الكريم في هذه العلوم كثيرة ليس هذا مجال حصرها، لا ندعي أن كل ما فيها مستمد من القرآن لكننا نؤكد أنهم يستشهدون ببعض آياته على بعض قضاياه، وما زال العلماء حتى وقتنا هذا يكتبون ويكتبون في علوم شتى، ومعارف متعددة، وهم يوثقون قولهم ويدعمون آراءهم بآيات من القرآن الكريم وما ذاك إلاّ لأنّ هذا القرآن حوى من المعارف أصولها أو أشار إلى شيء من بحوثها.

ولذلك لا يعرف التاريخ كله كتاباً درسه الدارسون، وألّف في علومه المؤلِّفون، وصنّف فيه المصنِّفون، مثل القرآن الكريم، فهذا أمر خاص بالقرآن الكريم لا يشترك معه فيه كتاب لا من قبله ولا من بعده.

من خصائص القرآن الكريم:

وفاؤه بحاجات البشر

نزل القرآن الكريم في أمة ترسخ تحت أعباء الجاهلية وقد اكتست من الجهل سربالاً بعقائد منحرفة وتشريعات ضالة وأخلاق رذيلة ومجتمع متفكك العرى لا سياسة توحِّد صفوفهم ولا مصلحة اقتصادية تربط بينهم ديدنهم توارث الأحقاد والعداوات وشأنهم إشعال الحروب، يهضمون حق المرأة كل الهضم ويسترقون أحرار الرجال بلا حقّ، ويكبلون العقول، ويقيِّدون الأفكار.

تأمل العناصر السابقة تجدها جماع أسباب هلاك الأمم وضياعها وأنّى لأمة تئن تحتها أن تفلح وأنّى لأمّةٍ تنهج هذا النهج أن تنجح بل إن كل واحد من هذه الأسباب وحده كافٍ لضياع الأمة، فكيف إذا تكالبت عليها الأسباب كلها والحكمة جمع الله سبحانه الأسباب كلها في أولئك القوم... ليعلم الناس أن القرآن حين ينتشل هذه الأمة مع هذه الأسباب فهو على إنقاذ غيرها ـ وهم دونها ـ أقدر فكيف إذا كان رفعها من أدنى درجات الجاهلية إلى درجة المثالية الإسلامية!!.

كان القوم في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان ويسجد أحدهم للتمرة ثم

يأكلها، وإذا كان في فلاة اختار أربع حجارة وضع ثلاثاً منها لقدره، واتَّخذ الرَّابعة إلهاً[1]. كان يسلم أموره ومعيشته لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع إنها الجاهلية،

كان المجتمع يقوم على العصبيات والفوارق الاجتماعية، التمايز والتفاضل بينهم يقوم على الحسب والنسب، يهجو شاعر قبيلة ظلمًا وعدواناً فيطأطىء أفراد القبيلة رؤوسهم خجلاً أو ينتقمون من الشاعر ومن قبيلته.. إنها الجاهلية.

لم تكن ثَمَّ سياسة داخلية بينهم تقوم على العدل والمساواة الحقة، وتراعي الفضائل وتجتنب الرذائل ولا سياسة خارجية تربطهم بالدول المجاورة وتحفظ حقوق مواطنيها هناك، بل كان زعماؤهم يذهبون إلى الدول المجاورة فيدخلون على ملوكها، كما يدخل عليهم سائر الناس.

لا مصلحة اقتصادية تربط بينهم، فقد كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، القويُّ يأكل الضعيف، قام اقتصادهم كله على الرحلة في الصيف إلى الشام، وفي الشتاء إلى اليمن، لم يقم اقتصادهم على قدميه، ولم يفكر أحدهم بالزراعة والصناعة، إنها الجاهلية.

المرأة وما أدراك ما المرأة، تُباع وتُشترى وتُوهب، بل وتُورث، كما تُورث بهيمة الأنعام، لا يعرف لها حق ولا يحترم لها فكر.. إنها الجاهلية.

الحرب. وتلك قاصمة تشتعل فيما بينهم لتافه الأمور، ولا يطفئها إلاَّ مرُّ العصور والدهور.

نزل القرآن وهم على هذه الجاهلية، وجاء وافياً بحاجات هذا المجتمع.

أصلح العقيدة بالتوحيد، والتذكير بالمبدأ والمعاد، وأصلح العبادات بإرشادهم إلى ما يزكي النفوس ويطهِّر القلوب، وأصلح الأخلاق، فبيَّن فضائلها، وأمر بها، وكشف رذائلها، وحذَّر منها، وأصلح المجتمع بإزالة الفوارق الاجتماعية، وأرشدهم إلى (لا فضل لعربي على عجمي إلاَّ بالتقوى)[2]، وأصلح

---

(١) سنن الدارمي جـ١ ص٤. (٢) مسند الإمام أحمد جـ٥ ص٤١١.

سياسة البلاد في الداخل بالحكومة الإسلامية العادلة، وفي الخارج بإقامة علاقات سياسية تحفظ حقوقهم هناك.

وأصلح المال والاقتصاد فأمر بالزكاة والصدقة، وحرَّم الرِّبا، وحثَّ على الزراعة والصناعة والحِرفة والعمل والإنتاج، وحذَّر من البطالة.

وأعطى المرأة حقوقها في المال وفي البيع والشراء وفي اختيار الزوج وفي الإرث، وغير ذلك، حتَّى بوَّأها منزلة لم تعط مثلها في كل المجتمعات وفي كل الأديان.

ووضع للحرب شروطها، ووضَّح مبادئها وغاياتها، وأمر بالوفاء بالمعاهدات، وآثر السِّلم عليها، وشرع الجزية لدرئها، وأمر بجهاد أهل العناد، وأباح أملاكهم فيئاً وغنيمة للمسلمين، ودعا لتحرير الرقيق وجعله كفَّارة للأيمان والظهار والنذر، وحثَّ على عتق الرِّقاب، وحذَّر من الجور عليهم والظُّلم لهم واسترقاق الأحرار بغير حقٍّ.

وفوق هذا كله جاء بالحرية.. الحرية الحقَّة لا كما يفهمها بعض الناس من أنها حرية من ضوابط السلامة وحريَّة من الوفاء بحقوق الرب، وبحقوق الناس، ومَنَعَ الإكراه حتى في الدين وبيَّن أن مهمَّة الرَّسول هي التذكير: **﴿فذكِّر إنَّما أنت مذكِّر لستَ عليهم بمسيطر﴾**[1].

وحين التزم القوم هذه المبادىء انقلب ثَمَّ مجتمعهم في زمن هو بالنسبة للقرون من بعدهم كلمح البصر إلى خير القرون، وما ذاك إلَّا لأن فيه وفاءً بحاجات مجتمعهم.

ومـا زالت المجتمعـات ـ من قبـل ومن بعـد ـ ترسخ تحت أعباء من وجوه الجـاهلية تلك، وتعـاني من ذلـك الداء الوبيل، فمجتمعات تعاني من انتشار الجريمة، ومجتمعات تعاني من انتشار الخمور والمخدرات، ومجتمعات تعاني من فشـو الزنا والتهتُّك والانحلال الخلقي، ومجتمعات تعاني من العصبية العرقية،

---

(١) سورة الغاشية: الأيتين ٢١-٢٢.

ومجتمعات تعاني من العزل السياسي، ومجتمعات تعاني من الرِّبا والمشاكل الاقتصادية، ومجتمعات تهضم المرأة حقها، ومجتمعات انتشر فيها بيع الأطفال والأرقاء، ومجتمعات تعاني من الحروب، ومجتمعات كبَّلت مواطنيها بالقيود ورمتهم في السجون لا لشيءٍ إلاَّ لإرغامهم على القول بما يقولون.

وقد حاولت دولٌ عظمى ـ بميزان القوة المادية ـ أن تقضي على مشاكلها أو على بعضها، وأنفقت على علاج بعضها الملايين وعجزت.

وفي التشريعات ما زالوا يتخبطون، يشرِّعون ثمَّ يرجعون، ويطالبون ثمَّ ينكسون، ما اهتدوا لصوابٍ وما عرفوا الطريق.

وفي الاقتصاد يعاني العالم أجمع، غنيُّه وفقيره من مشاكله، لا الغني يستطيع أن يرسم خطته ومدينه مفلس، ولا الفقير بقادر على أن يسدد دينه، وهو لا يستطيع إعياءً وجوعاً أن يرفع يده.

كلُّ هذا كان علاجه بالقرآن لو كانوا يعلمون..

عالجها في المجتمع الجاهلي مُجتمعةً متكالبةً فهو على علاجها آحاداً أكثر قدرةً..

وفي هذا أكبر دليل وأقوى حجة وأنصع برهان على أن في القرآن وفاءً بحاجات البشرية كلِّها، لو كانوا يفقهون.

من خصائص القرآن الكريم:

أنه لا يصادم الحقائق العلمية

لا أريد بهذا أن أخوض في حديث طويل لا ينتهي عن الإعجاز العلمي والتفسير العلمي، لكنِّي أريد النتيجة التي تلتقي عندها كل هذه الأبحاث، والتي انتهى إليها المفكرون والعلماء.

تلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضاً، كلُّهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضاً بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلبوها دراسة وتأمُّلاً وتدبُّراً، ونظروا فيها بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية، حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه.

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين فما على المتكلم إلاَّ أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وغوامض المعارف، وأسرار الكون، وخفايا العلم، وبذا يظفر بهذه السمة.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك لكنه وقد أنزل منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمن، عرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية، كخلق السموات والأرض، وخلق الإنس والجن والملائكة، وسوق السحاب، وتراكمه، ونزول المطر، وجريان الشمس والقمر، وتحدَّث عن الكواكب والنجوم والشُّهب والصعود في السماء، وعن أطوار الجنين وعن النبات والبحار والجبال، وما تحت الثَّرى، وعرض لمعارف شتَّى، وعلوم متعددة، ومع هذا كلِّه لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته، مُما بوَّأ القرآن مكانةً لم يشاركه فيها كتاب من قبله ولا من بعده، فما من كتاب عرض لمثل ما عرض له القرآن الكريم، إلاَّ وكشف الزمن زيفه، وأبطلت الحقائق العلمية الثابتة خطأ نظرياته، حاشا القرآن الكريم، فما زالت آياته عالية لا يطالها شيء من ذلك لا لشيء إلاَّ لأنها كلام من وسع كل شيء علمًا، وكفى بهذا إثباتاً لخاصة من خصائص القرآن الكريم، لا يشترك معه فيها كتاب.

من خصائص القرآن الكريم:

منهجه في الإصلاح

في أمة مفككة تحلَّلت عراها، وتكبكبت مشاكلها، حيث لا اقتصاد قائم، ولا سياسة مرسومة، ولا نظام محكم، ولا حكومة عادلة، نزل القرآن الكريم فانتشلها في سنوات معدودة من ركام الجاهلية وظلماتها، إلى شموخ الإسلام وعزَّته.

وما كان لأحد أن يفلح في هذا الأمر في هذا المجتمع في هذه السنوات لولا منهج في الإصلاح فريد سلكه القرآن الكريم، ما كان لأحد من البشر أن يسلكه وما كان في قدرته أن يبجده.

دع عنك الحديث عن هذا النظام التشريعي المحكم الذي شَدَهَ عقول أساطين الفقه والقانون بعد ١٤٠٠ سنة من نزوله، وعقدت لأجله المؤتمرات الفقهية وأسابيع الفقه الإسلامي، والندوات المتعددة، والمؤلفات، بل الموسوعات والمعاجم الضخمة الشاملة، فهذا كله حق لا ينكر.

وعَدِّ الحديث عن هذا إلى ما هو أعجب ألا وهو المنهج الذي سلكه القرآن الكريم لتحويل هذا المجتمع بصفاته السابقة إلى مجتمع آخر على الضد منه تماماً فحوَّله من مجتمع مشرك بكل رزاياه إلى مجتمع مسلم بكل مزاياه.

هذا المنهج خاص بالقرآن الكريم، لم يسلكه كتاب من قبله، ومهما حاول المصلحون من بعده أن يسلكوا مسلكه، فإنهم ـ وإن حرصوا ـ لا بد مقصرين. . ومقصرين.

ليس المقام مقام حديث مسهب يشنف الأسماع، ويورف الظلال على القلوب عن هذا المنهج، ولكنه حديث يرسم الخطوط العريضة لهذا المنهج يثبت بها انفراد القرآن بهذه الخاصية.

فقد ذكر العلماء أسساً لهذا المنهج أذكر منها:

الأساس الأول: **الأســـلوب**

فقد يملك بعض الناس الفكرة الحسنة، لكنَّه يغمطها حقَّها بسوء التعبير عنها، فلا تصل إلى أذهان الناس حيَّة وقَّادة كما هي في واقعها، فتمجُّها القلوب، كما مَجَّتها الأسماع، فيجني المفكِّر على فكرته من حيث لا يدري.

وقد يملك بعض الناس فكرة ساجحة، فيصبغها بأحسن الأساليب ويدهنها بلامع الكلمات، وصقيل الألفاظ، وينمق العبارة، فيدلس بها على القلوب،

ويخدعها حُسن الأسلوب، فيعميها وقع العبارة عن التأمل في الفكرة، فتظفر من القبول بما لا تستحق.

لكن القرآن جمع الحسنيين فعبر عن أحسن فكرة بأحسن عبارة، وسَلك من الأساليب ما يأسر السمع، ويملك القلوب، وهذا لا شك وجه قوي، ومسلك أصيل للإصلاح سلكه القرآن.

الأساس الثاني: **التدرج في التشريع**:

كلنا يعهد من حياته وتجاربه أنه إذا أراد فك ملتصقين يرفق بهما كل الرفق حتى لا يحدث تمزُّق أو تكسُّر فيهما أو في أحدهما وكثير من العادات تلتصق بالإنسان التصاقاً شديداً إن ذهبت تخلصه منها فلا بد من الأناة والرويَّة، وإلاَّ أثَّرت في الجسد، أو أحدثت في النفس داء.

والعرب قبل الإسلام ـ وفيهم نزل القرآن ـ تمكنت من نفوسهم شعائر الجاهلية، ومازجت عقولهم أرجاسها ومن العسير أو ليس من اليسير اجتثاثهم منها أو قلعها من نفوسهم دفعة واحدة.

فاقتضت الحكمة الإلٰهية التدرج بهم شيئاً فشيئاً على مراحل عدة وصور متعددة. الحديث الطويل عنها لا ينتهي، وخلاصة الإشارة إليه أن القرآن الكريم بدأ بتصحيح العقيدة فنزلت أولاً الآيات التي تدعو إلى عبادة الله وحده وتحذِّر من عبادة الأوثان، وتدعو إلى التفكر في المخلوقات، والتوصُّل بذلك إلى الخالق، وتحدثت عن التوحيد بأنواعه، وساقت القصص والشواهد في إثبات العقيدة الصحيحة، ونزلت ثانياً الآيات المتعلقة بأصول الشريعة كالصلاة والزكاة والصيام والأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة وذمِّ سيِّء الأخلاق، حتى إذا ما ارتقت النفوس شيئاً فشيئاً، وملكت قوة التقبل والامتثال، تتابعت التفاصيل كما تتتابع الفصوص النفيسة.

والأمر في ذلك معلوم، والشواهد عليه ظاهرة نذكر منها للاستئناس لا للإثبات حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه ـ أي

القرآن ـ سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنى أبداً»[1].

الأساس الثالث: **الإقناع:**

حين يسوق القرآن الكريم عقيدةً من عقائده أو حكمًا من تشريعه فإنه لا يقف عند هذا فحسب بل يورد من البراهين والأدلة ما لا يبقي عذراً لمستمع، بل وينعى على أولئك الذين لا يعملون عقولهم ويتأمّلون ويتدبّرون: **﴿إنَّ شرَّ الدّواب عند اللهِ الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون﴾**[2]، **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾**[3].

ولذلك نجد عبارات: (لعلكم تعقلون) و(لقوم يتفكرون) و(لقوم يفقهون) (أفلا يسمعون) (قليلاً ما تذكّرون) (أنّى يؤفكون) (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين). وأمثالها كثيراً ما ترد في القرآن الكريم داعية إلى التفكر والتأمل والتدبُّر في الأدلة والحجج والبراهين وقضايا العقيدة وأحكام الشريعة، حتى يقف المسلم على المحجة الواضحة الظاهرة مما يرفع من كرامة الإنسان، ويقيم معتقده على قناعة من العقل، وطمأنينة من القلب، فيجد حلاوة الإيمان وبرد اليقين.

الأساس الرابع: **التنويع في المعاني:**

يشتمل القرآن على مئة وأربع عشرة سورة تتفاوت في الطول والقصر، وغالب سوره تلك تمزج بين معان منوعة تدفع الملل والسأم الذي قد يعتري القارىء،

---

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، جـ٦ ص١٠١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

فتظل النفوس متابعة له منقادة لمعانيه، تنتقل من معنى إلى معنى، كما تنتقل النحلة من زهرة إلى زهرة.

وهـذا بلا شك أعـون على انقياد المستمع للمتكلم فيسهل إيراد الأدلة والبراهين حتى يتحقق الغرض ويتم الإصلاح.

الأساس الخامس: **التكرار**:

والتكرار عادةً تنبو منه الأسماع وتمجُّه، وتنفر منه القلوب وترده، مالم تحمل كل جملة منه على حدة ما يُحَسِّنُ وقعها على السمع ويقربها إلى القلب. ومحسنات التكرار عديدة سلك القرآن أسماها وأعلاها.

فالقرآن مثلاً يدعو إلى عقيدة التوحيد ويكرر ذلك كثيراً حتى في السورة الواحدة، لكنه يصرِّح تارة ويلمِّح أخرى، ويوجز مرَّةً، ويطنب ثانية، وحيناً يسوق العقيدة مجردةً، وحيناً يتبعها الدليل، وتارةً يورد دليلاً واحداً وتارة جملة أدلة، وتارة يضرب لها الأمثال، وتارة يسوقها في قصة، ويعقب عليها بالوعد مرة، ويعقب بالوعيد ثانية[1]. فلا يشعر القارىء بتكرار بل يجد في كل مرة صورة أخرى تطغى على صورة التكرار فتقع من نفسه الموقع الحسن وتوضحُ له في الثانية ما أغفلته الأولى ويقنع في الثانية فوق قناعته في الأولى حتى ينقاد ويستجيب.

الأساس السادس: **استغلال الغرائز**:

ركَّب الله سبحانه وتعالى في الإنسان غرائز متعددة، وجاء القرآن الكريم مساوقاً لهذا التركيب، فتنوَّعت آياته بحيث يستفاد من الجوانب الإيجابية لهذه الغرائز، فاشتمل القرآن على الآيات العديدة مستفيدة من غريزة الخوف مثلاً، فأوردت الآيات في الترهيب من وقوع العذاب في الدنيا، ومن النار وجحيمها في الآخرة ووصفت ما جرى للأمم السابقة من أنواع العذاب والابتلاء، ووصفت ما أعدَّ الله لأهل النار يوم القيامة.

---

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني جـ٢ ص٢٥٨.

واستفادت الآيات من جانب غريزة المحبة، حب الذات، وحب التملُّك، فتحدثت عن ما أعدَّه الله للمؤمنين يوم القيامة، وأفاضت الحديث في وصف الجنة، أنهارها وأشجارها وفاكهتها وطيورها ومائها وألبانها وخمرها وحورها العين، وفوق هذا نظر أهلها إلى ربهم سبحانه وتعالى، مما يشبع غريزة حب التملُّك، بل يشبعها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيمًا وملكاً كبيراً﴾[1].

واستفاد من غريزة حب البقاء، فهذَّبها، وسخَّرها للدِّفاع عن الدين وأخبرهم أن الذين يُقتلون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون، ووصف حال أهل الجنة من الصحة والسلامة من الأمراض والنصب والجوع والضحى[2]، مما كان له أثره الذي لا ينكر في الجهاد الإسلامي.

وهذَّب غريزة حب التقليد فطهَّرها ونقَّاها من التقليد الضار، ودعا إلى القدوة والأسوة الحسنة: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[3]، وقال سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿قل إن كنتم تحبُّون الله فاتَّبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[5].

وهكذا سلك القرآن هذا المسلك في بقية الغرائز فقاد الإنسان بغرائزه بعد تهذيبها، وكان لذلك أثره في الاتباع والانقياد.

الأساس السابع: **الواقعية**:

ونعني بذلك أن القرآن لا يقابل الواقع بنظريات مجردة وبعبارة أخرى لا يسوق الأحكام ما لم يكن لها أرض من الواقع، ولعل رمز الواقعية الواضح في القرآن قوله

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٢٠.

(٢) انظر مناهل العرفان: محمد عبد العظيم الزرقاني جـ٢، ص٢٥٩ وص٢٦٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾[1]، ذلكم أن منهج القرآن كما قال سيد قطب رحمه الله تعالى:- (منهج واقعي جاد، يواجه وقائع الحياة بالأحكام المشتقة لها من أصول شريعة الله مواجهة عملية واقعية)[2].

ويصف رحمه الله تعالى القرآن بأنه . . . . يعمل ويتحرك في وسط الجماعة المسلمة، ويواجه حالات واقعة فيدفع هذه ويقر هذه ويدفع الجماعة المسلمة ويوجِّهها فهو في عمل دائب، وفي حركة دائبة: إنه في ميدان المعركة، وفي ميدان الحياة. . وهو العنصر الدافع المحرك الموجه في الميدان)[3].

وحين يسلك القرآن الكريم هذا المسلك فإنه يوحي إلى المؤمنين به بوجوب إزالة الحاجب بينهم وبينه الذي يقيمه أولئك الذين يتلون القرآن مجرد تلاوة مهوّمة لا روح فيها ولا صلة لها بواقع الحياة اليومية التي يعيشها المسلمون فيضعون القرآن في غير موضعه وينأون به عن مواجهة النفوس والوقائع الحية، وتوجيهها التوجيه السليم، فيفصمون بينه وبين المجتمع الذي أنزل لإصلاحه، وحين يدرك المسلمون ذلك الأساس في منهج الإصلاح في القرآن ويلتزمونه، فإن آثاره تتتابع ويحدث فيهم ما أحدثه في مجتمعه الأول، وهو أساس في منهج الإصلاح في القرآن متين.

الأساس الثامن: **الوسطية**:

ركَّب الله الإنسان من جسد وروح ووازن في تشريعه بين مطالب الروح ومطالب الجسد.

وجاء القرآن على هذا النهج السليم والتشريع القويم في الموازنة بينهما بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، فنال الجسد مطالبه المباحة، وحظيت الروح بمطالبها

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٠١.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب جـ٢، ص٩٨٧.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، جـ١، ص٣٠٤-٣٠٥.

المشروعة، وحين تتحقق هذه المطالب لهذا وتلك، يرى الإنسان بعينه الكمال ويمازج جسده ويخالط روحه، فلا يملك إلاّ الاستجابة ويكون هذا عوناً على إصلاح المجتمع.

الأساس التاسع: **التوازن الدنيوي والأخروي**:

وكما كان القرآن وسطاً بين مطالب الروح والجسد، فإنه أيضاً شرع لنا ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، وبيَّن في آيات عديدة، أنَّ في اتِّباع القرآن الكريم تحقيقاً للسعادة الدنيوية والأخروية، وأن تشريعه يقضي بأن يسعى الإنسان للسعادة في الأخرى، ويسعى للكسب في الدنيا، والنصوص في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين﴾**[1].

وأمر سبحانه بابتغاء الرزق في الدنيا من عنده: **﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾**[2].

وأعلن أن ثواب الدنيا والآخرة عنده سبحانه: **﴿من كان يريد ثواب الدنيا، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وكان الله سميعاً بصيراً﴾**[3].

وأخبر بإيتائه ثواب الدنيا والآخرة: **﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾**[4].

وذم الذين يطلبون حسنة الدنيا وحدها فقال سبحانه: **﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربَّنا آتنا**

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ١٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٤.

(٤) سورة آل عمران: من الآية ١٤٨.

في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيبٌ مّما كسبوا والله سريع الحساب﴾[1].

والنصوص في ذلك كثيرة كلها تشهد على التوازن بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، وأن القرآن حين دعا إلى العمل للآخرة لم يهدم الدنيا، وحين أمر بالكسب في الدنيا لم يغفل الآخرة.

وفي هذا تحقيق كبير لمطلب إنساني هام يرى فيه الوفاء والكمال في هذا التشريع فيُقبل ثَمَّ بقلبه وجسده.

الأساس العاشر: يسر الشريعة:

وهذا معلوم من الدين ـ كدت أقول بالضرورة ـ فيسر الشريعة لا ينكر، ورفع الحرج فيها لا يجحد، والنصوص في ذلك امتلأ بها القرآن وامتلأت بها السنة.

قال تعالى: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾**[2]، وقال سبحانه: **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾**[3]، وقال عزَّ شأنه: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم﴾**[4]، وقال سبحانه: **﴿لا يكلِّف الله نفساً إلَّا وسعها﴾**[5].

ولا شك أن شريعة هذا منهجها ترغب الناس في سلوكها كلَّ الترغيب وقد كان هذا من نهج القرآن في الإصلاح.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٢٠٠-٢٠٢.

(٢) سورة الحج: من الآية ٧٨.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

(٥) سورة البقرة: من الآية ٢٨٦.

الأساس الحادي عشر: **التفاوت في الأحكام**:

ففي الأوامر درجات: ركن، فرض، واجب، سنة مؤكدة، سنة. وفي النواهي درجات: شرك أكبر، شرك أصغر، كفر مخرج من الملة، كفر غير مخرج من الملة، نفاق، كبائر، صغائر، حرام، مكروه.

وبينهما درجة المباح.

ولا ريب كما قال الزرقاني ـ رحمه الله تعالى ـ أن وضع التشريع على هذا الوجه فيه متسع للجميع، وفيه إغراء للنفوس الضعيفة أن تتشرف باعتناق الإسلام ولو في أدنى درجة من درجاته، حتى إذا أنست به وذاقت حلاوته، تدرَّجت في مدارج الرقي، فمن إسلام إلى إيمان، إلى أداء ركن، إلى أداء فرض، إلى أداء واجب. . . الخ، ومن ترك شرك إلى ترك نفاق إلى ترك كبيرة الخ[1].

وقد وعد القرآن وأوعد على كثير من الأعمال بما يلائمها والنصوص في ذلك أكثر من أن تعد ومجموعها يثبت أن هذا أساس أصيل في منهج القرآن الكريم في الإصلاح.

الأساس الثاني عشر: **استقراء التاريخ لأخذ العظة والعبرة**:

والقرآن يورد الأخبار الكثيرة عن الأمم السابقة سواء كانت عما جرى للأنبياء مع قومهم، أو أنواع العذاب الذي وقع عليهم أو للحوار والجدل بينهم، وبين آبائهم كحديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه، أو مع أبنائهم كحديث نوح عليه السلام مع ابنه، أو مع ملوكهم كحديث إبراهيم عليه السلام مع الذي آتاه الله الملك، أو حديث موسى عليه السلام مع فرعون، أو كان جدلاً عاماً، أو قصة عن الأمم الماضية والقرون الخالية، أو عن خلق آدم عليه السلام، أو ما جرى من إبليس لعنه الله، أو غير ذلك.

والقرآن، وإن لم يكن كتاب تاريخ، إلاّ أنه استخدم التاريخ أحسن استخدام، وأخذ لبه وعصر عصارته.

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني جـ٢، ص٢٦١.

وحين يورد القرآن القصة أو الحادثة التاريخية فإن هذا يحقق أموراً عديدة لا أريد أن أسترسل في ذكرها، لكن أهمها جذب انتباه القارىء للقصة، وإبراز الأفكار شاخصة في أشخاص ينتمون إليها كما تبرز فكرة ادعاء الألوهية بشخص فرعون مثلاً، ومنها تضمين القصة في ثناياها المعاني المتعددة بين صورة وصورة أو مشهد ومشهد.

وعندما يقرأ القارىء القرآن الكريم، ويقف مع القرآن الكريم، يستقرىء التاريخ، ويستوعب تلك المعاني، فإنه سيقف على درجة من الفهم والإدراك قد لا يصل إليها بغير هذا النهج، وهذه الطريقة، فكان سلوك القرآن هذا المنهج لإصلاح الناس سبيلاً مؤثراً لتحقيق أغراض القرآن الكريم.

ذلكم عرض سريع أحسبه ـ مبتسراً ـ للأسس التي يقوم عليها منهج القرآن الكريم في الإصلاح.

وهو منهج كما قلت في بدء حديثي عنه، ما كان لأحد من البشر أن يسلكه من قبله، ومهما حاول المصلحون من بعده أن يحذوا حذوه فإنهم سينالون الكثير، وسيبقى منه الأكثر، لن يستطيعوا احتواءه ولن يكون في دركهم استقصاؤه وسيبقى مناراً للمصلحين، من معينه يشربون، وعلى نهجه يسيرون، مهما اتسعت بهم الجادة، ومهما طال بهم الطريق.



من خصائص القرآن الكريم :

الأخبار الغيبية

حوى القرآن الكريم جملة من أخبار الغيب تجعل الإعجاز في القرآن إعجازاً مركباً إن كان خصومه عجزوا عن الإتيان بمثله مفرداً فهم عن الإتيان بمثله مركباً أعجز فلا يفكر أحدهم أو يخطر بباله محاولة الإتيان بمثله، وإن حاول منهم سفيه ذلك زاد سفاهته سفاهة، وحمقه حمقاً.

وعلم الغيب ليس لأحد من البشر ولا يدركون منه شيئاً إلا على سبيل التخمين لا على سبيل القطع والجزم.

أما أن يأتي كتاب يحمل أخباراً غيبية، ويقطع بوقوعها ثم تقع كما أخبر فهذا من خصائص القرآن الكريم.

والغيب إما أن يتعلق بماضٍ، أو بحاضِر، أو بمستقبل، وهي أخبار كثيرة جداً نذكر أمثلة لكل نوع للإثبات لا للاستقصاء.

فمن الأخبار الغيبية الماضية :

الإخبار عن خلق السماوات والأرض، وآدم وقصة إبليس لعنه الله.. ثم بعد ذلك قصص الأنبياء السابقين، والأمم الماضية، ووجه الغيب فيها أن الرسول ﷺ كان أمّياً لا يعرف القراءة فلم يعهد عنه أنه قرأ في كتب أهل الكتاب أو تلقى الدرس عن أحد منهم أو خالطهم أو مازجهم ولم يكن أحد من قومه يعلم شيئاً منها.

ونصوص القرآن تشهد على ذلك، فقد خاطب الله نبيه محمداً ﷺ في سياق قصة نوح عليه السلام، فقال سبحانه : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾[1]، وفي قصة موسى عليه السلام : ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين.. وما كنت ثاوياً في أهل مدين... وما كنت بجانب الطور﴾[2].

---

(١) سورة هود: من الآية ٤٩.
(٢) سورة القصص: من الآية ٤٤-٤٦.

وفي قصة مريم عليها السلام: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾**[1].

أخبار غيب الحاضر:

آيات كثيرة كشفت أحداثاً وقضايا في حينها لم يحضرها الرسول ﷺ ولم يخبره بها أحد من الصحابة. وفي سورة التوبة من هذا النوع كثير.

وقد وردت آيات تكشف حال المنافقين وما يخفونه بينهم أو في صدورهم: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾**[2]، **﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا﴾**[3]. ولاشتهار هذا بين المنافقين والكفار فإنهم يتنادون فيما بينهم أن اخفضوا أصواتكم حتى لا يسمعكم إله محمد، ووصف الله المنافقين بقوله: **﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾**[4]. يقولون ذلك لما شاهدوا من أخبار الغيب التي يجيء بها القرآن الكريم.

أخبار الغيب في المستقبل:

وهذا النوع آياته كثيرة منها ما تحقق وانقطع، ومنها ما تحقق أيضاً وما زال في كل يوم يتحقق.

فمن النوع الأول قوله تعالى: **﴿ألم. غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين﴾**[5]، الآية والقصة في ذلك مشهورة وتفصيلها في كتب التفسير.

ومنه أيضاً وعد الله سبحانه للرسول وأصحابه بدخول مكة: **﴿لقد صدق**

---

(١) سورة آل عمران: من الآيات ٤٤.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٢٠٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٤) سورة التوبة: من الآية ٦٤.

(٥) سورة الروم: الآيات ١-٤.

الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين لا تخافون﴾[1]، ثم وقع هذا الحادث كما أخبر الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[2]، فلم يستطع أحد أن يصل إلى الرسول ﷺ بقتل مع كثرة المتربصين له بل وكثرة المحاولات لذلك، فتبوء كلها بالفشل أمام: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[2].

والشواهد على ذلك كثيرة أوردها المؤرخون والرواة، وسردوا منها ما يثبت أن هذا التحدي لم يكن في مجتمع يخلص الود والحب، بل كان يكمن فيه أعداء متربصون ماكرون يكيدون من اليهود والمشركين.

ومن النوع الثاني الذي تحقق وما زال يتحقق الإخبار بعد أن وقع التحدي بالقرآن أنهم لن يأتوا بمثل هذا القرآن وأنهم لن يفعلوا فقال سبحانه: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتَّقوا النَّار التي وقودها الناس والحجارة أُعدَّت للكافرين﴾[4]، إنه ليس تحدياً فحسب، بل تحد مع إخبار مسبق بأنهم لن يفعلوا!! وما زال التحدي جارياً وما زال الخبر الغيبي متحققاً.

ومنه ما جاء في بيان أن الله قد كتب للإسلام البقاء والخلود وحفظ القرآن: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[5]، وقوله سبحانه: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة

---

(١) سورة الفتح: من الآية ٢٧.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٦٧.

(٣) سورة الإسراء: من الآية ٨٨.

(٤) سورة البقرة: الآيتين ٢٣-٢٤.

(٥) سورة الرعد: من الآية ١٧.

كشجرةٍ طيبةٍ، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾[1]، وقوله سبحانه: **﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾**[2].

ويظهر ذلك ويستبين إذا علمت أن هذه الآيات نزلت في مكّة في وقت كان المشركون متكالبين على الرسول ﷺ وأصحابه وكان المسلمون في اضطهاد وتعذيب ومع هذا جاءت هذه البشرى ترسل أشعتها ولو كانت تحمل خبراً بظهورهم على قومهم فحسب لكان فيها إعجاز وأي إعجاز، فكيف وهي تحمل خبر (مكث الإسلام في الأرض) و(إيتاء أكله في كل حين) و(حفظ الله له)، والله ما هذا بقول بشر ولايقوله بشر لا يعلم مصيره، ولا يضمن لنفسه حياته، فكيف يضمن بقاء هذا الدين في حياته وبعد وفاته أبد الآبدين وما بقيت على الأرض حياة.

والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هذا مقام إيرادها، وإنما أوردت ما أوردت ضرب مثل للأخبار الغيبية في القرآن التي هي من خصائص القرآن الكريم.

من خصائص القرآن الكريم:

وقوع التحدي به

عندما ترمد عيون البشر وينتابها القلق ويجهرها الضياء، فلا تكاد تبصر فتأنس إلى ظلمة الجاهلية وتستحكم فيها الظلمة يرسل الله إليهم من يخرجهم من هذه الظلمات إلى النور، ويرفع الداء عن أبصارهم وعندما يطرق باب الخائف من لا يعرفه يحتاج إلى بيِّنة تزيل عنه الوحشة وتجعله يأنس إلى الطارق.

وهكذا الأمم مع أنبيائها، حين يأتون إليهم وقد غشيت الظلمة المجتمع يأتون لهم ببيِّنةٍ يظهرون بها صدق دعواهم في أنهم رسل من الله، وما داموا رسل الله فعليهم أن تكون البينة مما لا يقدر عليه إلاَّ الله ولا يستطيعه البشر، فإن فعلوا ثبت أنهم رسل الله، وتصبح طاعتهم واجبة.

---

(١) سورة إبراهيم: الأيتين ٢٤-٢٥.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

وكان من المناسب أن تكون البينة التي يأتيهم بها النبي فيما يحسنه قومه، ليدركوا مقدار علوه عن الطاقة البشرية وليجربوا فإن عجزوا عن الإتيان بمثل ما يحسنون كانوا عن غيره أعجز فتقوم عليهم البيِّنة، وتثبت عليهم الحجة.

وقد كان الناس حين بعث رسول الله ﷺ في جاهلية جهلاء نهارها كليلها، لا تكاد تجد إلى النور سبيلاً.

إن سألت عن معبودهم قالوا: الحجارة والأوثان ينحتونها بأنفسهم، ثم يخرون لها ساجدين، قد أسلموا مقاليد أمورهم إليها، عندها يتحاكمون ويحكمها - من حيث لا تشعر - يؤمنون.

وإن سألت عن أسرهم فأسر متفككة، الأب يئد ابنته، بل يقتل ولده، أما المرأة فسلعة تباع وتُشترى وتُوهب وتُكترى.

وإن سألت عن العلاقات القبلية فعلاقات تقوم على شريعة الغاب. القوي يأكل الضعيف، لا صلة سياسية تربط بينهم، ولا مصلحة اقتصادية توحِّد صفوفهم، ديدنهم توارث العداوات والأحقاد، ودأبهم السَّلب والنَّهب، وإن سألت عن مواردهم المالية، فلن تجد للصناعة عندهم مكانة كبرى، ولن تجد للزراعة مكانة تذكر.

أحسب أن مرجع ذلك إلى أن الصناعة تحتاج إلى كدح وأن الزراعة تحتاج إلى جهد، وهم ليسوا أهل ذا ولا ذاك، بل يؤثرون الدعة والسكون، وحتى قوافلهم التجارية الصغيرة تأثرت بهذا فهي تبحث عن الأيسر والأسهل، فإن جاء الشتاء آثروا الدفء فاتجهت قوافلهم جنوباً وإن جاء الصيف خافوا الحر فاتجهوا شمالاً.

لا يحسنون مهنة، ولا يتقنون عملاً، إلاَّ صنعة برزوا فيها، وتفوَّقوا ووجَّهوا إليها جهودهم، ألا وهي صنعة الكلام، فميَّزوا بين الأصيل منه، والدخيل، والنفيس منه، والرخيص، وتجاوزوا في ذلك حدَّ الاعتدال، إلى أن أصبحت للكلمة عندهم سلطة إن تملكها شاعر توجوه واحتفلوا بميلاده وفاخروا به، وفاخر

بهم، وإن ملكها خطيب قدَّموه في وفودهم ومجالسهم.

وأصبحت للكلمة عندهم أسواق يتبارون فيها، وفي ميدانها فهذا شاعر يلقي قصيدته، والملأ حوله شاخصون، وهذا خطيب اتَّخذ ناقته منبراً، والناس تحته يستمعون.

وأصبحت للكلمة عندهم منزلة إن مدح بها شاعر قبيلة رفعوا رؤوسهم فخراً، وإن هجيت بها قبيلة طأطأوا رؤوسهم وغضُّوا طرفهم مذلَّة، وإلَّا أشعلوها حرباً لا تنطفيء على الشاعر وقبيلته.

هل أحدثكم عن قيمة الكلمة ومكانتها، إنها أعظـــم مما تتصورُّون، وأكبر مُما تتوقَّعون، كيف لا وهم حاربوا الرسول ﷺ وعشيرته لا لشيء إلَّا لأجل كلمة هي كلمة التوحيد.

في هذه الأمة، وفي هذه الظروف بعث رسول الله ﷺ.

يا أصحاب العقول المفكرة:

في مثل هذا المجتمع هل سيبلغ التحدي قمته لو تحداهم في طب لا يتقنونه، أو في صنعة لا يعرفونها. أرأيتم ذلك الشاب الرياضي النشيط الذي جاء إلى رجل قد أثقلت السنون كاهله، فحمل منها ما قوَّس ظهره، وعجزت ساقاه عنه، فاشتدا بعصا تسند معهما جسده، لايكاد يخطو بقدميه إلَّا دبيباً، ثم تحداه ذلك الشاب في سباق طويل..!!، هل سيكون هذا المتحدي إلَّا محل سخرية.. وما ذاك إلَّا لأنه وضع تحديه في غير موضعه وستشير له الأكف أنْ تَحَدَّ فلاناً وفلاناً لأنهما يملكان القوة والنشاط، فيقع تحديك موقعه، وتكون قد تحديت من يحسن فيما يحسن..

عودة لأمة البعثة التي كانت تحسن الكلام وصنعته، فليس من الحكمة تحديهم بما لا يعرفون، وقمة التحدي أن يكون فيما يتقنون وهم لا يتقنون إلَّا صنعة الكلام، فجاء التحدي وفق الحكمة.

وكرَّر التحدي حتى يسمع من لم يسمع، ونوَّعَه حتى لايبقى عذر لعاجز فتحدى بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وتحدَّى مرَّة أخرى، أن يأتوا بعشر سورٍ مثله، وتحدى ثالثةً أن يأتوا بسورة مثله، وتحدَّى رابعة أن يأتوا بحديث مثله.

أيها الأحبة قد يضع المتحدي شروطاً في تحديه تكون هي العقبة عن الإتيان بمثل ما جاء به وما ذاك إلاَّ لأنه يشعر بدنو المسافة بينهم وبين معجزته.

أما القرآن فلم يسد على خصومه باب المعارضة، بل فتحه على مصراعيه وأزال كل عقبة وتدرَّج بهم، ودعاهم أفراداً أو جماعات، وأباح لهم الإستعانة بمن شاؤوا حتى الجن، وهو حينما يتحدى لا يقف منتظراً أن يفعلوا بل يحسم الأمر حسمًا قاطعاً هو تحدٍّ آخر، بأنهم لن يستطيعوا الإتيان بمثله، واستمع إلى قوله تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**[1].

وتزداد دهشةً إذا علمت أن هذا التحدي المركب هو أول ما نزل في التحدي بالقرآن، وكأنَّه صادر عمن تحدى ألف مرة فأدرك عجزهم فأخبر أنهم لا يأتون بمثله، نتاجَ سابقِ تحدٍّ به، وليس نتاج ثقة بما تحدى به، أما القرآن فتحدَّى لأول مرة، وأخبر مع تحديه أول مرة بعجزهم عن الإتيان بمثله، وما ذاك إلاَّ لأنه تنزيل من حكيم حميد.

ولم يقف الأمر عند حد التحدي بالقرآن كله، بل تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله، فقال تعالى: **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**[2].

تنزل وأي تنزل، من تحدٍّ بالقرآن كلِّه إلى عشر سورٍ منه، ومع هذا زاد في التهكم فتنزل إلى أقل من ذلك إلى سورة واحدة فقال تعالى: **﴿وإن كنتم في**

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) سورة هود: الآية ١٣.

ريبٍ مّما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1].

وكرّر التحدي مرّة أخرى: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[2].

وزاد في التحدي، وزاد في التهكم فتحداهم بالإتيان بحديث مثله، فقال تعالى: ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ★ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[3].

وهو حينما يتحدى لا يتحدى تحدي الوجل الخائف من بطلان تحديه، بل تحدي المستعلي الواثق من عجز خصومه، ولا يترك وسيلة لإثارة الهمم - إن كان ثمَّ همة - في قبول التحدي ويلهب صدور خصومه ويستفزهم لذلك ويجهز عليهم بالحكم البات المؤيد بأنهم لا يستطيعون، ويتوعدهم بالنار إن أصرّوا على عنادهم بعد عجزهم: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾[4].

قسمًا بخالق العقول المفكرة، لو كان فيهم قدرة على ذلك ما آثروا الصّمت وهم أهل اللجاج، وما آثروا طأطأة الرأس وهُم أُباة الضيم الأعزاء، كيف وقد أصاب منهم موضع العزة والشّرف، ألا إنهم رفعوا رؤوسهم يبحثون عن فجوة فما وجدوها، أو فطور فما أدركوه فعاد البصر إليهم وهو حسير.

وتمّ نزول القرآن، وانقطع الوحي، والتحدي ما زال قائمًا لم ينقطع، ولم ينته أمده، فهو لقوته امتد زمناً حتى شمل آباده، وامتد مكاناً حتى انتظم آفاق الأرض.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٣) سورة الطور: الآيتين ٣٣-٣٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٤.

ذهب القرن الأول وجاء الذي بعده وفي البادية أو أطرافها أعراب لم تختلط أنسابهم، ولم يطل اللحن ألسنتهم، ولم يتغير صفو لغتهم، ولم تأسن سليقتهم، واسألوا الأصمعي عنهم، وفيهم من لو استطاع أن يأتي بمثل آية من القرآن يبز بها أقرانه ما تردَّد ولا تَلبَّث، فذلت له أعناقهم كما ذلَّت له أعناق من قبلهم.

وما زالت عجلة الزمن تدور وتطوي القرون قرناً فقرنا، ومسافة العجز تطول وتتَّسع وتتشعَّب، ما زادهم عجزاً انحراف الألسنة، وشيوع اللحن، واختلاط الأنساب فحسب، بل زادهم أن وجوه الإعجاز تتجدد وتتولَّد، فما أن يبزغ وجه من وجوه الإعجاز ويشرق، حتى يظهر نجم إعجاز جديد معلناً أن التحدي في القرآن ليس لعصر دون عصر ولا لأمة دون أمة ولا يزال هذا دأب القرآن في التحدي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

من خصائص القرآن الكريم:

إعجازه

أستميحكم عذراً - أيها الأحبة - إن أعلنت هنا أن مقولي لا يؤاتيني، وأن قلمي لا يطاوعني، وأن الكلمات لا توافقني أن أقصر الحديث عن إعجاز القرآن في صفحات محدودة، ودقائق معدودة، وأنى لي أن أفي الحديث حقه وقد تخلَّت عني أركان الكتابة، فلا ضير عليَّ أن جاء المقال مبتوراً.

القرآن أيها الأحبة شَدَهَ العامة والخاصة والموالين والمناوئين، واستولى منهم على العقول وهيمن على القلوب فأبدعت الألسن في وصفه، وسالت الأقلام في نعته، ولم أر كتاباً - وقد قيل هذا من قبلي - كتبت فيه الكتب وألفت عنه المؤلفات كما كتب أو أُلِّف عن القرآن.

القرآن هو الحجة التي أظهرها الله سبحانه وتعالى على يد نبيه محمد ﷺ وتحدَّى الناس أن يأتوا بمثله، وتحدَّاهم أخرى أن يأتوا بعشر سور مثله، وتحدَّاهم ثالثة أن يأتوا بسورة مثله، وتحدَّاهم رابعة أن يأتوا بحديث مثله، وما استطاعوا ولن يستطيعوا.

ولن نذهب يمنة ويسرة لتأصيل الإعجاز، أو لإطالة الحديث عنه هنا، فليس هذا بمقام ذاك، ولا هو بمستوعب له، فالإعجاز أجلى من أن يطال في بيانه، وأوعب من أن تستقصى أطرافه.

نزل القرآن على أمة أميَّة في العقيدة، وأميَّة في الفكر، وأميَّة في الصناعة وفي الزراعة، وأميَّة في العلاقات الاجتماعية والسياسية، وأميَّة في كل شؤون الحياة، إلاَّ الكلمة وتذوّقها، فهم أربابها وأصحابها، يمتطونها ويحكمون صنعتها، يطربون لجميلها، ويمجُّون قبيحها، ملكوها بقدر ما ملكتهم، يسيرونها وتسيرهم، ترفع فيهم وتَضع.

بعث فيهم محمد ﷺ فلم تكن معجزته في شيء لا يتقنونه، أو فن لا يحذقونه، بل تحدَّاهم فيما يدركون وفيما هــم فيه بارزون.

جاءت المعجزة قرآناً يقرأونه بألسنتهم، ويسمعونه بآذانهم، ويزنونه بموازين كلامهم، فإذا به أبلغ من بليغ الكلام، وأفصح من فصيحه، لا يرتقي إليه بيان ولا يدركه لسان، فملك البلاغة بألوانها، وحاز الفصاحة بأركانها. وجاءهم بما لا قِبَلَ لهم بردِّه، ولا قدرة لهم في دفعه، لا يملكون من أنفسهم معه إرادة، وليست لهم معه مشيئة، إلا أن يضع المعاند أصابعه في أذنيه، ويستغشي ثيابه ويلغو فيه: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1]، أما من لم يفعل فقد حيل بينه وبين خلافه فلا يملك إلا أن ينعقد قلبه عليه، وهو يجهد في نقضه. ويستقيم لدعوته، وهو يبالغ في رفضه. فلا مفر منه إلاَّ إليه، فقد أخذ بمجامع القلوب، واستولى على جهات النفوس، فما أعجب شأنه وأعظم أمره.

ويزيدك عجباً لا ينفد أن هذا الكلام لم يأخذ من اللغة صنعتها، ومن الأسلوب جماله، ومن الفصاحة رونقها، ومن البلاغة سموّها فحسب، بل أخذ مع هذا كله من المعاني أسماها، ومن المقاصد أعلاها.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

جاء بالدين بأصوله وحججه وبراهينه وشريعته وآدابه وسائر مقوّمات الأمة على أكمل وجه، وأحسنه، فهو والله إعجاز في إعجاز.

وفوق هذا كله على سموّه ورفعته، فإنه قلب الموازين كلها، فظهر أثره فيهم فور تلقيهم له وكأنه يغرس فيهم في لحظات، ما يحتاج اكتسابه إلى سنوات، فانقادوا لتعاليمه، وكأنها إلفهم وعادتهم، بل كأنهم تربّوا عليها ونشأت معهم، فلم يجر على المألوف من التربية، فقد عهدنا التربية تبدأ مع الصغار، وتشق مع الكبار، لكن القرآن أنشأهم على الكِبَر، وخاطب الكبار، ولو كان موافقاً لأخلاقهم أو مسايراً لها، لسهل الانقياد، لكن القرآن ما عدا أن سفّه أحلامهم، وحطّم أصنامهم، وشنأ معتقداتهم، وأزرى على آبائهم وقرّعهم وأنّبهم وكلّفهم خلاف ما اعتادوه، وأمرهم بما لم يألفوه، وهم أهل حمية تأبى الذل وعزة تأبى الضيم، ومع هذا الركام الهائل من العوائق انقلبت الأمور رأساً على عقب، فإذا بهم أهل القرآن وأتباعه . .

وأعجب من هذا كله أن هذا الجيل، الجيل الأول الذي تربّى على الكِبَر، كان هو خير القرون وأفضلها، وأكثرها تمسكاً بعد أن كان أكثرها بعداً، فاكتسب من الدين ما لا يتهيّأ إلاّ في سلالة بعد سلالة من قوم قد دخل آباؤهم فيه فهذّب طباعهم، وسما بشيمهم، وارتقى بأخلاقهم، واستقامت أحفادهم عليه، والتزموا بأحكامه. وأين هذا من قوم كانوا بالأمس يعبدون الأوثان، ويلزمون شانيء الأخلاق ورذيل الطباع، وساقط الآداب[1].

لكنه القرآن، ظهر أثره فيهم بعد أن أدركوا سره فالتزموه واتخذوه منهجاً فسما بهم ونالوا به ما نالوا.

أما خصومه فقد كان أمر محمد ﷺ، هو شغلهم الشاغل، وهمّهم الناصب، فلم يدعوا سبيلاً للقضاء على دعوته إلاّ وسلكوه، ولم يتركوا وسيلة لمقاومته باللطف أو بالعنف ألاّ وعملوا بها، حاولوا فتنته عمّا أوحي إليه والركون إلى دينهم، وساوموه

(١) انظر إعجاز القرآن: مصطفى الرافعي ص١٧٧-١٧٩.

بالمال، وساوموه بالملك، وساوموه بالجاه فأبى، وتواصوا بمقاطعته وعشيرته وحبس الزاد عنهم، حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه إليهم، بذلوا وسعهم لمنع وصول القرآن إلى آذانهم وآذان الآخرين أيضاً، حاربوه بإلصاق الشبهات فيه، واتهموا صاحبه بالسحر مرة، والكهانة مرّة أخرى، والجنون ثالثة، لينفّروا عنه من لا يعرفه، فلا يقترب منه، ولا يستمع لقوله. أمّا هو عليه الصلاة والسّلام، فدعاهم إلى التوحيد بالحجة والبيِّنة، وأقام ذلك لهم، حتّى قطع العذر وأزال كل شبهة، فلمّا ظهر بيّناً أن المانع لهم من الإيمان هو الهوى والحميَّة والمكابرة والعصبيَّة، حملهم على ذلك بالسيف، فنصبه لهم وناصبوه، وقتل من رؤسائهم وزعمائهم وأعلامهم وآبائهم وأبنائهم، ودلّهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو الإتيان بمثل هذا القرآن ولو بآيات يسيرة منه.

قل لي بربك.. لو كانوا يستطيعون ذلك، أفلا يكون أقرب إليهم وأبقى عليهم؟! ما الذي دعاهم إلى طرق الأبواب كلها إلاَّ هذا الباب؟! لِمَ آثروا طريق الذل الذي سلكوه يتوددون إليه أن يترك الدعوة ويبذلون له أموالهم والسيادة عليهم فيأبى، يناوئون عشيرته، ويفترون عليه الكذب وهم يعلمون الحق فلا يبالي بهم، يقاتلونه فيقتل منهم أحب الناس إليهم، هل كان هذا كله أسهل عليهم من الإتيان بمثل هذا القرآن لو استطاعوا؟ فبأي شيء يكون الإعجاز إن لم يكن هذا هو الإعجاز بعينه؟!.

بل إعجاز القرآن أكبر من أن يحيط به أهل عصر، وأعظم من أن يستوعبه جيل من الأجيال، فلئن أشرف الجيل الأول على قبس من إعجازه، فإن الأجيال من بعد ما تزال تنهل معينه الذي لا ينضب، وما تزال وجوه الإعجاز فيه تتجدد حتى لكأنها لا تنفد.

فكم من كتاب أُلِّف عن إعجاز القرآن، وكم من ندوة أُقيمت، وكم من محاضرة أُلقيت، وكم من مؤتمر عُقد لإعجاز القرآن الكريم، وما زال عطاؤه يفيض ويفيض.

من خصائص القرآن الكريم:
تأثيره في النفوس

وإنما اخترت هذا العنوان لهذه الخاصية في القرآن لتبادر المعنى منها إلى الذهن، وإن كان ليس هو المعنى الدقيق الذي أريد. إذ أن هذه تحمل معنىً واسعاً يشمل التأثير الفوري التلقائي، ويشمل التأثير الناتج عن طول قرآءة ومدارسة، وإنما أردت هنا النوع الأول فحسب، سَمِّه إن شئتَ: (الانطباع الذاتي)، وأريد بـ(الانطباع) التأثير الفوري[1]، وأريد بـ(الذاتي) الذي ينطبع في ذات إنسان، وقد لا ينطبع في إنسان آخر غيره، فقد تؤثر آية قرآنية في إنسان ولا تؤثر نفس التأثير في إنسان آخر، بل تؤثر فيه آية أخرى لا تؤثر في الأول مثل أثرها فيه.

وهذا الانطباع لا يختص بالمؤمنين بالقرآن فحسب، بل يحدث حتى في خصوم القرآن مما لا يحصل مثله أبداً في غير القرآن الكريم.

يحدث هذا الانطباع والتأثير بمجرد الاستماع للآيات القرآنية قبل أن يبحث في معانيه ويستقصيها، وقد أدرك هذا السر في القرآن سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: (إن في هذا القرآن سراً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظِّلال التي تشعها؟ أهو

(١) قال في لسان العرب جـ٨، ص٢٣٢، الطبع ابتداء صنعة الشيء.

الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم أنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود! .

ذلك سر مودَع في كل نصٍّ قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله)[1].

ولقد واجه سيد ـ رحمه الله تعالى ـ مثل هذه الحالة حين تساءل عن سبب سجود المشركين عند سماعهم لقوله تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾[2]، وأجاب عن ذلك فقال: (لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود، ويخطر لي احتمال أنه لم يقع، وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة وهو أمر يحتاج إلى التعليل.

وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرنا إليها من قبل. . .

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارىء للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارىء مؤثراً وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً.

وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه، عشت مع محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى، عشت معه وهو يشهد جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها، ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله!، وعشت معه وهو في رحلته العلويّة الطليقة عند سدرة المنتهى، وجنّة المأوى، عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي. . إلى أن قال رحمه الله تعالى. . . . واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: (هذا نذير من النذر الأولى. . . أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة).

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، جـ٦، ص٣٣٩٩.

(٢) سورة النجم: الآية ٦٢.

ثم جاءت الصيحة الأخيرة. . . واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: (أَفَمِنْ هذا الحديث تعجبون. . . وتضحكون ولا تبكون. . . وأنتم سامدون)؟.

فلما سمعت: (فاسجدوا لله واعبدوا)، كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي لم أملك مقاومته فظل جسمي كله يختلج ولا أتمالك أن أثبته ولا أن أكفكف دموعاً هاتنة لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة.

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب، إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة، ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم، أو أسمعها ولكنها في هذه المرة كان لها الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة وذلك سر القرآن، فهنـاك لحظات خاصـة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الإستجابة وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير فيكون منها ما يكون)[1].

وتأثير القرآن هذا بلغ مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النفوس، واستيلائه على قلوب المخاطبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسحر وما هو بالسحر، لا يختص ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، بل يغزو القلب من حيث لا يمكن لصاحبه رد، ويؤثر فيه من حيث لا يمكن له دفع.

أثَّر في الأعداء كما أثَّر في الأتباع، نذكر من أمثلة تأثيره في الأعداء:

حادثـة إسـلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين اجتمعت قريش فتشـاورت في أمـر النبي ﷺ، فقالوا: أي رجل يقتل محمداً؟ فقال عمر ابن الخطاب: أنا لها، فقالوا: أنت لها يا عمر، فخرج في الهاجرة في يوم شديد الحر،

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، جـ٦، ص٣٤٢٠-٣٤٢١.

متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ، ورهطاً من أصحابه فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فأخبره بغرضه، فقال نعيم: لبئس الممشى مشيت يا عمر، ولقد والله غرَّتك نفسك من نفسك. . . أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ فتحاوروا حتى علت أصواتهما، فلمّا رأى نعيم أنه غير منته قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا، فاحتمله الغضب فذهب إليهما فاقتحم الباب وبطش بختنه سعيد وشجَّ أخته فاطمة.

وأقف هنا لحظة - أيها الأحبة -:

تأمّلوا معي خروج عمر، من اجتماع قريش غاضباً، ثم زاده الحوار مع نعيم غضباً إلى غضبه، ثم ازداد حين أخبره بإسلام أخته وزوجها. واقتحامُه البيت وبطشُه بسعيد، وشَجُّه لأخته مظهرٌ من مظاهر شدة الانفعال، وكأنّما رُكِّبت هذه الطبقات من الغضب في جبار من جبابرة الجاهلية، وليس بمستضعف، ليشهد الناس وليدركوا تأثير القرآن الكريم وهيمنته.

في أوج هذه الحال يرفع عمر الصحيفة ويقرأ بضع آيات من سـورة طـه فلا يملك إلا أن يقول: **(ما أحسن هذا الكلام وأكرمه)**. الله أكبر، انطفأ غضبه كما يطفىء الماء النار، وإذا بالإسلام يلج من قلبه من حيث يحسب الناس أن لا مولج.

هذه حادثة عمر رضي الله عنه، وما حادثة الوليد بن المغيرة عنا ببعيد، وقولته الشهيرة عن القرآن الكريم، قالها وهو لا يملك من نفسه شيئاً، قالها وهو تحت هيمنة القرآن قال:

(والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلوا وما يعلى).

وهل جاءكم ما حدث لجبير بن مطعم رضي الله عنه حين حدث عن نفسه، أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور قال: فلمّا بلغ هذه الآية: **﴿أم خلقوا**

من غير شيء أم هم الخالقون﴾[1]، إلى قوله: (المسيطرون)، كاد قلبي أن يطير[2].

واقرأوا إن شئتم قصة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنهما حين أرسلهما الرسول ﷺ إلى المدينة يعلمان الناس القرآن فنزلا عند أسعد بن زرارة، فأغضب هذا سعد بن معاذ - سيِّد الأوس - رضي الله عنه قبل إسلامه، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما، فلمّا انتهى إليهما أسيد هددهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة فأجابه مصعب رضي الله عنه: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، ثم قرأ مصعب القرآن، وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتَّى أسلم، ثم كرَّ راجعاً إلى سعد فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وذهب ثائراً مهتاجاً فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيد فأسلم من فوره[3].

هذه أمثله من تأثير القرآن الكريم في نفوس خصومه، ولعل قائلاً يقول: عمدت إلى قصص أفراد وحوادث آحاد واستدللت بها على مثل هذه القضية العامة والهامة!! ألا تجد من عظمة الشواهد ما يناسب عظمة القضية!!.

ولهذا ولمن أراد المزيد أقول:

إن الشواهد على تأثير القرآن في الجماعات مرسومة، وللمتأمل معلومة...

أذكر بعض مظاهرها:

المظهر الأول:

اسألوا التاريخ، واجعلوا من أنفسكم حكمًا على ما يقول... اسألوه بأي

(١) سورة الطور: الآية ٣٥.

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير، سورة الطور، جـ٦، ص٤٩-٥٠.

(٣) انظر سيرة ابن هشام، جـ٢، ص٧٧-٧٩، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، جـ٢، ص٦٧-٦٨.

قوة فتح الرسول ﷺ المدينة؟ كم جيشاً وجه لفتحها؟ أو كم سرية بعثها الرسول ﷺ لها؟ فإنه مجيبكم بملء فيه أنه لم يفتحها بشيء من ذلك بل هي التي فتحت قلبها له ومدت يديها إليه، ولكنها لم تفعل ذلك ابتداءً بل استجابة واستسلاماً لداع أقوى من الجيش، وأسرى من السرية، إنه داعي القرآن الكريم، ولذلك قالوا: (فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن)، فقد أوفد الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى أهل يثرب (المدينة) فمكث فيها يقرأ القرآن على أهلها فآمنوا ودعوا رسول الله ﷺ إلى الهجرة إليهم)[1].

فإن لم يسلم المعترض بهذا المظهر تسليمًا كاملًا لشبهة وردت على خاطره وقال: لِمَ أثَّر القرآن على أهل المدينة، ولم يكن تأثيره على أهل مكة، كذلك إن كانت القضية قضية تأثير؟.

ولهذا أقول إن القرآن الكريم أثر في أهل مكة، كتأثيره في أهل يثرب أو أشد، لكن العناد عندهم والمكابرة كانت تقضي على كل ظاهرة للاستجابة، وقد تمالأوا على ذلك فكلما لان قلب أحدهم وضعف أمام هيمنة القرآن بعثوا إليه من ينفخ في نار العناد حتى يستعر في قلبه فيعود إليهم وما حادثة الوليد منا ببعيدة، قال قولته في القرآن فأرسل إليه المشركون أبا جهل فجاءه وقال له: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟! فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟!، فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة (وكان يسمع القرآن من أبي بكر رضي الله عنه) لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وما قوله إلاَّ سحر يؤثر[2].

هكذا كان أهل مكة يفعلون مع من يبدو عليه تأثير من القرآن، فأنى لهذا المجتمع مع هذا العناد أن يظهر فيهم أثر القرآن كما يظهر في مجتمع لا عناد فيه،

---

(١) الإتقان: السيوطي: جـ٢، ص١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٤، ص٤٦٩.

ولا استكبار، بل بحث عن الحق وسفر إليه، والعناد لا تنفع معه الحجة، ولا يقوم عليه البرهان.

المظهر الثاني:

أن زعماء المشركين مع عنادهم كان يسارق بعضهم بعضاً فيخرج في جنح الليل المظلم ما يخرجه إلاَّ استيلاء القرآن على مشاعره فيبحث عَمَّن يتلو القرآن في هدأة الليل، وقد أرخى سدوله، وسجا سجاه، وهذا أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلِّي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا. . وحصل في الليلة الثانية ما حصل في الأولى. . وحين التقوا في الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[1].

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتى إذا ما وجدوه وكادوا أن يستكينوا له أخذتهم العزَّة بالإثم، فارتدوا على أدبارهم ما يمنعهم إلاَّ العناد، ولهذا حين سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه فيما سمعه من محمد قال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه!! والله لا نؤمن أبداً ولا نصدقه[2].

وهذا أيضاً شاهد لما ذكرناه في المظهر الأول من أن المانع من تأثير القرآن في مشركي مكة هو العناد.

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام جـ١، ص٣٣٧ (باختصار).

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٣٣٧-٣٣٨.

المظهر الثالث:

ولأن الكفار يدركون تأثير القرآن في نفوس سامعيه فإنهم كانوا يخشون استيلاءه على قلوب الناس عند سماعه فكانوا يستقبلون الوافدين إلى مكة ويحذرونهم من الاستماع إلى محمد ﷺ أو مجالسته كل هذا لما يعرفون من تأثيره.

بل كانوا إذا شرع ﷺ في القرآءة يخشون كل الخشية أن يصل إلى أذهانهم فلا يستطيعون رده عن الاستيلاء على قلوبهم فيسعون سعيهم لقطع هذا التيار من النفاذ إلى القلب: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1].

وحين قال زعماؤهم هذه المقولة فإنهم لم يقولوها وهم في منجى من تأثيره فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم روعته وأدركوا في قلوبهم تأثيره ما حذروا قومهم هذا التحذير وما تنادوا هذا النداء وقد كانوا يتأثرون لكنهم كانوا يستكبرون: ﴿**وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً، فبشِّره بعذابٍ أليم**﴾[2].

المظهر الرابع:

أن الرسول ﷺ لم يُكَلَّف: (أن يهدي من أحب) ومن لم يحب أيضاً إلى الإيمان، وإنما كلف بأن يُسْمِعَ المشركين كلام الله: ﴿**وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون**﴾[3].

ولولا هذا التأثير القوي لسماع كلام الله لما كان هو الحد الفاصل لنهاية إجارة المشرك.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦.

المظهر الخامس:

تأثيره في طائفة من النصارى وقد حدثنا القرآن عن ذلك فقال: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾[1].

هذه بعض مظاهر تأثير القرآن الكريم في نفوس جماعات - وليس في أفراد - من الذين لم يؤمنوا فآمن بعضهم، ومنع العناد والاستكبار بعضهم الآخر، وهكذا رأيت فيما سقناه، أمثلةً على تأثيره في نفوس الأفراد وفي نفوس الجماعات من المناوئين له، وإذا كان هذا بعض أثره في خصومه فكيف سيكون أثره في أتباعه.

إن شئت أن نجمل الحديث قلنا ما قال السيوطي - رحمه الله تعالى - (قد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف)[2]، وقال الغزالي - رحمه الله تعالى - (ولقد كان في الخائفين من خَرَّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات)[3].

أما إن شئت ذكر بعض صور هذا التأثير فإنا نذكر هنا صوراً خاطفة لتأثيره في المسلمين، وأولهم رسول الله ﷺ، فقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليَّ. قلت: يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟!، قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿**فكيف إذا جئنا من كلِّ أمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢-٨٣.

(٢) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص١٢٣.

(٣) إحياء علوم الدين: الغزالي جـ١، ص٢٩٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٤١.

قال: حسبك الآن، فالتفت فإذا عيناه تذرفان[1].

وهذا أبو بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها لما اشتد مرض الرسول ﷺ قال: مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنَّاس، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، إنَّ أبا بكرٍ رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه[2].

أما عمر رضي الله عنه، فقد سبق بيان تأثير القرآن في قلبه قبل إسلامه، أما بعد إسلامه، فقد روى ابنه عبد الله قال: صليت وراء عمر فسمعت حنينه (أي أنينه)، من وراء ثلاثة صفوف[3]، وروى هشام عن الحسن، كان عمر يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً[4]، وقال عبد الله بن شداد: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ: **﴿إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله﴾**[5][6].

كيف لا!! وقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن أثر القرآن في آيات منها: **﴿الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾**[7].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٣جـ٦ ص١١٣.

(٢) مسند الإمام أحمد جـ٦، ص٢٢٩، ورواه بألفاظ أخرى البخاري في صحيحه جـ٤، ص١٢٢، والترمذي في سننه، جـ٥، ص٦١٣، والدارمي جـ١، ص٣٩.

(٣) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني جـ١، ص٥٢، وتاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ص١٩٢.

(٤) حلية الأولياء، جـ١، ص٥١، وتاريخ عمر بن الخطاب: ابن الجوزي، ص١٩٢.

(٥) سورة يوسف: من الآية ٨٦.

(٦) تاريخ عمر بن الخطاب: ابن الجوزي ص١٩٢.

(٧) سورة الزمر: الآية ٢٣.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون﴾[1]. وعدَّ هذا من صفات عباد الرحمن فقال سبحانه: ﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً، والذين إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم لم يخرُّوا عليها صمّا وعمياناً﴾[2].

بل جعل الخشوع للقرآن من صفات الذين أوتوا العلم واقرأ قوله تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزّلناه تنزيلاً، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أُوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سجَّداً ويقولون سبحان ربِّنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾[3].

هذا هو القرآن ـ أيها الأحبة ـ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ويخرُّون للأذقان يبكون حين يلامس الوجدان فتوجلُ منه القلوب، وتهتزُّ الأبدان، وتتحرَّك المشاعر، وتفيض الدموع، وتحشرج الصدور.

يسمعه المؤمنون فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم، ويسارعون إليه خاشعين ولربهم منيبين.

ويسمعه الكفار والمشركون فيملك منهم الأفئدة ويستولي على القلوب فيذعنون.

ويسمعه المعاندون المستكبرون عن الحق فيقولون: إن هو إلاّ سحرٌ مبين، أو يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون... فيقرون بتأثيره في القلوب من حيث يشعرون أو لا يشعرون...

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٢) سورة الفرقان: الآيتان ٧٢-٧٣.

(٣) سورة الإسراء: الآيات ١٠٦-١٠٩.

من خصائص القرآن الكريم:
الاستشفاء به

في القرآن الكريم نوعان من الإعجاز الطبي.

أما الأول: فهو إعجاز وصفي بمعنى أن القرآن وصف أدوية لعلاج الأمراض البدنية والنفسية، في وقت لم يكن الناس أبداً يدركون هذا أو بعضه.

فحرَّم الخنزير، والدم، والميتة، والمنخنقة، والخمر، والزنى، واللواط، وإتيان النساء في المحيض، ولا شك أن مثل هذه الأشياء من مصادر الأمراض الخطيرة، ووصف العسل وأخبر أن فيه شفاءً: ﴿**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**﴾[1].

تلك أمور تجلب الأمراض البدنية وذلك دواء بإذن الله يدفعها، وحرَّم أيضاً اتِّباع الشهوات، والحسد، والحقد، والغضب واليأس، والقنوط، وغير ذلك لما تجلبه لصاحبها من أمراض نفسية...

ووصف العلاج لنحو هذا: ﴿**استعينوا بالصبر والصَّلاة**﴾[2]، وغير ذلك.

وتلك أمور تجلب الأمراض النفسية، وذلك دواء بإذن الله يدفعها، لكن هذا النوع من الإعجاز لا أقصده هنا فهو جزء من علوم القرآن ومعارفه التي سبقت الإشارة إليها في خصائص القرآن الكريم، وإنما نذكر هنا نوعاً آخر لا يشارك القرآن فيه كتاب سواه.

ذلكم الإعجاز هو أن يصبح القرآن نفسه دواء للمرض وشفاءً للداء بإذن الله، لا أن يصف الدواء.

والنصوص كثيرة على أن القرآن نفسه شفاء فقد قال تعالى: ﴿**وننزِّل من**

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٩.

(٢) سورة البقرة: من الآية ٤٥ و١٥٣.

القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾[1]. ﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء﴾[2]، ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾[3].

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الدواء القرآن»[4]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن»[5]، وعن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: «في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء»[6]، وقال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير: ﴿وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين﴾[7]:

(ومن) هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية المتقدمة يعني: ـ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ـ فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاءً قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن[8].

وتدبَّر أخي المسلم وَصَفَ الله القرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء، ذلكم أن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر، فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأي تأكيد لثمرة التداوي به.

وفي سنَّة الرسول ﷺ صور تطبيقية عديدة للتداوي بالقرآن سواء كان دواءً للأبدان أو للنفوس.

---

(١) سورة الإسراء: من الآية ٨١.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس: من الآية ٥٧.

(٤) سنن ابن ماجة: جـ٢، ص٣٥٥، حديث ٣٥٦٢.

(٥) سنن ابن ماجة: جـ٢، ص٣٤٣، حديث ٣٥١٠.

(٦) سنن الدارمي: جـ٢، ص٤٤٥، كتاب فضائل القرآن، باب فضائل الفاتحة.

(٧) سورة الإسراء: من الآية ٨١.

(٨) الجواب الكافي: ابن القيم ص٨.

التداوي بالقرآن للأبدان:

ومن صور التداوي بالقرآن في الأمراض البدنية ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلمّا ثقُل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها(١).

وحديث الرقية بالفاتحة الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك فقال: هل معكم من دواء أو راقٍ، فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء فجعل يقرأ بأمِّ القرآن ويجمع بزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشاء فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه فضحك، وقال: وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم(٢).

وقصة المعتوه التي رواها خارجة بن الصلت التميمي عن عمه قال: أقبلنا من عند رسول الله ﷺ فأتينا على حيٍّ من العرب، فقالوا: إنا أنبئنا أنكم جئتم من عند هذا الرجل بخير، فهل عندكم من دواء أو رقية، فإن عندنا معتوهاً في القيود، قال: فقلنا: نعم. قال: فجاءوا بمعتوه في القيود قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام، غدوة وعشية كلّما ختمتها أجمع بزاقي ثم أتفل فكأنما نشط من عقال، قال: فأعطوني جُعلا، فقلت: لا، حتى أسأل رسول الله ﷺ، فقال: كل فلعمري مَنْ أكل برقية باطل، لقد أكلت برقية حق(٣).

وقصة الذي به مس من الجن فقد روى أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله إنَّ لي أخاً وبه وجع، قال: وما وجعه، قال: به لمم، قال: فائتني به، فوضعه بين يديه، فعوذه النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، جـ٧، ص٢٢، كتاب الطب، باب الرقي بالقرآن.

(٢) رواه البخاري جـ٧، ص٢٣، كتاب الطب باب الرقي بفاتحة الكتاب.

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ٥، ص٢١١، وسنن أبي داود، جـ٤، ص١٤-١٥.

بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين: ﴿**وإلهكم إله واحد**﴾، وآية الكرسي، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران، ﴿**شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو**﴾، وآية من الأعراف: ﴿**إنَّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض**﴾، وآخر سورة المؤمنين: ﴿**فتعالى الله الملك الحق**﴾، وآية من سورة الجن: ﴿**وأنه تعالى جدُّ ربِّنا**﴾، وعشر آيات من أول (والصافات)، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وقُل هو الله أحد، والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشتك قط)[1].

والقرآن شفاء للأمراض النفسية وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة إلى التداوي بالقرآن لهذا الداء الوبيل، في عالم تتنازعه الأهواء المادية، والشهوات الجسدية، والملذات الدنيوية.

فلقد أصبح الهم والقلق سمة هذا العصر وليس هذا نتاج فقر أو بحث عن قوت، إذاً لوجد لصاحبه عذر، فهذه السويد أكثر دول العالم حوادث انتحار مع أن دخل الفرد فيها من أعلى الدول ولكنه الخواء الروحي فهم قد أشبعوا الجسد غذاء ولبوا مطالبه، وأهملوا كلَّ الإهمال مطالب الروح. فسلبوا من حيث يدرون أو لا يدرون نعمة الأمن وحين تسلب هذه النعمة من مجتمع، فإن الأفات النفسية تدب فيه دبيب النار في الهشيم، فيجد الإنسان أنه بحاجة ماسة إلى النفاق، حتى يكفل لنفسه بعض الأمن وسينتابه الغضب، والطمع، والغرور، والحقد، والحسد، واليأس، والقنوط، وحينئذ تستولي عليه الأمراض النفسية، والقلق، والوساوس، والاكتئاب، والهمّ والغم، والصرع، والعين، والسحر، ثم الجريمة. . أو . . الانتحار.

وأحسب أن الأمراض النفسية أخطر من الأمراض الجسدية فحين يصاب الإنسان بمرض جسدي فسيجد من يداويه طال الزمن أو قصر وإن لم يجد فلن يعدم وسيلة تخفف عنه من آلامه، ويستمتع بما بقي من صحته، أما المرض

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٥، ص١٢٨.

النفسي، فليس من السهل أن يجد العلاج المناسب في وقت قصير، وقد يصبح نهباً للوساوس والأوهام، ولن يستمتع بحياته كما يستمتع بها المريض في جسده، ولذا فقد يشعر الإنسان بسعادة غامرة، رغم فقره، وفاقته ومرضه الجسدي، ولكنه لن يكون كذلك إذا ما كان يعاني مرضاً نفسياً.

فخسارة أولئك الذين أنكروا الدين أو حادوا عن الصراط المستقيم خسارة جسيمة دونها كل خسار.

أما نحن المسلمين فنعتقد أن في القرآن الكريم الشفاء التام من كثير من الأمراض الجسدية والنفسيّة، وإنما تحدث الأمراض النفسية حين يعرض الإنسان عن القرآن وعن ذكر الله: ﴿**ومن أعرض عن ذِكري فإنَّ له معيشة ضنكاً**﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿**ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقيِّض له شيطاناً فهو له قرين**﴾[2]، أما الطمأنينة التي يطلبها الإنسان فهي قرينة الذكر: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[3].

وهذا رسول الله ﷺ يصف علاجاً قرآنياً لإذهاب الحزن والهم حيث يقول عليه الصلاة والسلام: «ما أصاب عبداً همٌّ ولا حزن فقال: اللهمَّ إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب غمِّي، إلَّا أذهب الله حزنه وهَمَّه وأبدله مكانه فرحاً»[4].

وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «دعوة ذي النون إذ دعا ربه

---

(١) سورة طه من الآية ١٢٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٣) سورة الرعد من الآية ٢٨.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ١ ص٣٩١.

وهو في بطن الحوت: ﴿لا إله إلاَّ أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين﴾[1]، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاَّ استجيب له»[2].

وقد وردت في السنة أدعية قرآنية كثيرة يقرؤها المسلم عند كل شأن من شؤونه عند نومه وعند يقظته، عند سفره وعند وصوله، عند دخوله وعند خروجه، في مرضه وفي صحته، وهي ثابتة في كتب السنة مبيَّنة لمن أرادها.

فكم من مسلم إذا تكالبت عليه الهموم توضَّأ وتطهَّر ثم انتحى زاوية في بيته، وأخذ المصحف يتلو ويتلو فتنزاح عنه الهموم وتنجلي، فيقوم وكأنَّما نشط من عقال.

وكم من مسلم اضطجع على جنبه الأيمن عند نومه وقرأ على نفسه بضع آيات، وكأنما يمدّ بها طريقاً إلى ربه، ويبتغي بها رضاه فينام قرير العين آمناً بحفظ الله ورعايته.

وكم من مسلم أصابته الوحشة واستولى عليه الخوف فآنس نفسه بآيات فوجدها نعم الأنيس، أزالت وحشته، وأذهبت خوفه.

وكم من مسلم اضطرب وارتعد فتلا آيات فأنزل الله عليه سكينته، وآمن روعته.

وكم من مسلم التمس الشيطان إلى قلبه سبيلاً، وألقى إليه بالشبهات والشكوك، فما تكاد تنقدح شرارتها حتى يدعوه داعي الإيمان إلى ترتيل آيات من القرآن فتقضي على كل شبهة، وتقطع كل شك فيعود قلبه مطمئناً.

وكم من مسلم ناله الفقر ومسّه الجوع، فوجد في القرآن غناءه، وفي تلاوته غذاءه.

---

(١) سورة الأنبياء: من الآية ٨٧.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص١٧٠، وسنن الترمذي، جـ٥، ص٥٢٩.

وكم من مسلم كاد أن يطغيه غناه، وتذهب به بهجته، فأنقذه الله بالقرآن يتلوه، فانكشف له الستار، وتذكَّر نعمة ربه فابتغى ما عند الله بما عنده.

فإن جرَّب أحد شيئاً من هذا فاستعصى عليه أو لم يجد فلينظر في حاله وليفتش عن العلة في نفسه، فإنَّه من قِبَلِه هو أُتي.

فلا بد من كمال اليقين، وقوة الاعتقاد، فذلكم رسول الله ﷺ جاءه رجل فقال: (ان أخي استطلق بطنه، فقال: اسقه عسلاً، فسقاه، فقال: إني سقيته فلم يزده إلَّا استطلاقاً، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك)، وفي رواية أخرى، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتى الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتى الثالثة، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلت: فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً فسقاه فبرأ)[1].

ولذلك قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: (ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له وهو: أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويُرقى بها، هي في نفسها وإن كانت نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه)[2]، وقال الزركشي عن الاستشفاء بالقرآن: (لن ينتفع به إلَّا من أخلص لله قلبه ونيَّته، وتدبَّر الكتاب في عقله وسمعه، وعمر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميره في ليله ونهاره، وتمسَّك به وتدبَّره)[3].

ويظهر لك هذا جلياً، أعني اشتراط الإيمان للانتفاع بالقرآن إذا قارنت بين النصوص التي تصف القرآن بالشفاء، والنصوص التي تصف العسل بالشفاء مثلاً.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٥، ص١٨، والرواية الأخرى ص١٢-١٣.

(٢) الجواب الكافي، ابن القيم، ص٨.

(٣) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٤٣٦.

ففي وصف القرآن يقول تعالى: ﴿**ونننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**﴾[2]، ويخاطب المؤمنين: ﴿**قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور**﴾[3]، ويقول الرسول ﷺ عن دعوة ذي النون: ﴿**لا إله إلاَّ أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين**﴾[4]. «لـم يدع بها رجلٌ مسلمٌ قط إلاَّ استجيب له» فقيَّده بالإسلام. . هذا في القرآن خاصة، أما العسل فليس الشفاء للمؤمنين فحسب، بل هو لكل الناس شفاءٌ للمؤمن، وشفاء للكافر. كل الناس، قال تعالى: ﴿**يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس**﴾[5]، فالشفاء في القرآن للمؤمنين خاصة، والشفاء في العسل شفاء للناس عامة، فهل رأيت دواءً يفيد طائفة من الناس، ولا يفيد طائفة أخرى مع تماثل الأجساد وتشابه الأمراض.

ومما ينبغي أيضاً التنبيه إليه هنا أن هذا الباب قد بالغ فيه قوم وخرجوا عن حدِّ الاعتـدال المحمود وجاوزوه إلى بدعٍ وخرافات ابتدعوها، بل وإلى كفر وزندقة. وفي الكتب المؤلفة تحت عنوان: (خواص القرآن) الشيء الكثير من هذا، فاتَّخـذوا من القـرآن طلاسم ورمـوزاً ومـربعـات وأحـرف وشعوذة ودجلاً، يتقرَّبون بتحريف القرآن والإلحاد في آياته إلى شياطينهم فيقدم لهم الشياطين جزاء إلحادهم خدمة يخدعون بها الناس فيروج عملهم، ويبتلي الله بهم الناس، فمنهم من يصبر على مرضه ويحتسب ولا يلجأ إليهم فيفوز، ومنهم من ييأس ويقنط من رحمة الله ويبيع دينه بدنياه فيلجأ إليهم ويتبع قولهم ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، هذه طائفة. وطائفة أخرى اتخذوا القرآن آلة يتبَّركون بها ويتزلَّفون ببدعهم ومنكراتهم إلى العوام، فإن حاجَّهم أحد صرخوا عند العوام فيه بأنه لا يحترم القرآن ولا يعرف

(١) سورة الإسراء: من الآية ٨٢.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس: من الآية ٥٧.

(٤) سورة الأنبياء: من الآية ٨٧.

(٥) سورة النحل: الآية ٦٩.

حقه، يقولون هذا وهُمْ من أكثر الناس تعطيلاً لحقوقه، تماماً كما يفعل القبوريون عند قبور الأنبياء، والأولياء، والصالحين، فإن أنكر عليهم أحد صرخوا بوجهه أنه يكره محمداً ويكره فلاناً وفلاناً من الصالحين.

وسأذكر ثلاث صور ـ مررت بها بنفسي ـ لهذا الذي يزعمونه تبُّركاً، رأيت عند أحدهم منظراً جميلاً في زاوية من زوايا مجلسه عبارة عن صندوق صغير له غطاء من زجاج وفي داخله مصباح كهربائي يرسل ضوءه إلى نقوش وزخارف حسبتها على شكل مصحف فرفعته بيدي أتأمله، فإذا النقوش والزخارف ناتئة وبارزة، وتمعَّنت فإذا الشكّ يداهمني أنها مصحف حقاً، فرفعت الزجاجة وحاولت أن أقتلعه، وإذا به مثبت بمسامير قوية تخرقه من أوله إلى آخره، فانتزعتها، وإذا بغلافه الآخر الأسفل مثبت بمادة صمغيَّة قوية. فاستخرجته وإذا به، ويا لهول ما رأيت، مصحفاً كاملاً للقرآن الكريم مزَّقته المسامير. . . فاقشعر جلدي، أيُّ تبُرك هذا، هل التبرك يكون بضرب القرآن بالمطرقة، وتثبيته بالمسامير!!، هل التبرك يكون بهجر القرآن!!، من الذي سيقرأ بهذا المصحف على هذه الحال، أفلا يكفي إذا ابتلوا بهذا أن يجعلوا الغلاف وحده منظراً، ويؤدوا حق المصحف تلاوة؟؟.

وصورة ثانية، ركبت مع صاحب سيارة أجرة في إحدى البلدان الإسلامية، فإذا به قد وضع المصحف على الرف الذي أمامه والشمس قد غيَّرت لونه، سألته عن غرضه فأفاد بأنه ابتغاء البركة، سألته إن كان سبق له أن قرأ فيه، فأجاب بالنفي، قلت: أي بركة تأتي لمن يهجر القرآن، إن ما فعلته ما هو إلاَّ إهانة وأي إهانة للقرآن، تضعه على رف سيارتك ولا تقرأ فيه حرفاً، وأشدّ من هذا تجعل علبة سجائرك من فوقه، والسمَّاعة من تحته تصدح بالأغاني، فنظر إليَّ ومن معه مشدوهين، وكأنِّي قد جئت بجرم شنيع، هذا الذي ينكر التبرك بالقرآن؟!.

وصورة ثالثة تجوّلت ليلاً في أحد الشوارع في دولة إسلامية، وإذا ببعض المحلات التجارية مغلقة، وإذا بي أرى من خلف الزجاج لبعض المحلات ـ وخاصة محلات الأحذية ـ، أرى المصحف مفتوحاً بجانب الأحذية، فعجبت

ودهشت، ألأجل هذا أُنزل القرآن الكريم، ولكنَّها الفتنة يبتلي بها الله بعض الناس فيبتدعون بدعاً ما أنزل بها من سلطان، ويلبِّس عليهم الشيطان دينهم.

حقاً إن الاستشفاء بالقرآن من خصائصه لكن هذا يجب أن يكون على هدى من الكتاب ومن سنة الرسول ﷺ ومن حاد عن ذلك زيادة أو نقصاً هَلكَ وأهلَكَ.

من خصائص القرآن الكريم:

شفاعته لأهله

خصَّ الله سبحانه وتعالى كتابه المبين القرآن الكريم من بين سائر الكتب بأن يشفع لأهله يوم القيامة، وقد ثبت هذا للقرآن الكريم كله ولسور منه بعينها، ووردت في السنة أحاديث تبيِّن هذه الشفاعة.

ومن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنَّهما غمامتان، أو كأنَّهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طيرٍ صوَّاف، تحاجَّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»[1].

وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفِّعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليلِ فشفِّعني فيه، قال: فيشفَّعان»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن: يا ربِّ حَلِّه، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول:

---

(١) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٣، ومسند الإمام أحمد، جـ٥، ص٢٤٩.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ٢، ص١٢٤.

يا ربِّ زده، فيلبس حُلَّة الكرامة، ثمَّ يقول: يا ربِّ ارض عنه فيرضى عنه، فيقال له: اقرأ وارق، وتزاد بكلِّ آية حسنة».[1]

وعن الشعبي أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: (يجيء القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحبه، فيكون له قائداً إلى الجنة، ويشهد عليه ويكون سائقاً به إلى النار)[2].

وغير ذلك من الأحاديث التي تثبت شفاعة القرآن لأهله يوم القيامة، فهنيئاً لأصحاب القرآن صحبته.

من خصائص القرآن الكريم:
التغني وتحسين الصوت به

وقد ثبت في السنة الأمر بالتغني بالقرآن فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أَذِنَ الله لشيء ما أَذِنَ للنبي ﷺ أن يتغنى بالقرآن» قال سفيان تفسيره: يستغني به[3]. ورده الشافعي رحمه الله تعالى بقوله: ـ «لو أراد الاستغناء لقال: لم يستغن. وإنما أراد تحسين الصوت»[4] (قلت) ويؤيده الرواية الأخرى «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»[5]. قال الطبري: ـ لو كان معناه الاستغناء لما كان لذكر الصوت ولا لذكر الجهر معنى[4].

وهذا رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل بنفسه: ـ عن البراء قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء: والتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قرآءة منه»[6].

---

(١) سنن الترمذي: جـ٥، ص١٧٨، والدارمي: جـ٢، ص٤٣٠.

(٢) رواه الدارمي، جـ٢، ص٤٣٣.

(٣) صحيح البخاري جـ٦ ص١٠٧-١٠٨ وصحيح مسلم جـ١ ص٥٤٥.

(٤) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني جـ٩ ص٧٠-٧١.

(٥) صحيح البخاري جـ٨ ص٢١٤ وصحيح مسلم جـ١ ص٥٤٥.

(٦) صحيح البخاري جـ٨ ص٢١٤.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وكان بين السلف اختلاف في جواز القرآن بالألحان أما تحسين الصوت وتقديم حسن الصوت على غيره فلا نزاع في ذلك»[1].

ونَصَّ النووي رحمه الله تعالى على إجماع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ما لم يخرج عن حَدِّ القرآءة بالتمطيط فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه حـــرم»[2].

من خصائص القرآن الكريم:

تعدد أسمائه وصفاته

وردت للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة في كثير من الآيات وفي بعض من الأحاديث النبوية.

ولكثرة هذه الأسماء والصفات، فقد أفردها بعض العلماء بمؤلفات مستقلة، فضلاً عن إيرادها أو إيراد جملة منها في بطون مؤلفاتهم.

ومِمَّن أَلَّف فيه علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرالي[3]، المتوفى سنة (٦٤٧)، وابن قيِّم الجوزيَّة المتوفَّى سنة (٧٥١)، أَلَّف كتاب: (شرح أسماء الكتاب العـزيز)[4]، ومن المعاصرين، أَلَّف الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي، كتاباً عنوانه: (الهدى والبيان في أسماء القرآن).

وقد وقع الاختلاف بين العلماء في عدد أسماء القرآن الكريم، فهذا الزركشي يذكر أن (الحرالي) أنهى أساميه إلى نيِّفٍ وتسعين، لكن الزركشي نفسه لا يورد إلَّا خمسة وخمسين اسمًا نقلها عن أبي المعالي عُزيزى بن عبد الملك المعروف بِشَيْذَلَة[3]. وقد أوردها أيضاً السيوطي[5].

---

(١) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني جـ٩ ص ٧٢.

(٢) التبيان: النووي ص٨٧-٨٨.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٧٣.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب، جـ٢، ص٤٤٩.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٠-٥١.

أما الفيروز آبادي فقد قال: (ذكر الله تعالى للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد)[1]، لكنَّه لم يذكر إلاَّ تسعة وثمانين اسمًا وزادها أربعة أسماء. فتكون جملة الأسماء التي أوردها الفيروزآبادي ثلاثة وتسعين اسمًا من القرآن للقرآن.

أما الشيخ صالح البليهي فلم يذكر إلاَّ ستة وأربعين اسمًا من أسماء القرآن الكريم، لاعتقاده أن بعض هذا العدد ـ إن لم يكن أكثره ـ أوصاف للقرآن وليست بأسماء[2]، ومع هذا فإنه لا يستبعد أن يكون بعض ما ذكره هو من أوصاف القرآن وليست من أسمائه[3].

ومن أسمائه التي استمدها العلماء من القرآن نفسه: التنزيل، الآيات، الكتاب، القرآن، الحق، التذكرة، الهدى، الوحي، الصراط المستقيم، التبيان، الصدق، المفصل، الحديث، الرحمة، النور، النذير، كلام الله، القول الثقيل، القول الفصل، العربي، الحكيم، الحكمة البالغة، العلم، القصص، البشير، الموعظة، المبارك، البصائر، الشفاء، النبأ العظيم، الفرقان، المجيد، الروح، البلاغ، حبل الله، البرهان، أحسن الحديث، المثاني، السراج، المبين، وغير ذلك من الأسماء والصفات.

وقد بيَّن العلماء حكمة تعدد الأسماء فقال الفيروز آبادي: (اعلم أن كثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلَّت على كمال قوَّته، وكثرة أسماء القيامة دلَّت على كمال شدَّته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلَّت عل شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلَّت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلَّت على علو رتبته وسموِّ درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلَّت على شرفه وفضيلته)[4].

---

(١) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، جـ١، ص٨٨.

(٢) الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح البليهي، ص٤٤.

(٣) الهدى والبيان: صالح البليهي، ص٤٣.

(٤) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، جـ١، ص٨٨.

وبين أسماء القرآن الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه، ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالته على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلاً بالهدى يدلّ على أنَّ الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدلُّ على أنَّ فيه ذكرى، وهكذا كما قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ عن لفظ السيف والصارم والمهند. . . فإنها تشترك في دلالتها على الذات فهي من هذا الوجه كالمتواطئة، ويمتاز كلٌّ منها بدلالته على معنى خاص، فتشبه المتباينة وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب)[1].

وهناك إشارة دقيقة استمدَّها بعض العلماء من تسميته بالقرآن، والكتاب، فقال: (روعي في تسميته قرآناً كونه متلوّاً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوَّناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمديَّة، إقتداءً بنبيِّها، بقي القرآن محفوظاً في حرزٍ حريز[2].

وينبغي أن أنبه إلى أمرين هنا. .

الأول: ـ أن ما ذكرته من أسماء القرآن مأخوذ من القرآن نفسه، وقد ورد في السنَّة أسماء أخرى للقرآن الكريم.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: جـ٢٠، ص٤٩٤.

(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله درَّاز ص١٢-١٣.

الثاني:ـ أن أسماء القرآن وصفاته توقيفية، لا نسمِّيه ولا نصفه إلاَّ بما جاء في الكتاب أو في السنَّة النبويَّة الشريفة، فإن قلت: أرأيت تسميته بالمصحف، هل وردت في الكتاب أو السنة، قلت: أن المصحف ليس اسمًا للقرآن ذاته، وإنما اسم للصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه (المصحف) إلاَّ بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في صحف ضمَّ بعضها إلى بعض فسمِّيت مصحفاً.

ولهذا نرى دقَّة التعبير وصحَّته حين يتحدَّث العلماء عن بيع المصحف، ولم يقل أحد منهم بيع القرآن، فالقرآن كلام الله، أما المصحف فهو من عمل البشر وصناعتهم التي يبتغون بها الرزق.

من خصائص القرآن الكريم:

فضله

ما تقولون في فضل كتاب أنقذ الله به أمَّة من جاهلية جهلاء، وضلالةٍ عمياء، دأبهم السلب والنهب، ومعبودهم الأوثان والحجارة، وديدنهم توارث العداوات والأحقاد، لا تعرف من الحق رسما. نحلتها ما وجدت عليه آباءها وما استحسنته أسلافها من آراء منحرفة، ونحلٍ مُخترعة، ومِللٍ مبتدعة، فأنزل الله عليهم هذا الكتاب فأنقذهم منها به، وانتشلهم به من أوحالها.

ما تقولون في فضلِ كتابٍ ختم الله به الكتب، وأُنزِلَ على نبيٍّ خُتِمَ به الأنبياء، وبِدينٍ خُتِمَت به الأديان.

ما تقولون في فضل كتاب فُتحت به أمصار، وجَثَتْ عنده الرُّكَب، ونَهَل من منهله العلماء، وشَرِب من مشربه الأدباء، وخَشعت لهيمنته الأبصار، وذلَّت له القلوب، وقام بتلاوته العابدون والراكعون والساجدون.

ذلكم القرآن الكريم: (كلية الشريعة، وعمدة الملةِ، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسّك بشيء يخالفه)[1].

(١) الموافقات: الشاطبي: جـ٣، ص٣٤٦.

ذلكم القرآن الكريم: كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناط به كل سعادة، هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

ذلكم القرآن الكريم: حجة الرسول الدامغة، وآيته الكبرى شاهدة برسالته، وناطقة بنبوته.

ذلكم القرآن الكريم: كتاب الإسلامْ في عقائده وعباداته، وحُكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه وأخباره، وهدايته ودلالته.

ذلكم القرآن الكريم: أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلاّ هالك.

لست أريد هنا أن أستقصي فضله، وإذاً لو فعلت لما استطعت، ولو استطعت ما اتَّسعت لذلك صحف الأرض كلّها، ولفنيت الأقلام دونه، تعجز العقول ولو اجتمعت عن الإحاطة بذلك، فتكتفي منه بما يقوم بأودها كما يكتفي الرضيع ويشبع من بضع رضعات.

فضل القرآن ومكانته لا يدانيه فضل، ولا تسمو إليه مكانة، فضائل عامة، وفضائل خاصة لبعض سوره وآياته، أكتفي هنا بذكر ومضات من هذه ومن تلك عَلَّ فيها المراد.

فضائل القرآن الكريم العامة:

أما فضائله عامة، فقد وردت في آيات عديدة وأحاديث كثيرة الإشارة إلى ذلك،

فمن القرآن ننهل أصدق الأوصاف لفضله، وأوفاها لحقِّه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتَّقين**﴾[1]، وهي أول جملة بعد

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢.

الفاتحة يقرأها المسلم في القرآن، ولكَ أن تسيح في استكناه المُراد بذلك.

ومن فضل القرآن في القرآن: أن عدّ إنزاله في شهرٍ مزيةً كبرى لهذا الشهر، فما ظنّكم بالمُنَزَّل نفسه، قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هُدىً للنّاس وبيِّناتٍ من الهُدى والفُرقان﴾[1].

وعلَّق الرحمة عند تلاوة القرآن بالاستماع إليه: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلَّكم ترحمون﴾[2].

ووصفه بالعظمة: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾[3]، وبالهداية: ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[4].

وأقسم الله به: ﴿والقرآن الحكيم، إنَّك لمن المرسلين﴾[5]، وأمر بتلاوته: ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن أتلو القرآن﴾[6]، وبتدبُّره: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن﴾[7]، وذمَّ الذين لا يسجدون عند تلاوته: ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾[8]، وشهد له بالسلامة من العوج: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾[9]، ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾[10].

بل إنه لكثرة فضائل القرآن تعددت أسماؤه وصفاته، وورد في القرآن كثير من ذلك، وسبق الحديث عن ذلك[11].

---

(١) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٢) سورة الأعراف: من الآية ٢٠٤.

(٣) سورة الحجر: من الآية ٨٧.

(٤) سورة الإسراء: من الآية ٩.

(٥) سورة يس: الآية ٢-٣.

(٦) سورة النمل: من الآية ٩٢.

(٧) سورة محمد: من الآية ٢٤.

(٨) سورة الانشقاق: الآية ٢١.

(٩) سورة الزمر: الآية ٢٨.

(١٠) سورة الكهف الآية ١.

(١١) انظر ص١٢١ وما بعدها.

فهل رأيتم فضلاً أكبر من هذا، ومنزلةً أعظم من هذه المنزلة، يتبوأ عليها القرآن مستحقاً.

هذا بعض فضل القرآن عند مُنزِّله سبحانه وتعالى، أمَّا فضائله التي جاءت على لسان مُبلِّغه عليه الصلاة والسلام فكثيرة، من أجمعها الحديث الذي رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (أما إنِّي قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق على كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتَّى قالوا: ﴿إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرُّشد﴾[1]، من قال به صُدِّقَ، ومن عَمِلَ به أُجِر، ومن حَكَم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم[2]، وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به، ونجاةً لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخلَق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكلِّ حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول ألم حرف ولكن بألف ولام وميم»[3].

---

(١) سورة الجن: من الآية ١-٢.

(٢) رواه الترمذي (فضائل القرآن، باب ١٤)، جـ٥، ص١٧٢ وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال» وتعقبه ابن كثير في فضائل القرآن ص١١، فقال: «لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظبي عن الحارث الأعور. ثم قال.. وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود» ثم ساق الحديث الآتي.

(٣) رواه الدارمي وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن، وهذا غريب من هذا =

ومالنا والإطناب في فضل القرآن ليكفِنا ـ وحسبنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»[1].

فكما فاض فضل القرآن فعَمَّ الشهر الذي أُنزل فيه فصار أفضل الشهور، والليلة التي أنزل فيها فصارت أفضل الليالي، فقد عَمَّ فضله أيضاً على الناس فصار خيرهم من تعلَّمه وعلَّمه.

هذا غيض من فيض عن فضل القرآن الكريم عامة في الكتاب والسنة، وهناك فضائل خاصة لبعض سوره وآياته، نعرض لها أيضاً بإيجاز.

فضائل خاصة لسور وآيات:

وفي الصحيح من الأحاديث الثابتة في هذا الباب غنىً عن الأحاديث الموضوعة التي اختلقها بعض الوضاعين حسبة يزعمونها، فقد وضع أبو عصمة نوح بن أبي مريم المروزي حديثاً طويلاً في فضل سور القرآن سورة سورة..

وحين سأله بعض العلماء، من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة)[2].

= الوجه، وتعقَّبه ابن كثير فقال: يحتمل ـ والله أعلم ـ أنه يقصد أبا إسحاق الهجري أحد رواة الحديث ـ وهم في رفع هذا الحديث وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر والله أعلم، فضائل القرآن: ابن كثير، ص١٢.

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب ٢١، جـ٦، ص١٠٨، والترمذي، فضائل القرآن، باب ١٥، جـ٥، ص١٧٤، وأبو داود، كتاب الصلاة ـ أبواب الوتر، جـ١، ص٧٠، وابن ماجة: في المقدمة باب ١٦، جـ١، ص٩٢-٩٣، والدارمي كتاب فضائل القرآن، باب ٢، جـ٢، ص٤٣٧.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي ص١٤١.

وقد وقع ورتع بعض أرباب التصوُّف والطُرُق المبتدعة في مثل هذه الأحاديث، ولنا فيما صحَّ عن الرسول ﷺ غنىً عن ذلك، ونذكر من ما صحَّ في فضائل السور والآيات ما يلي:

سورة الفاتحة:

عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنت أصلي فدعاني النبيّ ﷺ فلم أجبه، قلت يا رسول الله: إنِّي كنت أصلي، قال: ألم يقل الله «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم»، ثم قال: ألا أعلِّمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، فأخذ بيدي، فلمَّا أردنا أن نخرج، قلت يا رسول الله: إنَّك قلت ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن، قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته[1].

وما لنا والاسترسال في فضل الفاتحة، فلو لم يرد في فضلها إلَّا قول الرسول ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[2] لكفى، فأي فضلٍ لسورة لا يتمّ عمود الإسلام إلَّا بتلاوتها، وأيُّ فضلٍ لسورة يناجي بها العبد ربّه في اليوم والليلة أكثر من سبع عشرة مرة...

فضل سورة البقرة:

وورد في فضلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٤، ص٢١١، وصحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٣، وسنن أبي داود، حديث رقم ١٤٥٨، والدارمي، جـ٢، ص٤٤٥.

(٢) رواه البخاري جـ١، ص١٨٤، ومسلم، جـ١، ص٢٩٥، وأصحاب السنن، والإمام أحمد وغيرهم.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٣٩، والترمذي حديث ص٢٨٧٧، جـ٥، ص١٥٧.

فضل سورتي البقرة وآل عمران:

روى مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنّهما غَمامتان أو كأنّهما غَيايَتان أو كأنّهما فِرْقَانِ من طيرٍ صَوَّافٌ تحاجَّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»، قال معاوية: بلغني أن البطلة: السَحَرة[1].

فضل قل هو الله أحد:

وقد ورد في فضلها أحاديث صحيحة كثيرة في البخاري ومسلم بأنها تعدل ثلث القرآن، ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن، قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟، قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»[2].

فضل المعوذتين:

ومّما ورد في فضلهما حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل أو أنزلت عليَّ آيات لم ير مثلهنَّ قط: المعوذتين»[3].

وكما وردت أحاديث في فضل سور معينة من القرآن فقد وردت أحاديث في فضل آيات منه فمن ذلك:

فضل آية الكرسي:

وهي أعظم آية في القرآن الكريم فعن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟،

---

(١) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٣.

(٢) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٨.

قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلاَّ هو الحيّ القيّوم، قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر»[1].

فضل الآيتين من آخر سورة البقرة:

عن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[2].

فضل أول سورة الكهف وآخرها:

عن أبي الدرداء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: («من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عُصِم من الدجَّال»، قال شعبة من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف)[3].

وبعد... ما ذكرته كان إشارة سريعة لفضل القرآن الكريم عامة، وفضل سور منه خاصة، وفضل آيات منه مخصوصة، ما أردت أن أستوفي فضل ذلك كله، ولا قصدت أن أجمع الأحاديث في ذلك كلها، ولكني ذكرت من هذا وذاك آيات قرآنية، وأحاديث صحيحة تثبت فضل القرآن الكريم العام والخاص، وأنه فضل لا يدانيه فضل لكلام سواه... فيثبت بهذا أن هذا الفضل من خصائص القرآن الكريم.

---

(١) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٤، ومسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

من خصائص القرآن الكريم:
أنه لا ينسب إلَّا إلى الله تعالى

الأصل في الأقوال أن تنسب إلى قائليها، تلك قضية مسلّمة لا شك فيها. وما جاء به رسول الله ﷺ فليس من عند نفسه، بل هو من عند ربه: **﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلَّا وحيٌ يوحى﴾**[1].

لكن ما بلغه عليه الصلاة والسلام لأمته، إمَّا أن يؤمر بتبليغه بلفظه على أنه قرآن لا يزيد فيه حرفاً، ولا ينقص منه حرفاً، وإما أن يوحى إليه معناه، ويوكل إليه التعبير عنه.

فما كان من الأول فليس للرسول ﷺ منه إلَّا التبليغ، ولا يمنحه هذا حقّ نسبته إليه، فلا ينسب إلَّا لله سبحانه وتعالى.

أما النوع الثاني فإن للرسول ﷺ فوق تبليغه صياغة ألفاظه، وحينئذ فيجوز أن ينسب إلى الله نسبة إنشاء، ويجوز أن ينسب إلى الرسول ﷺ نسبة تبليغ وعبارة، هذا فيما يضيفه الرسول ﷺ إلى ربه أو ما يسمى بالأحاديث القدسيَّة.

وعلى هذا فإن القرآن الكريم هو الذي لا تجوز نسبته لغير الله لأن لفظه ومعناه من عند الله.

قال ابن حجر الهيثمي ـ رحمه الله تعالى ـ، عن الأحاديث القدسية: (وهي ما نُقل إلينا آحاداً عنه ﷺ مع إسناده لها عن ربه فهي من كلامه تعالى، فتضاف إليه وهو الأغلب، ونسبتها إليه حينئذ نسبة إنشاء لأنه المتكلم بها أولاً، وقد تضاف إلى النبي ﷺ لأنه المخبر بها، عن الله تعالى، بخلاف القرآن فإنه لا يضاف إلَّا إليه تعالى فيقال فيه: (قال الله تعالى) وفيها، قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى)[2].

---

(١) سورة النجم: الايتان ٣، ٤.

(٢) فتح المبين لشرح الأربعين: أحمد بن حجر الهيثمي ص٢٠١.

ولعلَّ الحكمة في جواز نسبة الأحاديث القدسية إلى الله تعالى وإلى نبيه محمد ﷺ أنها ليست كالقرآن، ألفاظها ومعانيها من الله، فلا تصح الصلاة بتلاوتها، وينال قارئها ما ينال تالي القرآن من الثواب على كل حرف، ويجوز أن يمسها المُحدِثُ، وتجوز روايتها بالمعنى، وتختلف الروايات فيها، بخلاف القرآن وما إلى ذلك، ولو كان لفظها من الله، لكان لها ما كان للقرآن الكريم.

من خصائص القرآن الكريم:

التعبد بتلاوته

وهي من خصائص القرآن التي لا تكون لسواه، وقد تلتبس هذه الخاصية للقرآن بالخاصية التالية وهي الثواب لقارئه ولمستمعه، والحقّ أنها غير تلك، فالتعبد بتلاوة القرآن أخص من ثواب القراءة، ذلكم أنَّا نقصد بالتعبّد بتلاوته، أنَّ من العبادات الشرعية ما لا يتمّ إلَّا بتلاوة القرآن وهي الصلاة عمود هذا الدين، أما الثواب على التلاوة فيحصل سواء كان في صلاة أو في خارجها، وهذا فرقٌ أحسبه بَيِّناً.

وقد وردت النصوص القرآنية التي تقرن تلاوة القرآن الكريم بالصلاة عمود هذا الدين، قال تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: **﴿يا أيها المزَّمِّل، قم الليلَ إلَّا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زِد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾**[1].

وقال سبحانه: **﴿أقم الصَّلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر، إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً، ومن اللَّيل فتهجَّد به نافلةً لكَ عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً﴾**[2]، وقال سبحانه: **﴿إنَّ الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصَّلاة، وأنفقوا مِمَّا رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تبور﴾**[3].

وقال المفسرون: إنَّ (قرآن الفجر) هو صلاة الصبح[4].

---

(١) سورة المزمّل: الآيات ١-٤.

(٢) سورة الإسراء: الآيتين ٧٨-٧٩.

(٣) سورة فاطر: الآيتين ١٩-٢٠.

(٤) انظر تفسير جامع البيان ـ الطبري جـ١٥، ص٩٤.

فتأمَّل أخي المسلم كيف عبَّر عن الصَّلاة بالقرآن، وما ذاك إلاَّ لأنَّ الصلاة لا تصحّ إلاَّ به، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[1].

وهذا البخاري وغيره يعقد باباً في (وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلّها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت)[2]، بل عدَّ العلماء الفاتحة ركناً من أركان الصلاة لا تصحّ إلاَّ بها، كما جاء في الحديث السابق.

وكذا خطبة الجمعة اشترط بعض العلماء لصحتها قرآءة شيء من القرآن، بل قال ابن قدامة: (قال أصحابنا: ولايكفي في القرآءة أقل من آية، لأن النبي ﷺ لم يقتصر على أقل من ذلك)[3].

وغير ذلك من العبادات التي يشترط أو يسنّ فيها تلاوة شيء من القرآن، والتي لا يقوم فيها مقامه شيء من الكلام سواه، مّما يدلّ على اختصاص القرآن بأنه متعبَّد بتلاوته فيها، فضلاً عن الثواب لقارئه.

فتأمَّلوا أيُّها الأحبَّة فضل القرآن العظيم، ومكانته السامية بين العبادات حتى مازجها وكأنَّه روحها الذي به تصح، وعمادها الذي به تقوم.

من خصائص القرآن الكريم:
الثواب لقارئه ولمستمعه

الواجبات والسنن وعد الله عليها بالثواب، حتى المباحات إذا اقترنت بالنيَّة الصالحة يثاب فاعلها.

وطلب العلم إذا أريد به وجه الله نال صاحبه الأجر العظيم، والثواب

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، جـ١، ص١٨٤، ومسلم، كتاب الصلاة، جـ١، ص٢٩٥. ورواه أيضاً أصحاب السنن الأربعة وأحمد وغيرهم.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب(٩٥) جـ١، ص١٨٣.

(٣) المغني: ابن قدامة، جـ٢، ص٣٠٥-٣٠٦.

الجزيل. لكنَّ تلاوة القرآن وتعلُّمه وتعليمه، واستماعه وتدبّره، وما إلى ذلك يثاب صاحبها فوق ذلك ثواباً خاصاً لا يكون لشيء غيرها.

وأنواع الثواب التي وردت لأولئك التالين للقرآن، أو معلِّميه، أو متعلِّميه، أو مستمعيه، متنوعة متعددة.

منها ما يكون حسنات ترجح بميزان صاحبها يوم القيامة، ومنها ما يكون نوراً وضياءً، ومنها ما يكون حفظاً لنفسه، ولأهله، ولماله في الدنيا، ومنها ما يكون شفيعاً لصاحبه يوم القيامة، ومنها ما يكون سبباً لحماية صاحبها من عذاب النار، وغير ذلك من أنواع الثواب على تلاوة القرآن.

ومنها ما يكون ثواباً لتلاوة القرآن كله، ومنها ما يكون ثواباً على تلاوة سور منه مخصوصة، ومنها ما يكون ثواباً على آيات منه معينة، ومنها ما يكون خاصاً بالمداومين على القرآن وأهله وخاصته وحملته.

الاجتماع لتلاوته:

ومن أجمع الأحاديث التي وردت في بيان ثواب من اجتمع لتلاوة القرآن الكريم وتدارسه، حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «وما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

فجمع هذا الحديث أربعة أنواع من ثواب تلاوة القرآن ومدارسته:

(١) تنزل عليهم السكينة.

(٢) تغشاهم الرحمة.

(٣) تحفّهم الملائكة.

(٤) يذكرهم الله فيمن عنده.

---

(١) رواه مسلم جـ٤، ص٢٠٧٤، كتاب الذكر.

فمن منَّا لا يحرص على واحدة منها، فضلاً عن مجموعها، كيف وقد اجتمعت كلها في عمل واحد ميسَّر.

فضائل التلاوة:

قال تعـالى: ﴿**إنَّ الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصَّلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، يرجون تجارةً لن تبور، ليوفِّيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، إنَّه غفور شكور**﴾[1]، وآيات أخرى كثيرة تندب لتلاوة القرآن، وتحثّ عليه وتبيِّن فضل التلاوة.

وفي السنّة ورد حديث في ثواب تلاوة القرآن الكريم لو لم يرد فيها إلاَّ هو لكفى به داعياً للتنافس بين المسلمين في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، لولا ما ران على القلوب. ذلكم ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الٓم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[2].

خذ المصحف بيدك واقرأ خمس دقائق، ثم احسب إن شئت عدد الأحرف واضربها بعشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، ثم انظر إلى ذلك الرقم الهائل للحسنات التي يظفر بها القارىء في هذا الزمن اليسير!! ترى لو ضاعف الخمس إلى عشر دقائق، أو لو شغل أحدنا وقت فراغه ذلك الوقت الذي يمضيه كثير منَّا هدراً إن لم يشغلـه فيما يضرّه، لو شغل أحدنا هذا الوقت بتلاوة القرآن وتدبّره، فكم من الحسنات سينالها؟!، سبحانك ربي إنَّ هذا لفضل ما بعده فضل، وتقصيرٌ منَّا، أو من أكثرنا وأي تقصير.

وخذوا حديثاً آخر في ثواب تالي القرآن، الحديث الذي رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن

(١) سورة فاطر: الأيتان ٢٩-٣٠.

(٢) الترمذي: جـ٥، ص١٧٥، كتاب الفضائل، باب ١٦.

يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم، ولا قطع رحم، فقلنا: يا رسول الله نحبّ ذلك قال: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيَعلَم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عزَّ وجلّ خيرٌ له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[1].

وخذوا حديثاً ثالثاً عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: إقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[2].

بربِّكم، لو تخيَّل - حقَّ التخيُّل - كلُّ واحد منَّا هذا الموقف وتمثَّل نفسه واقفاً هناك، يقال له هذا القول، هل يسعه الآن أن يفرِّط في تلاوة القرآن؟!.

وفوق هذا فإن القرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[3].

هذا بعض ما ورد في ثواب تلاوة القرآن الكريم، وهناك أحاديث كثيرة في ثواب تلاوة سور معينة، أو آيات معينة، سواء في أوقات خاصة، أو في غير ذلك، وليس المقام مقام استيفاء لهذه الأحاديث فالتمسوها في مواطنها، وإنما المقام هنا مقام إثبات لثواب تلاوة القرآن وأنه ثوابٌ خاص بالقرآن لايماثله الثواب في تلاوة غيره ولا يدانيه.

ثواب استماعه:

قد يخطر ببال أحد أن تشريع الاستماع إلى القرآن الكريم كان لضرورة مرَّت بها الأمة، وهي قلَّة القرَّاء، وفشو الأميَّة، مُما جعل الحاجة ماسَّة إلى أن يُسمع

---

(١) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٣، كتاب صلاة المسافرين.

(٢) رواه الترمذي، جـ٥، ص١٧٧، وأبو داود، جـ٦، ص٧٣، حديث ١٤٦٣، ومسند أحمد، جـ٢، ص١٩٢، وابن ماجة، حديث ٣٧٨٠.

(٣) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٣، كتاب صلاة المسافرين.

القرآءُ الأميِّين القرآنَ الكريم.

وهذا خطأ جسيم بعيد عن الصواب، والشواهد كلها تبطله، فقد ثبت في السنة أنَّ الرسول ﷺ، كان يحب أن يسمع القرآن من غيره[1].

والصَّلاة قسمت قسمين: سريَّة، وجهرية، أما الأولى: فالكلّ يقرأ لنفسه فيها:ـ الإمام والمأمومون. أما الجهرية فالإمام هو القارىء والجماعة يستمعون فدلَّ على أنَّ الاستماع مقصود، وتأثير الاستماع إلى القرآن لا ينكر، وقد سبقت الإشارة إليه[2]، فقد وصف الله طائفة بـ **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحقّ﴾**[3]، حتى الجن يتأثرون بالسماع: **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلمَّا حضروه قالوا أنصتوا، فلمَّا قضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾**[4]، ولما للاستماع من تأثير فقد ورد في الكتاب والسنّة الوعدُ بالإثابة عليه.

ويكفي من القرآن قوله تعالى: **﴿وإذا قريء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون﴾**[5]، وتدبَّر معي لماذا قال: فاستمعوا، ولم يقل: فاسمعوا؟.

ذلكم أن الاستماع هو الإصغاء، وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل. والإنصات: الاستماع مع ترك الكلام، فهذا مؤكد لِـ (فاستمعوا) مع زيادة معنى، ويجوز أن يكون الاستماع مستعملاً في معناه المجازي وهو الامتثال للعمل بما فيه كما في قوله تعالى: **﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾**[6]، أي لا يمتثلون، ويكون الإنصات جامعاً لمعنى الإصغاء، وترك اللغو[7].

---

(١) انظر حديث ابن مسعود رضي الله عنه ص١٠٦-١٠٧.

(٢) في خاصية (تأثيره في النفوس).

(٣) سورة المائدة: من الآية ٨٣.

(٤) سورة الأحقاف: من الآية ٢٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٦) سورة الأعراف: من الآية ١٩٨.

(٧) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، جـ٩، ص٢٣٩، بتصرف.

وتبقى دلالة الآية في كلا الحالين واضحة بيِّنة على فضل الاستماع إلى القرآن، حتَّى قال الليث بن سعد ـ رحمه الله تعالى ـ، يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى: ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلَّكم ترحمون**﴾[1]، ولعلَّ من الله واجبة[2].

ومِمَّا ورد في ثواب استماع القرآن الكريم في السنة النبوية حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى، كتب له حسنة مضاعفةً، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»[3]

ولا شكَّ أن هذا الثواب الجزيل، والأجر العظيم لدارس القرآن، وتاليه، ومستمعه، أنه خاص بالقرآن لا يدانيه ثواب تلاوة أو استماع لغيره، فأي كلام ينال تاليه بالحرف الواحد عشر حسنات وأكثر غير القرآن؟!.

من خصائص القرآن الكريم:
لا يمسه إلَّا المطهَّرون

حقٌّ لكتابٍ أنزله الله سبحانه وتعالى بواسطة ملَكٍ هو أفضل الملائكة، على أفضل الأنبياء، لخير أمَّةٍ أخرجت للناس فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ذلة الشرك إلى عزَّة الإسلام، حقٌّ له أن يتبوَّأ عندهم منزلةً سامية، وأن يحترموه، وأن يحترموا لقاءه بحسن الاستعداد والتهيؤ وحسن الحضور عند تلاوته.

وهكذا هو سمت المسلمين مع القرآن الكريم، يحرصون على الطهارة عند تلاوته بكل أبعادها وزواياها.

طهارة البدن.. طهارة المكان.. طهارة اللباس.. طهارة الفم.. وفوق هذا كله.. طهارة القلب ونقاؤه من الشرك والشك والريب.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي ص٧٩.

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ٢، ص٣٤١.

أمّا طهارة البدن،

فاتّفق العلماء رحمهم الله تعالى على أنّ الجُنُب لا يجوز له مسّ المصحف أو القرآءة للقرآن.

أمّا اشتراط الوضوء فقد استدلّ بعضهم بقوله تعالى: ﴿إنّه لقرآن كريم، في كتابٍ مكنون، لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾[1].

وبحديث عمرو بن حزم أن النبي ﷺ كَتب إلى أهل اليمن كتاباً وفيه: «لا يمس القرآن إلّا طاهر»[2]، ولم يشترط بعض العلماء الطهارة من الحدث الأصغر عند قرآءة القرآن، لكن هؤلاء وهؤلاء اتّفقوا على أن الأفضل والأولى هو الطهارةُ من الحدث الأصغر أيضاً.

ولمنزلة القرآن العظمى ومكانته السامية فقد اشترط العلماء أيضاً طهارة المكان، فلا يجوز أن يقرأ القرآن في الأماكن النجسة سوآء كانت نجاسة حسيَّة كالحمّامات ونحوها، أو نجاسة معنوية كالملاهي، وحانات الخمور والفسق والفجور.

وممّا يتعلّق بالطهارة أيضاً طهارة اللباس والتطيّب عند تلاوة القرآن، فقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تعجبه الثياب الحسنة النظيفة والريح الطيب إذا قام إلى الصلاة، وكان رضي الله عنه إذا قرأ إعتمَّ ولبس ثيابه، وارتدى، واستقبل القبلة، وكان رسول الله ﷺ إذا قام بالليل يتهجّد اغتلف بالغالية[3]،[4].

---

(١) سورة الواقعة: الآيات ٧٧-٧٩.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، جـ٣، ص٢٣٠، والدار قطني، جـ١، ص١٢١-١٢٢، والبيهقي في السنن الكبرى، جـ١، ص٨٨، والحاكم في المستدرك، جـ٣، ص٤٨٥، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٣) الغالية ـ أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.

(٤) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي: ١٠٨.

حتَّى طهارة الفم حرص الإسلام عليها عند تلاوة القرآن، فقد روى البزار عن علي رضي الله عنه حديثاً عن الرسول ﷺ وفيه: «فطهِّروا أفواهكم للقرآن»[1]، وروى ابن ماجة عن علي رضي الله عنه قال: «إنَّ أفواهكم طرق للقرآن فطيِّبوها بالسواك»[2].

وضرب الرسول ﷺ المثل بنفسه، فصحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه كان: (إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك)[3].

كلُّ هذا بعض حق القرآن على الأمة، وليس هو بحقٍّ لكتاب سواه..

من خصائص القرآن الكريم:

حُرمة ورقه وحروفه..

وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنَّه في كتابٍ مكنون فقال عزَّ شأنه: ﴿**إنَّه لقرآن كريم في كتاب مكنون**﴾[4]، قال القرطبي رحمه الله: أي (مصون عند الله تعالى)[5].

وجاء وصف القرآن كما قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿**كلَّا إنَّها تذكرة، فمن شاء ذكره، في صحفٍ مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهَّرة، بأيدي سفرة، كرامٍ بررة**﴾[6].

وجاء وصف القرآن في قوله تعالى: ﴿**بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ**﴾[7]، فإذا كان القرآن في السماء مصوناً، وصحفه (مكرَّمة)، و(مرفوعة)، و(مطهَّرة)، و(بأيدي سفرة، كرام، بررة)، وفي (لوح)، (محفوظ)، إذا كان ذلك وهو في

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، جـ١، ص٢٤٢.

(٢) ابن ماجه، جـ١، ص١٢٥.

(٣) صحيح البخاري، جـ١، ص٦٦، وصحيح مسلم: جـ١، ص٢٢١.

(٤) سورة الواقعة: الأيتان ٧٧-٧٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: جـ١٧، ص٢٢٤.

(٦) سورة عبس: الآيات ١١-١٦.

(٧) سورة البروج: الأيتان ٢١-٢٢.

السماء، فإن من حقه أن يُصان، ويُحفظ، ويُرفع، ويُكرم، ويُطهر في الأرض، فلا يتّصل به إلاّ طاهر من يد أو ورق أو حبر أو جلد أو صندوق أو دار، فله حرمته، وله مكانته التي يجب أن تراعى.

وإذا كان مسّ القرآن لا يجوز إلاّ لطاهر لقوله تعالى: ﴿لا يمسّه إلاّ المطهّرون﴾[1]، وقول الرسول ﷺ: «لا يمس القرآن إلاّ طاهر»[2]، فكيف بما هو أبلغ من المس بما يتّصل بالقرآن.

لذلك فإنَّ للقرآن حرمته، فلا تدنس أوراقه، ولا تبتذل ولا تُهان حروفه وكتابته، وتكريمها ورفعها وتطهيرها وصيانتها، وحفظها له صور كما أن إهانتها لها صور أيضاً.

فيجب أن يكتب القرآن على ورق طاهر بمداد طاهر، وأن يُجَلَّدَ بجِلْدٍ طاهر، ويحفظ في مكان طاهر. وينبغي لمن أراد مسَّ المصحف أن يتطهَّر من الحدثين الأكبر والأصغر، ولا بد من طهارةِ المكان فلا يقرأ القرآن في الأماكن النجسة حساً كالحمّامات ودورات المياه، ولا النجسة معنىً كأماكن اللهو والفجور. وطهارة اللباس، فينبغي أن يكون لباسه نظيفاً طاهراً، وكذا طهارةُ الرائحة فلا يخرج من جسده رائحة خبيثة من عرقٍ ونحوه، بل يتطيَّب للتلاوة. وطهارةُ الفم فيشوص فاه بالسواك، ويتخلَّل قبل التلاوة، ويبتعد عن أكل الثوم والبصل والدخان ونحو ذلك، وطهارةُ الجهة، فيتجه إلى القبلة حيث يوجِّه الإنسان عمله الصالح كالصَّلاة والأذان والدّعاء والذبائح، فينبغي أن يتجه في قرآءته إلى القبلة، وطهارةُ القلب، فلا يقرأ القرآن وفي قلبه غير الله سبحانه وتعالى كالمرآءآة بالتِلاوة، وطهارةُ اللسان بأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يستعين باسم الله الرحمن الرحيم.

فإذا جمع هذه الأنواع من الطهارة فقد أدى حق: (لا يمسه إلاّ المطهَّرون)، وأدّى حق: (في صحفٍ مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهَّرة)، فليمس بعد ذلك ورقه وحروفه.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ ص٩٨، الأمر بالوضوء لمن مس القرآن والدارمي في سننه كتاب الطلاق، باب ٣ جـ٢، ص١٦١.

وليحذر كل الحذر من امتهان القرآن الكريم أو شيء منه، فإنّ لامتهان ورقه وحروفه صوراً كثيرة قد تخفى أو بعضها على بعض الناس.

وقد أجمل القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ صوراً من حرمة القرآن التي يجب أن تراعى، فقال: (ومن حرمته إذا وضع المصحف أن لا يتركه منشوراً، وألاّ يضع فوقه شيئاً من الكتب، حتّى يكون أبداً عالياً لسائر الكتب علماً كان أو غيره، ومن حرمته أن يضعه في حجره إذا قرأه، أو على شيء بين يديه، ولا يضعه على الأرض. ومن حرمته ألاّ يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء... إلى أن قال: (ومن حرمته أن لا يتوسَّد المصحف، ولا يعتمد عليه، ولا يرمي به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله.. ومن حرمته أن لا يكتب على الأرض..)[1].

وقال رحمه الله تعالى: (وقد وصفه الله بأنه في كتاب مكنون، لا يمسه إلاّ المطهَّرون، فإذا كان فوق السموات مكنوناً محفوظاً، وليس هناك إلاّ الملائكة المطهَّرون، فلأن يكون فيما بيننا مكنوناً محفوظاً أولى، ألا ترى أنه منهيٌّ أن يمسه إلاّ طاهر، فأولى أن ينهى أن يعرِّضه للإهانة أو يغفل عنه، فيصيبه غبار البيت إذا كُنِسَ، أو الدخان، أو يعمل عليه حسابه، أو مفتاح حانوته، إلاّ أن يكون مصحفان فيوضع أحدهما فوق الآخر فيجوز)[2].

قلت بقي هنا مسألتان هامَّتان:

(المسألة الأولى):

عن الأوراق البالية والمتمزقة، من المصحف التي كثيراً ما نراها في مساجدنا ونراها في مصاحف أبنائنا في نهاية كل عام دراسي، ماذا يفعل بها؟.

درج بعض الناس ـ جزاهم الله خيراً ـ على وضع الورقة البالية من المصحف في شقوق بعض الجدران، خاصة القديمة، وقد أنكر بعض العلماء ذلك فقال الزركشي: (فلا يجوز وضعه في شقّ أو غيره ليحفظ لأنه قد يسقط ويوطأ)[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٢٨-٣٠.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي ص١١٢-١١٣.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٧٧.

وإذا كان لا يجوز ذلك كما قال الزركشي فإنَّ العلماء اختلفوا في الحكم على ثلاثة أقوال:ـ

منهم من قال بالدفن، ومنهم من قال بالحرق، ومنهم من قال بالمحو بالماء، أمَّا هذا الأخير: محوها بالماء فمناسب للمصاحف المخطوطة، أما المصاحف الآن فحبرها ثابت لا يزيله الماء، فلم يبق إلَّا إحراقها حفظاً لها وصيانةً أو دفنها في مكان طاهر.

وقد مال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ إلى الدفن، فقال: (أما المصحف العتيق، والذي تخرّق وصار بحيث لا ينتفع به بالقرآءة فيه، فإنَّه يدفن في مكان يصان فيه، كما أن كرامة بدن المؤمن دفنه في موضعٍ يصان فيه)[1].

وروى الزركشي عن الحليمي قوله: (وإن أحرقها بالنار، فلا بأس أحرق عثمان مصاحف فيها آيات وقرآءات منسوخة، ولم ينكر عليه، وذكر غيره، أن الإحراق أولى من الغسل، لأن الغسالة قد تقع على الأرض، وجزم القاضي حسين في تعليقه بامتناع الإحراق، وأنه خلاف الاحترام، والنووي بالكراهة، فحصل ثلاثة أوجه، وفي «الواقعات» من كتب الحنفية، أن المصحف إذا بلي لا يحرق بل تحفر له في الأرض، ويدفن، ونقل عن الإمام أحمد أيضاً وقد يتوقف فيه لتعرضه للوطء بالأقدام)[2].

قلت والتفصيل أولى، فإنْ دَفَنَها في مكان ناءٍ جداً عن العمران يأمن فيه خروجها بسيل أو ريح، فالدفن أفضل، وإن كان الدفن في مكان قريب من العمران أو في مجرى سيل أو لم يأمن خروجه بالريح، فإن الإحراق أفضل، وليس في هذا إهانة، بل تكريم لها بحفظها.

(المسألة الثانية):

كتابة الآيات القرآنية على الجدران، أو على الألواح، أو الأوراق، أو الأقمشة، وتعليقها في المجالس، أو المكاتب ونحو ذلك، وقد أنكر هذا بعض العلماء ولم ير به آخرون بأساً.

---

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٢، ص٥٩٩.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٧٧.

وينبغي التفصيل هنا أيضاً وربط الحكم بأثر هذا التعليق، فإن كان تعليقها في مكان غير طاهر، أو في أماكن لهو، أو فسق، أو فجور، فلا يجوز، وكذا لا ينبغي وضع مثل هذه الآيات في قبلة المصلين في المساجد فقد تؤدي إلى شَغْل بعض المصلين بتلاوتها، أو التأمل في نقشها. وإن كان تعليقها في مكان طاهر، نظيف، شريف يذكِّر أصحابه إن غفلوا ويعلِّمهم إن ذكروا، زينةً للمجالس وحفظاً لأصحابها عن ساقط القول. أو تعليمهم لأدب من آداب المجالس في فسحها للآخرين، أو تذكير لشكر نعمة، أو تذكير بصاحب النعمة، أو برد التحية بمثلها، أو بأحسن منها، أو أمر بالصلاة، أو إرشاد إلى معروف، أو نهي عن منكر، أو دعاء صالح يردده المسلم، ونحو ذلك، فلا أرى بأساً في تعليقه. وقد سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله تعالى عن حكم تعليق بعض الآيات القرآنية في المكاتب، فقال: (أمَّا تعليق الآيات والأحاديث في المكاتب للتذكير فلا نعلم بأساً بذلك والله ولي التوفيق)[1].

من خصائص القرآن الكريم:

النهي عن السفر به إلى أرض الكفار

لما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسافر بالقرآن إلى أرض العدو»[2] قال ابن عبد البر: - «أجمع الفقهاء أن لا يسافر بالمصحف في السرايا والعسكر الصغير المخوف عليه، واختلفوا في الكبير المأمون عليه واستدل به على منع بيع المصحف من الكافر . . . ولا خلاف في تحريم ذلك»[3] قلت: ولا أعلم شيئاً نُهي عن السفر به إلى أرض الكفار غير القرآن الكريم.

---

(١) مجلة الدعوة: العدد ١٠١٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد باب ١٢٩ جـ ٤ ص١٥ وصحيح مسلم كتاب الإمارة باب ٢٤ ص١٤٩٠.

(٣) فتح الباري: ابن حجر: جـ٦ ص١٣٤.

من خصائص القرآن الكريم:
الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند تلاوته

للمسلم عدوَّان، عدوٌّ إنسي، وعدوٌّ شيطاني، أمَّا الأول فعداوته ناشئة لا تضرب جذورها إلى آماد طويلة، وعهدنا بقصير الجذور أنه يسهل اقتلاعه فعليك أن تدفع مثل هذا العدو بالتي هي أحسن، فإذا به كأنه وليٌّ حميم، قال تعالى: **﴿ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم﴾**[1].

أما العدو الآخر، العدوُّ الشيطاني، فعداوته قديمة قدم الإنسان، ومنذ أن خلق الله آدم عليه السلام، وأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلَّا إبليس أبى فصار عدواً. إذاً فعداوة الشيطان راسخة الجذور، ومثل هذا العدو لا يقبل مصانعة ولا يؤثر فيه إحسان، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، وإضلاله، وبُعده عن الصراط المستقيم، ولهذا لم يأمرنا القرآن بما أمرنا به هناك مع العدو الإنسي من دفعه بالتي هي أحسن بل أمرنا بالاستعاذة بالله من نزغاته: **﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه هو السميع العليم﴾**[2].

هذا المعنى الذي أشرت إليه من التفريق بين عداوة الإنسي وعداوة الشيطان، ورد في ثلاث آيات من القرآن ليس لها رابعة في معناها، كما قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ، وتأمل معي هذه الآيات.

الأولى: قوله تعالى: **﴿خذ العفو وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين، وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾**[3].

الثانية: قوله تعالى: **﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون، وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾**[4].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٢) سورة فصلت: من الآية ٣٦.

(٣) سورة الأعراف: الآيتين ١٩٩-٢٠٠.

(٤) سورة المؤمنون: الآيات ٩٦-٩٨.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم، وما يلقَّاها إلاَّ الذين صبروا، وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم، وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه هو السميع العليم﴾[1].

إذاً فالعداوة بين المسلم والشيطان عداوة نشأت منذ أن خُلِقَ الإنسان، وهي قائمة إلى أن يموت لا انفكاك لها ولا انقطاع.

وما دام الأمر كذلك فلا يزال الشيطان ينزغ الإنسان، ويعده، ويمنيه، ويخوفه، ويوسوس في صدره، ويسعى لزلله، ويضله، ويكيد له، ويزين له سوء عمله، وينسيه ذكر الله، ويفتنه، ويتتبعه، ويطوف به، ويخذله، وينصب له، ويعذبه، ويصده عن الخير، ويسول له، ويستحوذ عليه، ويستهويه، ويوحي إليه الباطل، ويــؤزّه أزاً، ويهمزه همزاً، كل هذا من مكائد الشيطان للإنسان كما جاءت في آيات القرآن الكريم.

وحين يسعى الشيطان لهذه المآرب في الإنسان، فإنه أحرص ما يكون وأشد ما يتسلط على الإنسان، حين يهم بعمل الخير، أو الإقبال عليه، فإن الشيطان حينئذ يستنفر قواته وأعوانه لصدِّه عن ذلك الخير، وقد يضعف الإنسان بنفسه عن صدِّ هذه القوة، فلا بد له من قوة أكبر من كل قوة، ولا بد له من معيذ يلجأ إليه، ويلتصق بجنابه، ولذا شرع الله الاستعاذة به من الشيطان الرجيم.

ومن أفضل العبادات القولية التي يحرص الشيطان على أن يصرف عنها المسلم أو يشغل ذهنه عنهـا، ويستولي على قلبه، فلا يتدبر ما يقول هي تلاوة القرآن الكريم، ونظراً لمكانة هذه العبادة الكبرى، ولمنزلة التدبر العظمى، فقد أمر الله تعالى بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند التلاوة، فقال عزَّ شأنه: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنَّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون، إنَّما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[2].

---

(١) سورة فصلت: الآيات ٣٤-٣٦.
(٢) سورة النحل: الآيات ٩٨-١٠٠.

والشيطان لا يزال يدأب في هذا المسعى الخبيث، لا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً، حتى الأنبياء، يحرص الشيطان على أن يلقي في أمنيتهم عند التلاوة، قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي إلاَّ إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾**[1]، فهذه عادة للشيطان إثر ما يتلوه كل نبي على أمته من الأحكام المتجددة التي يوحي بها لسعادة البشر، إنه يُحَوِّل عنها الأنظار، ويسعى لهدم ما أقيمت لأجله وإن الله يحكم آياته، وينسخ شبه الشيطان، ليحق الحق، ويبطل الباطل، فلما كانت هذه عادته ولها من الأثر ما لها، احتيج إلى الاستعاذة به تعالى منها عند قرآءة الوحي ونشر تعاليمه[2].

وقد بيَّن الإمام الرازي في تفسيره الحكمة من اختصاص قرآءة القرآن بالاستعاذة فقال: (أن سر الاستعاذة هو الالتجاء إلى قادر يدفع الآفات عنك، ثم أن أَجَلَّ الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قرآءة القرآن، لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن، وتفكَّر في وعده ووعيده، وآياته وبيِّناته، ازدادت رغبته في الطاعات، ورهبته عن المحرمات، فلهذا السبب صارت قرآءة القرآن من أعظم الطاعات، فلا جرم أن كان سعي الشيطان في الصد عنه أبلغ وكان احتياج العبد إلى مَنْ يصونه عن شرِّ الشيطان أشد، فلهذه الحكمة اختصت قرآءة القرآن بالاستعاذة)[3].

ومع الاستعاذة انعقد الإجماع على مشروعية البسملة عند تلاوة كل سورة من سور القرآن الكريم سوى برآءة، بل عَدَّ بعض العلماء البسملة آية من كل سورة ما عدا برآءة، وهي بعض آية قطعاً من سورة النمل.

ومعنى البسملة كما وضَّحه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله

---

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) محاسن التأويل: جمال الدين القاسمي، جـ١٠، ص٣٨٥٧.

(٣) التفسير الكبير: الفخر الرازي، جـ١، ص٩١.

تعالى ـ، هو: (أدخل في هذا الأمر: من قرآءة، أو دعاء، أو غير ذلك (بسم الله) لا بِحولي ولا بقوتي، بل أفعل هذا الأمر مستعيناً بالله، متبركاً باسمه تبارك وتعالى، هذا في كل أمر تسمي في أوله من أمر الدين، وأمر الدنيا، فإذا أحضرت في نفسك أن دخولك في القرآءة بالله مستعيناً به متبرئاً من الحول والقوة، كان هذا أكبر الأسباب في حضور القلب وطرد الموانع من كل خير)[1].

ولعلَّ الحكمة في الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند التلاوة، أن الاستعاذة طلب دفع شر، وأن البسملة طلب جلب خير، والمسلم حين يشرع في القرآءة للقرآن الكريم، بحاجة إلى الأمرين، هو بحاجة إلى دفع تعلق القلب بغير الله، وانصرافه عن القرآن، واستيلاء الشيطان عليه، وهو بحاجة إلى التأثر بالقرآن، والتدبّر لآياته، والتوفيق للعمل بها، والثبات عليها، فالاستعاذة دفع مضار، والبسملة جلب مصالح، وكلاهما يحتاجه المسلم عند تلاوة القرآن الكريم.

والجمع بين الاستعاذة والبسملة عند تلاوة القرآن من خصائصه التي لا تشاركه فيها العبادات الأخرى فلا أعرف عبادة يشرع فيها ذلك غير تلاوة القرآن الكريم[2].

---

(١) تفسير الفاتحة: شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ص ٣٧ .

(٢) لابن القيم رحمه الله تعالى كلام نفيس بَيَّنَ فيه فوائد عديدة للاستعاذة عند تلاوة القرآن الكريم ذكره في كتابه (إغاثة اللهفان) جـ١ ص ١٠٩ - ١١٢ .

من خصائص القرآن الكريم:
حرمة تفسيره بمجرد الرأي . .

حين أنـزل الله سبحانـه وتعـالى القـرآن على هذه الأمة جعل فيه الشفاء لأمراضها، والدواء لأسقامها، فطهرت وبرئت، ودبَّت فيها الحياة، كما تدب في أرض جرداء، إذ نزل عليها الغيث، فاهتزَّت وربَت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج.

أقبلت هذه الأمة على القرآن تنهل من معينه الذي لا ينضب، وتَعُبُّ من نُقَاخِهِ الذي لا ينفد، يتلونه حقَّ تلاوته، ويقومون به آناء الليل، وأطراف النهار، وجدوا فيه الشفاء كلَّ الشفاء، والنقاء كلَّ النقاء. . .

وحين أنزل الله القرآن الكريم على هذه الأمة لم يجعله خاصاً بها دون سائر الأمم، ولم يجعله لعصر دون عصر، بل هو للعالمين في كلِّ مكان، وفي كلِّ زمان، وفي كلِّ شأن من شؤونهم.

﴿وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إن هو إلاَّ ذكرٌ للعالمين﴾[2]، والقرآن أوسع من أن يحدَّد بزمان أو يقصر على مكان، فقد امتدت رسالته زمناً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت مكاناً حتى انتظمت الأرض كلها، وامتدت عمقاً حتى استوعبت أمور الدنيا والآخرة.

فلا عجب أن نزل القرآن على أمة جاهلية فوجدت فيه شفاءها، ولا عجب أن يكون فيه الشفاء لكلِّ أمة في كل عصر. . في كل مكان، ولكل داء وهو هو القرآن نفسه، ذلكم أنه أنزل من حكيم عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

علم بما سيكون من الناس إلى يوم القيامة، وهو أعلم بدواء كل داء، فجعله في هذا القرآن وأنزله للناس كافة.

فإن لم يؤثر في أمّة من الأمم كما أثَّر في الأمة الأولى، فليس ذلك إلاَّ لخلل في التطبيق، وخلل في الالتزام، فليُعِد أهل الرأي منهم النظر ولينقبوا عن العلة

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٩. (٢) سورة التكوير: الآية ٢٧.

في قومهم، وليبحثوا عن منهج آخر في استخراج الدواء، وليثقوا كلَّ الثقة أن شفاءهم في القرآن، وعلاج أمتهم في آياته، فلو كان القرآن خاصاً بعلاج الجاهلية الأولى، لا علاج فيه لغيرها، لاقتضت الحكمة أن يرفع بزوالها، وما دام لم يرفع، بل جعل للناس كافة، فإن الحكمة تقتضي أن يكون فيه الشفاء لكل المجتمعات في كل الأزمنة، وكل أمة مكلفة بأن تستخرج من كنوز القرآن ما استطاعت وأن تفهم القرآن حقَّ الفهم، ولو لم يكن في الأمر سعة، أو كانت مدلولات الألفاظ القرآنية محدودة لاكتفت الأمة بتفسير واحد يفسِّر لها القرآن، وبعالم واحد يستخرج لها الأحكام.

ولكن الأمر جد يختلف، فمعانيه من السعة بحيث لا يستطيع مفسر أن يحيط بها، وفي أحكامه من الشمول بحيث لا يستطيع عالم أن يستوعبها، وهنا سرّ عموميَّة القرآن، وشموليَّة الرسالة، حيث يفهم أهل كل عصر من القرآن الكريم ما تقوم به حياتهم، ويجلو لهم ظلمات مجتمعهم، وينير لهم السبيل.

وليس لهذا الفهم الذي نشير إليه أن ينطلق كيف شاء في الأفق، بل عليه أن يلتزم طريقاً واضحاً حتى لا تلتبس عليه الأمور أو يتخبَّط في الظلمات، أو يشطح به الفكر، أو تبعد به النجعة، فهو مهما أوتي من قوة محـدود الطاقات والملكات، لا يستطيع أن يدرك كل الحقائق.

والذي وضع الشفاء كلَّ الشفاء في القرآن أرشد نبيه ﷺ إلى الطريق السليم لاستخراجه، وإدراكه، وبغير هذا الطريق وهذا المنهج لا يدرك الدواء.

إن شئتم، خلاصة الأمر ولبّه، قلت لكم في كلمات: أن هذا السبيل هو إعمال العقل مع الاستناد إلى الشرع.

أما التفصيل، فإن التفسير بالرأي لا بد أن يعتضد بدليل شرعي، وبغيره لا يقبـل، فقـد ورد ذم القـول بغـير علم ولا دليل، في الكتاب وفي السنة، ففي الكتاب: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علمٌ﴾**(1)، وقال سبحانه: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾**(2).

---

(1) سورة الإسراء: من الآية ٣٦. (2) سورة البقرة: من الآية ١٦٩.

وفي السنّة: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار»[1]، وفي رواية: «من قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار»[2]، بل ورد ذم من قال في القرآن برأيه حتى وإن أصاب ففي الحديث: «من تكلّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[3]، قال الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن ساق هذه الأحاديث: (وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلاّ بنصِّ بيان رسول الله ﷺ، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه، وإن أصاب الحق فيه، فمخطىء فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابة موقنٍ أنّه محق، وإنما هو أصابه خارص، وظان، والقائل في دين الله بالظن، قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرَّم الله، جلَّ ثناؤه، ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿قُلْ إنّما حَرَّمَ ربِّيَ الفواحش ما ظَهر منها وما بَطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[4].

فالقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلاّ ببيان رسول الله ﷺ الذي جعل الله إليه بيانه، قائل بما لا يَعلم وإن وافق قيله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه، لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به)[5].

---

(١) رواه الترمذي جـ٥، ص١٩٩، والإمام أحمد في مسنده، جـ١، ص٢٣٣.
وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وضعَّفه أحمد وغيره، وردوا تصحيح الترمذي له، فيض القدير: المناوي، جـ٦، ص١٩٠.

(٢) رواه الترمذي جـ٥، ص١٩٩، وقال حديث حسن، وقد أورد الطبري في تفسيره هذين الحديثين وغيرهما، وعلّق عليهما الشيخ أحمد شاكر رحمه الله بقوله: (تدور هذه الأحاديث كلها على عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، وقد تكلموا فيه)، جامع البيان، الطبري، جـ١، ص٧٧.

(٣) رواه الترمذي، جـ٥، ص٢٠٠، وقال: (هذا حديث غريب)، ورواه أبو داود، جـ٣، ص٣٢٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٥) جامع البيان: الطبري، جـ١، ص٧٨-٧٩.

بل جزم النووي - رحمه الله تعالى - بتحريم تفسير القرآن بغير علم وحكى الإجماع على ذلك فقال: (ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة والإجماع منعقد عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، والإجماع منعقد عليه)(١).

وقال: (أما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته، فحرام عليه التفسير لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله)(١).

فإن سألت عن الأمور التي يجب أن يستند إليها التفسير بالرأي، أجابك الزركشي في برهانه بأن: (لطالب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن رسول الله ﷺ،

وهذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه، والموضوع، فإنه كثير. ولهذا قال أحمد بن حنبل، ثلاث كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير، قال المحققون من أصحابه: ومراده أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحيحة متصلة، وإلاَّ فقد صحَّ من ذلك كثير. .

الثاني: الأخذ بقول الصحابي،

فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ، كما قاله الحاكم في تفسيره.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة،

فإن القرآن نزل: ﴿بلسانٍ عربيٍّ مبين﴾(٢)، وقد ذكره جماعة ونصَّ عليه أحمد ابن حنبل في موضعه، لكن نقل الفضل بن زياد - وقد سئل عن القرآن - تَمثَّلَ له رجلٌ ببيتٍ من الشعر فقال: ما يعجبني، فقيل: ظاهره المنع، ولهذا قال بعضهم في جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة، روايتان عن أحمد وقيل: الكراهة تحمل

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، ص١٣٢-١٣٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٥٩.

على من يصرف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ خارجةٍ محتملة، يدلّ عليها القليل من كلام العرب، ولا يوجد غالباً إلاّ في الشعر ونحوه، وقد يكون المتبادر خلافها.

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن مالك بن أنس قال: لا أوتى برجلٍ غير عالِم بلغات العرب يفسِّر كتاب الله إلاّ جعلته نكالاً.

الرابع، التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع.

وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله: «اللّهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل»[1].

ومن هاهنا اختلف الصحابة في معنى الآية فأخذ كل واحد برأيه على مقتضى نظره في المقتضى)[2].

فمن فسر القرآن برأيه مستنداً إلى هذه المصادر كان تفسيره محموداً، ومن أهملها كان تفسيره مذموماً، فالتفسير بالرأي المحمود إذاً هو المستمد من القرآن ومن سنة الرسول ﷺ وكان صاحبه عالماً باللغة العربية، خبيراً بأساليبها، عالماً بقواعد الشريعة وأصولها، والتفسير بالرأي المذموم خمسة أنواع:

أولها: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.

ثانيها: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلاّ الله.

ثالثها: التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً، فيرد إليه بأي طريق أمكن، وإن كان ضعيفاً.

رابعها: التفسير أن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٣٢٨، المعجم الصغير: الطبراني ١/١٩٧، وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي مختصراً.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٥٦-١٦١، باختصار.

خامسها: التفسير بالاستحسان والهوى[1].

فإن سألت عن العلوم التي لا بدَّ للمفسِّر من معرفتها قلت: خذها موجزة:

الأول: اللغة: لأنه بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها.

االثاني: النحو لأن المعنى يختلف باختلاف الإعراب.

الثالث: التصريف لأنه به تعرف الأبنية والصيغ.

الرابع: الاشتقاق لأن الكلمة يختلف معناها باختلاف اشتقاقها.

الخامس: البيان

والسادس: المعاني،

والسابع: البديع.

وهذه العلوم الثلاثة هي علم البلاغة وبها يدرك الإعجاز البلاغي.

الثامن: علم القراءات لأن بعضها يفسر بعضاً.

التاسع: أصول الدين وبها يدرك ما يصح القول به وما يجب تأويله.

العاشر: أصول الفقه فبها يعرف وجه الاستدلال على الأحكام واستنباطها.

الحادي عشر: أسباب النزول فبها يتضح مدلول الآية.

الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ فبه يعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر: الفقه.

الرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم.

واعلم أن العلماء جعلوا هذه العلوم كالآلة للمفسر لا يصح له التفسير إلاَّ بتحصيلها، فمن فسَّر بدونها كان تفسيره تفسيراً بالرأي المنهي عنه[2].

وكم يحز في النفس حين نرى كثيراً من الناس يتجرأون على تفسير كلام الله، ولا يحسبون لذلك حساباً، فلا تتلكأ ألسنتهم، ولا توجف قلوبهم، وكأنهم قد أحاطوا بالقرآن علماً، وأصبح من مداركهم.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٨٣.

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن: السيوطي جـ٢، ص١٨٠-١٨١.

وكم من رجلٍ منهم فسَّر آية بهذه الجرأة، ولو عرضت على أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، خير هذه الأمة بعد نبيِّها، وأكثرهم ملازمة للرسول ﷺ، وعلمًا بالقرآن، ولو عرضت عليه لقال: (أي أرض تقلُّني، وأيُّ سماءٍ تظلُّني إذا قلتُ في القرآن برأيي أو بما لا أعلم)، وإن أحدهم ليفسر الآية، ولو سمعه عمر رضي الله عنه لقرعه بدرته.

وحين تحاور أحدهم في جرأته على تفسير كلام الله يجيبك بكل ثقة: أليس القرآن للناس كافَّة، وأن تدبُّره واجبٌ على كلِّ مسلم؟ يخلط بين أمرين! نعم، تلاوة القرآن حقٌّ لكلِّ مسلم، لكنَّ تفسيره للناس ليس حقًّا لكلِّ إنسان، خذ مثلاً الطب، حقٌّ لكلِّ إنسان أن يدرسه، لكن علاج الناس ليس حقاً لكلِّ إنسان، فإن تعلَّم الطبَّ وحذقه، جاز له مزاولته. فما بالنا نصرخ في أوجه أدعياء الطب، ولا ننهر المتجرئين على تفسير كلام الله، وهم ليسوا من أهل التفسير، ألا يعلم أولئك أن من خصائص القرآن الكريم حرمة تفسيره بالرأي المجرَّد من الدليل، وأن لمن رام تفسير القرآن شروطاً لا بدَّ من توافرها.

ألا يعلم المسلمون أيضاً أن للقرآن عليهم حق الدفاع عنه ضد أولئك المتجرئين على تفسيره بمناصحتهم وإظهار حقيقتهم للناس حتى يحذروهم . . .

من خصائص القرآن الكريم :
أن الله سبحانه وتعالى تعهَّد بحفظه ،

ميَّز الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم عن سائر الكتب بأن تعهَّد بحفظه فقال عزَّ شأنه: **﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر، وإنَّا له لحافظون﴾**(١).

وسيطول بك المقام، وسيمتد بك الزمان، لو ذهبت تستعرض الأحداث العظيمة، والأهوال الجسيمة، والعوامل الخطيرة، والأحوال المتهاوجة التي اخترقها القرآن حتى وصل إلينا، كما أنزله الله، وسيخترق بإذن الله أحوال المجتمع الإسلامي المعاصر، وظروفه وملابساته، ويصل إلى من بعدنا ومن بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ما طالته الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية، ليتم الله نوره ولو كره الكافرون.

القرآن وحده هو الذي تعهد الله بحفظه، أما التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة، فقد أوكل الله حفظها إلى أهلها، قال تعالى: **﴿إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا والربَّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾**(٢)، الآية..

وانظر بعين البصيرة، واخترق بنورها، حواجز القرون، فسترى حتمًا معجزة إلٰهية في هذا الكتاب المبين، وإن شئت فقل معجزة في المعجزة، تكالَب الأعداء عليه منذ أول إشعاعة له، وتداعت الأمم عليه، وتآمر المتآمرون، وخطَّط المخطِّطون، على وجه ما كان من الممكن أن ينجو منهم فلا تتبدل فيه كلمة، زيادة أو نقصاً، ولا يختلف فيه حرف تقديمًا أو تأخيراً، لولا أن هناك قوة أكبر لا يستطيعها بشر، تولَّت حفظ هذا الكتاب. أول ما نزل كان المشركون يلغون عند تلاوته، ويطاردون صاحبه، ويحاربون أتباعه، ويصرفون الناس عن سماعه، ما تركوا وسيلةً إلاَّ سلكوها، ولا مطيّة إلاَّ ركبوها، وخابوا وخسروا.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٤٤.

وحين دخل الناس في الإسلام، دخل معهم أرباب نِحَلٍ ومِللٍ يريدون تحطيم الحصون الإسلامية من الداخل، ونشأت فرق، وكثر النزاع، وعمَّت الفتن، وطمَّت المحن، وذهبت كلُّ فرقةٍ تلتمس لها سنداً من القرآن، ومن السنة، وما كان بعض أصحاب الفرق ليتردد أو ليحجم عن التحريف في ائقرآن الكريم لو استطاع ذلك، لا يمنعه عنه خوف من الله أو احترام لكتابه، فالذي يجرؤ على الافتراء على الرسول ﷺ لن يعدم جرأة على الافتراء على الكتاب الذي جاء به.

فاستطاع أولئك أن يفتروا في سنة الرسول ﷺ ما احتاج إلى جهود علماء أعلام، حتى قاموا بتنقيتها من افتراءات المفترين، ودحض شبهات الملحدين، حتى ظلَّت كما كانت محجَّةً بيضاء، لا يزيغ عنها إلَّا هالك.

فحين قال الزنديق لهارون الرشيد ـ رحمه الله تعالى ـ: أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم، أحرِّم فيها الحلال، وأحلِّل فيها الحرام، ما قال النبي (ﷺ) منها حرفاً، أجابه هارون: أين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك، ينخلانها نخلاً، فيخرجانها حرفاً حرفاً[1].

هكذا تجرَّأوا على سنَّة الرَّسول ﷺ، أما القرآن فلم يجرؤ أحد منهم على شيء من ذلك.

وحين قامت دولة الإسلام، واتسعت رقعته، حسبت طائفة أن المهمة انتهت، وأن العقيدة انتشرت، ووصلت في الأرض مداها، فركنوا إلى الدعة، وآثروا السكون، فالتمس الأعداء منهم هذه الغفلة، فتداعوا عليهم، وجيشوا الجيوش، وجمعوا الجموع، وصبُّوا جام غضبهم على العالم الإسلامي في أرضهم، يهدمون بيوتهم ومساكنهم.. وفي أرواحهم.. يقتلونهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، كباراً وصغاراً، وفي تراثهم.. يحرقون كتبهم ومؤلفاتهم وعلومهم.

صليبيون.. وتتار.. ومغول.. وباطنية.. وملاحدة.. ثم استعمار بأبشع

(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي ص١٩٤، والأسرار المرفوعة: ملا علي القاريء، ص٦٢.

صوره، وأردأ أشكاله، يستولي على العقول، فيسلخها من الدين، ويجرِّدها من الأخلاق، وينشر الفسق، والمجون، والبدع، والمنكرات، وصوراً من الجهل، والدجل، والشعوذة.. حتى أعجزوهم عن حماية أنفسهم، أو عقيدتهم، أو أرضهم، أو أعراضهم، أو أخلاقهم، حتى عقولهم باعوها بالرخيص لأولئك فقلدوهم في مساوئهم ولم يدركوا الأخذ بمحاسنهم، إن كان فيهم محاسن.

بلبلوا أفكارهم، ورموهم في متاهات العقول، وراجت بينهم الشعارات البرّاقة: التقدّم.. التطوّر.. العلمانيّة.. الحداثة.. البنيوية.. التحرر.. الثوريّة.. التجديد.. القوميّة.. الاشتراكية.. الشيوعية.. شعارات جوفاء يرددونها لا يفقهون لها معنى أو لا يدركون لها مرمى. مع كل هذا التفكك في العالم الإسلامي.. وكل هذا التأثير من الأعداء فإنهم لم يستطيعوا تحريف أو تبديل أو أدنى تغيير في هذا الكتاب، ولم يكونوا فيه من الزاهدين، ولا عنه من المتورعين، فهم أحرص الناس لو كانوا يستطيعون.

استطاعوا الدس في سيرة الرسول ﷺ وفي تاريخ المسلمين وشوهوا قيادات إسلامية حكيمة، وزوروا أحداثاً، وحطّموا دولاً ومجتمعات، واتّخذوا لهم زعامات أظهروها في صور الأبطال أو المصلحين، أو أدعياء النبوّة، حتى القرآن دسّوا الشبهات في علومه ومعارفه، في نزوله وجمعه، في تفسيره... الخ.

لكن شيئاً واحداً مع كل هذه الظروف وكل هذه الأحداث وكلّ هذه القدرات والمحاولات والمكر والكيد، لم يستطيعوه، ألا وهو زيادة حرف أو نقص حرف، فضلاً عن الكلمة أو تقديم جملة على جملة، أو تغيير عبارة بأخرى في هذا القرآن.

هذا لم يستطيعوه.. ولم يدركوه، ولو اجتمعوا له، كانت المطابع عندهم قبل أن يعرفها المسلمون بسنوات طوال، وكان عندهم من السلطة والقوّة، ما يستطيعون به طبع مصاحف مزوّرة، وترويجها بين المسلمين قبل أن يعرفوا المطابع، أو في مجتمع لم يصل إليه المصحف، حاولوا ذلك لكنّ محاولاتهم كلّها تبوء بالفشل، وتعود عليهم بالخسار المادي، والفكري، فقد كان المسلمون في هذه الناحية أقوى

منهم، وإن كانوا أضعف في كل شيء، وما هذه القوّة إلاّ من: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾[1].

وأنّى التفتنا يمنةً أو يسرة، فلن نجد كتاباً يشارك القرآن في هذه الخاصية.

دونكم التوراة والإنجيل، التحريف فيهما أشهر من أن يذكر، لم يحرفهما الخصوم، بل حرفهما أهلهما وبأيديهم.

دونكم المؤلفات الهائلة التي أُلِّفت بعد نزول القرآن بقرون وقرون، لا تجدون أبداً مخطوطتين لكتاب واحد يتطابقان تماماً، فلا بد من الاختلاف في كلمة أو جملة، تصحيفاً أو تحريفاً، أو تغييراً أو تبديلاً، إن لم يكن هناك اختلاف في فصول أو أبواب، وإن لم يكن هناك نقصان من مخطوطة وزيادة في أخرى، ما الذي ميَّز القرآن الكريم عن هذا، والنساخ هم النسّاخ، لا تجد نسخة تختلف عن الأخرى، لا أقول في جملة، ولا في كلمة، ولا في حرف، ولكن في شكلٍ لكلمةٍ، إلاّ اختلاف في القراءات المشروعة، وليس هذا باختلاف، بل هو زيادة في الحفظ، فالحفظ للقراءات المتواترة، من حفظ القرآن: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾[2].

نعم كانت هذه الآية عند نزولها مجرّد وعد أو هكذا كان يراها المجتمع الأول، أو رأوا صوراً للحفظ قليلة إلى ما بعدها، أمّا نحن في عصرنا هذا فنرى هذه الآية معجزة إلٰهية وشاهدة على أن هذا القرآن مِن لدن عزيزٍ حكيم، شديدٍ قوي، عليٍّ عظيـم [3].

---

(1) سورة الحجر: الآية ٩.

(2) سورة الحجر: الآية ٩.

(3) نشرت الصحف أن نسخة القرآن الكريم التي كان يحملها الرئيس الباكستاني ضياء الحق ظلت على حالها ولم يمسسها أي ضرر في حين احترق كل شيء عند انفجار طائرة الرئيس رحمه الله تعالى وقد كتب الأستاذ عبد الكريم الطويان في جريدة الجزيرة العدد ٥٨٢١ في ٢٤/ ١/ ١٤٠٩هـ ص ١٩ مقالاً جيداً ذكر فيه عدداً من الأحداث المماثلة ولا شك أن هذا من الآيات العجيبـة.

من خصائص القرآن الكريم:
تيسير حفظه وتلاوته،،

وقد أجمل لنا ذلك قوله تعالى: ﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مُدَّكر﴾[1]، قال مجاهد: يسَّرنا: هوّنا قرآءته[2]، وما أكثر صور هذا التيسير لحفظ القرآن أو لتلاوته، واستعرض في ذهنك الصورة تلو الصورة، يستبن لك مدى تيسير القرآن.

أرأيتم ذلك الصبي يرسله والده إلى الكتّاب، لا يعرف للحروف شكلاً، ولا يملك من اللسان العربي إلاَّ كلمات محدودة، يقضي بها الحاجات اليوميّة لمن هم في مثل سنِّه، ولا يدرك من المعاني ما وراءها، يرسله والده إلى الكتّاب فيقرأ القرآن، ثم لا يلبث إلاَّ زمناً يسيراً، فإذا به قد حفظ القرآن كله، وأجاد تلاوته، واستقام به لسانه، وحسَّن به نطقه، وهذَّب خلقه، وكساه وقاراً، وزاده سكينة.

وصورة ذلكم الرجل الأعجمي الذي قد لا يعرف من اللسان العربي كلمة، ولا يفهم لها معنى، يقرأ القرآن فيرتله ترتيلاً، ويخرج حروفه من مخارجها، حتى لتحسبه جاءك يسعى من القرن الأول، حيث فصاحة اللسان، ووضوح المنطق، وما إن ينتهي من التلاوة، حتى تستبين لك حقيقته، فتراه إن عرف شيئاً من العربية نطقه بلكنة ظاهرة، أو كلمات لا تستقيم.

تلكم مدارس تحفيظ القرآن في العالم الإسلامي، نشأت منذ نزول القرآن وما زالت، يلتحق بها في كل بلد الآلاف يتلون القرآن، ويحفظون منه ما شاء الله، أرأيتم لو كان في حفظه مشقَّة، هل سيلتحق بها أحد، أو يلحق ابنه، مع أنه لا دافع يدفعهم إلاَّ دافع الإيمان، ولا ملزم لالتحاقهم بها إلاَّ حبُّ القرآن، ولو لم تكن تلاوته ميسرة ـ بإذن الله ـ لانفضوا، ولكن كما جعل الله الرحمة في قلب رسوله حتى لا ينفض الناس من حوله، فقد يسَّر الله القرآن حتى يقبل

---

(١) سورة القمر: الآية ١٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة اقتربت الساعة جـ٦، ص٥٣.

الناس على تلاوته، فأقبلوا يتنافسون في تلاوته، ويقومون به آناء الليل وأطراف النهار، ما كلُّوا ولا ملُّوا، وما فترت هممهم عن تلاوته وتدبُّره، بل هم في ازدياد يتلونه في مساجدهم وفي مدارسهم، وفي منازلهم، وفي إذاعاتهم المسموعة والمرئية، وفي مجالسهم، وفي سياراتهم، بل حتى في طائراتهم، وما ذاك إلَّا صورة من صور: ﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر..﴾.

الماهر في تلاوته يردِّده في خلواته، وفي مجالسه، ينطلق لسانه بلا تعتعة ولا اضطراب، ولولا وجوب تدبره، لهذَّ القرآن كله في وقت وجيز.

أمَّا المتعتع فيه فإنَّه لا يشكو صعوبة القرآن، وإنَّما يشكو تقصيره هو، فإذا ما أجاد سوراً منه، انطلق لسانه في السور كلِّها، ولو كان العسر في تلاوة القرآن، ما تيسَّر بعضه بإتقان بعض إذا استطاع القرآءة. وحتى الذين لا يعرفون القرآءة والكتابة يسَّر الله لهم القرآن، وسأحدثكم عجباً قصة امرأة رأيتها بعيني هاتين، هي أميَّة لا تعرف قرآءة حرف ولا كتابته، تمسك بالمصحف فتقرأ سوراً معينة من أولها إلى آخرها، لا تخطىء في كلمة، ولا تبدِّل حرفاً، ولا تلحَن فيه، مع أنها لا تحفظ آية من هذه السور، تقرأ السورة، وتشير عند نطق كل كلمة إلى الكلمة نفسها في المصحف، فإذا كتبتُ لها نفس الكلمة في ورقة خارج المصحف لم تعرفها، ولم تقرأ منها حرفاً، فإذا أعدتُها إلى المصحف تلتها وما بعدها من الآيات حتى نهاية السورة؟!، ما وجدت حلاًّ لهذا، إلاَّ قوله تعالى: ﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكر﴾...

وليست هذه المرأة وحدها في هذا الأمر، وقد كنت أحسب ذلك، لكن أشخاصاً حدَّثوني عن نساء أُخر كذلك.

وتيسير القرآن الكريم للذكر عدَّه بعض العلماء وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فهذا الماوردي يقول: (الوجه السادس عشر من إعجازه تيسيره على جميع الألسنة، حتَّى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنة البكم كجريها به، وما

ذاك إلّا بخصائص إلٰهية، فضَّله بها على سائر كتبه)[1].

فتلاوة القرآن ميسَّرة والحمد لله..

ميسَّرة في ذاتها في طلاقة اللسان بعد المران والعزيمة الصادقة والنيَّة الصالحة، وكم من امرىءٍ جرى القرآن على لسانه كما يجري الماء في مجراه ينساب انسياباً، يثبِّت العقيدة، ويروي القلب، ويجدِّد العزيمة: **﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكر﴾**.

وتلاوة القرآن ميسَّرة في توفُّر المصاحف، فلم يُكتب مكتوب، ولم يُطبع مطبوع مثل القرآن، وتوفَّرت تسجيلاته الصوتيَّة، فكم من قارىءٍ سجَّل القرآن بصوته ملتزماً أحكام تلاوته. مصاحف كاملة، ومصاحف مجزَّأة أرباع وأسداس وأثمان وأعشار وكلُّ جزءٍ على حدة، وما ذاك إلّا تيسير وأيُّ تيسير لتلاوته: **﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكر﴾**.

وتلاوة القرآن ميسَّرة يقرؤه المسلم في كل وقت وعلى كلِّ حال، ما عدا أوقات وأحوالاً مخصوصة يقرؤه المسلم في مسجده، وفي منزله، وفي مكتبه، وفي متجره، وفي طريقه، وهو يقود سيارته، وهو مضطجع على فراشه، وهو مستلقٍ يطلب راحة البدن فيقرأه طالباً راحة النفس،

﴿ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكر﴾،

من خصائص القرآن الكريم:
أن قارئه لا يملّه،،

يأخذ أحدنا كتاباً فيقرأه ويعجبه ويطرب له، فيعيد قرآءته مرَّة ومرَّة، لكنَّه لا يلبث، ولو بعد حين، أن يتوقَّف عن القرآءة الكاملة، ويكتفي بمختارات منه، ولا يفعل هذا إلّا لسأمٍ أصابه، ومللٍ أدركه، فغيَّر من مزاجه في قبوله، وضيق من انشراح صدره له.. هذا وهو لا يوالي قرآءته في اليوم والليلة عدة

(١) أعلام النبوة: أبي الحسن الماوردي، ص٦٩.

مرَّات، إذ لو فعل لأدركه من ملله وسأمه ما يطوِّح به، ويحلّ به العقد التي لا تحل، أحسب هذا في كل كتاب حاشا كتاب الله القرآن الكريم، فقد أزال الله سبحانه وتعالى عن قارىء كتابه بإخلاصٍ وصدقٍ وإيمانٍ المَلَل والسأَمَ تيسيراً للقرآءة، وتسهيلاً للنفوس للإقبال على تلاوته: ﴿**ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكر**﴾[1].

فهو كتابٌ لا يملّ قارئه، ولا يسأم سامعه، وقد وصفه رسول الله ﷺ بأنه: «الذي لاتزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»[2].

ومصداق ذلك ـ أيها الأحبة ـ أن الإنسان المسلم لا يفتأ يقرأ القرآن منذ صغره يكرِّره، ويردِّده في مدرسته، وفي بيته، وفي فرائضه ونوافله، بحيث لا تقل قراءة المسلم لسورة واحدة من سوره هي الفاتحة عن سبع عشرة مرة في كل يوم من عمره، ثم نرى هذا الفتى يزداد إقبالاً على التلاوة والتدبّر، لا يكلّ ولا يملّ، في شبابه وكهولته، بل نراه حين يبلغ ترداده مبلغه في سنِّ الهرم، يزداد له حباً، ويزداد به أنساً، فيردده ويتلوه في فراشه، وفي مجلسه، ويأنس به، ويطرد وحشته، ويجلو همه، ويزيل غمَّه، مع طول الصحبة، ودوام الألفة، وما عهدنا كتاباً هذا شأنه غيرُ القرآن.

وما أصدق عثمان بن عفان رضي الله عنه حين قال: (لو طهرت قلوبكم، ما شبعتم من كلام ربِّكم)[3].

فإن أدرك أحدنا من نفسه مللاً أو سأماً فليصلح من شأنه، وليتعاهد قلبه، فإنَّه بحاجة إلى تطهير. فإن من شأن القلوب المؤمنة أن لا تكلّ ولا تملّ من تلاوته ما لم يخرج صاحبها بها عن حدِّ الاعتدال.

---

(١) سورة القمر: الآية ١٧.

(٢) رواه الترمذي ـ فضائل القرآن ـ ١٤، والدارمي، فضائل القرآن. وانظر التعليق ص ١٢٧.

(٣) رواه البيهقي في (الأسماء والصفات)، ص ٢٤٣، والاعتقاد على مذهب السلف ص ٣٨. والإمام أحمد في (الزهد) ص ١٢٨.

وقد أدرك علماؤنا هذه الخاصية للقرآن الكريم فدوّنوها في مؤلفاتهم، فهذا الماوردي ـ رحمه الله تعالى ـ يُعدِّد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم فيقول: (الوجه الحادي عشر من إعجازه، أن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره، أحدها: هشاشة مخرجه، والثاني: بهجة رونقه، والثالث: سلاسة نظمه، والرابع، حسن قبوله، والخامس: أن قارئه لا يكلّ، وسامعه لا يملّ، وهذا في غيره من الكلام معدوم)[1].

أما النويري فقد عدَّ هذا الوجه السابع لإعجاز القرآن فقال: (الوجه السابع أن قارئه لا يملّ قرآءته، وسامعه لا تمجه مسامعه، بل الإكباب على تلاوته وترديده يزيده حلاوة ومحبَّة، لا يزال غضّاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ ما عساه أن يبلغ من البلاغة والفصاحة يُمَلُّ مع الترديد، ويُسأَمُ إذا أُعيد، وكذلك غيره من الكتب لا يوجد فيها ما فيه من ذلك)[2].

وعـدَّ السيوطي من وجوه إعجازه: (أن قارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبَّة، وغيره من الكلام يُعادى إذا أُعيد، ويُملُّ مع الترديد، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد)[3].

ومن علمائنا المعاصرين الأستاذ مصطفى الرافعي الذي عدَّ هذا من خصائص القرآن حيث قال: (ومِمَّا انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنَّه لا يخلق على كثرة الرد، وطول التكرار، ولا تملّ منه الإعادة، وكلّما أخذت فيه على وجهه الصحيح، فلم تخلّ بأدائه، رأيته غضاً، طرياً، وجديداً مونقاً، وصادفت من نفسك له نشاطاً مستأنفاً، وحساً موفوراً، وهذا أمر يستوي في أصله العَالِمُ الذي يتذوق الحروف، ويستمرىء تركيبها، ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذى يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلاَّ أصوات الحروف، وإلاَّ ما يميِّزه من

---

(١) أعلام النبوة: الماوردي ص٦٥.

(٢) نهاية الأرب: النويري جـ١٨، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص١٢٣.

أجراسها على مقدار ما يكون من صفاء حسّه، ورقّةِ نفسه، وهو لعمر الله يُوسِعُ فكر العاقل، ويملأ صدر المفكِّر[1].

حتّى الشعراء تغنّوا في قصائدهم ونظمهم في هذا المعنى السامي، فهذا أحدهم يصف القرآن بقوله:

يزيد على طول التأمل بهجة
كأن العيون الناظرات صياقل[2]

ويقول الآخر:

تزداد منه على ترداده ثقة
وكلّ قولٍ على الترداد مملول[3]

وهذا الشاطبي يقول:

وأن كتابَ الله أوثق شافع
وأغنى غناءً واهبا متفضلا
وخير جليسٍ لا يملّ حديثه
وترداده يزداد فيه تجمّلا[4]

لعمر الحق إنّ هذا لخصيصة من خصائص القرآن لا يشاركه فيها كلام، ولا يدانيه فيها كتاب.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص٢٤٧.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٥، ولم ينسبه لقائله.

(٣) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٣٢، ولم ينسبه لقائله.

(٤) حرز الأماني ووجه التهاني: الشاطبي، ص٤.

من خصائص القرآن الكريم:
حفظه في الصدور،

ومن أشرف خصائص القرآن الكريم أنَّ الله سبحانه وتعالى كلَّف الأمَّة بحفظه كله، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر، وإلّا أثمت الأمّة كلّها، وليس هذا لكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل، ترك لأهلهما أمر الحفظ، فمن شاء اكتفى بالقرآءة من المكتوب وهو الأعم والأغلب عندهم، حتّى الأحبار والرهبان يتلونه في كنائسهم، والكتاب مفتوح بين أيديهم، ومن شاء منهم حفظه وهم قلّة لا تكاد تذكر، ولم تتوفر الدواعي لحفظهما كما توافرت لحفظ القرآن الكريم، فلم يكن لهما ثبوت قطعي كما هو للقرآن، وسهل تحريفهما وتبديلهما.

أمّا القرآن فقد اقترن حفظه مع أول آية نزلت منه، فحينما جاء جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ في غار حراء وتلا عليه أوّل الآيات نزولاً، لم يكتبها عليه السلام، بل حفظها، وذهب إلى خديجة، فتلا عليها من حفظه، وظهر حرصه على حفظ القرآن جلياً عند متابعته لجبريل عليه السلام لحظة الوحي، حتى نزل قوله تعالى: ﴿لا تحرِّك به لسانَكَ لتعجَلَ به، إنَّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه، فاتَّبع قرآنه، ثمَّ إنَّ علينا بيانه﴾[1]، فكان الرسول ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل، ينصت فإذا ذهب وجد القرآن مجموعاً في صدره.

ولم يترك الرسول عليه الصلاة والسلام أمراً فيه حثٌّ على حفظ القرآن إلّا وسلكه، فكان يفاضل بين أصحابه في حفظ القرآن، فيعقد الراية لأكثرهم حفظاً للقرآن، وإذا بعث بعثاً جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم قرآءة للقرآن، ويقدّم لِلَّحدِ في القبر أكثرهم أخذاً للقرآن، ويزوّج الرجل المرأة ويمهرها ما مع الرجل من القرآن، وصور ذلك كثيرة جداً، فتوافرت الدواعي لحفظه في الصدور.

فكانوا يقومون به آناء الليل وأطراف النهار: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون﴾[2]، وكانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار.

---

(١) سورة القيامة: الآيات ١٦-١٩.

(٢) سورة الذاريات: الآيتان ١٧-١٨.

وحفظه عدد كبير منهم، وليس أدلّ على هذا من أنه تتل في غزوة واحدة في معركة اليمامة من جيشٍ واحد هو جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه أكثر من سبعين قارئاً للقرآن، فكم كان عدد القراء في هذا الجيش؟، وكم كان عددهم في جيوش المسلمين كلّها؟، وكم كان عددهم في بلدان المسلمين آنذاك؟.

وما زالت المسيرة مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم حتّى في هذا العصر، مع تكالب الأحوال على المسلمين واضطراب المعيشة، ومغريات الحضارة، وتوافر الموانع، وانحسار الدوافع، نجد كثرة من حفاظ القرآن، ونجد إقبالاً لا يخطر ببال، ولا يحلم بمثله أهل كتاب.

انظروا ـ إن شئتم ـ مدارس تحفيظ القرآن الكريم العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا، ثم التفتوا يسرةً، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة، فلن تجدوا منها شيئاً، بل ستجدون قلّة القلة تحفظ هذا أو ذاك مّما لا يذكر ـ أبداً ـ في مقابل مدارس تحفيظ القرآن، وتلكم المستشرقة لورا فاغليري تقول: (إننا لنجد اليوم على الرغم من انحسار موجة الإيمان آلافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب ـ تعني القرآن ـ وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدَد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها)[1]، ويقول جيمي متشيز: (لعلَّ القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم وهو ـ بكل تأكيد ـ أيسرها حفظاً)[2].

وقد عدَّ النويري تيسير حفظ القرآن وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن حيث قال: (الوجه الثامن: أن الله تعالى يسَّر حفظه لمتعلِّميه، وقرَّبه على متحفظِّيه. قال الله تعالى: ﴿**ولقد يسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مدَّكر**﴾[3]، فلذلك فإنَّ سائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منها، وإن لازم قرآءتها وداوم مُدارسَتَها، لم يُسمع بذلك عن أحد منهم، والقرآن قد يسَّر الله تعالى حفظه على الغلمان في المدَّة

---

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري ص٥٩.

(٢) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٨.

(٣) سورة القمر: الآية ١٧.

القريبة، والنسوان، وقد رأينا من حفظه على كبر سنه، وهذا من معجزاته)[١].

ولا شك أن هذا من أشرف خصائص هذا القرآن كما قال ابن الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ: (ثم إنَّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة)[٢].

ثم أورد ابن الجزري حديث مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ وفيه قول الله تعالى لنبيه في الحديث الشريف: (إنَّما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان)[٣]، وعقَّب ابن الجزري بقوله: (فأخبر تعالى، أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة أمته: (أناجيلهم في صدورهم)، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلاَّ في الكتب، ولا يقرؤونه كلّه، إلاَّ نظراً، لا عن ظهر قلب، ولما خصَّ الله تعالى بحفظه من شاء من أهله، أقام له أئمة ثقات، تجرّدوا لتصحيحه، وبذلوا أنفسهم في إتقانه، وتلقَّوه من النبي ﷺ حرفاً حرفاً، لم يهملوا منه حركةً ولا سكوناً، ولا إثباتاً، ولا حذفاً، ولا دخل عليهم في شيء منه شكٌّ ولا وهم)[٤]، والله أعلم.

من خصائص القرآن الكريم:

تعليمه بالتلقي، ،

الكتابة قيد الألفاظ، والأصل أن يطابق المكتوب المنطوق تمام المطابقة، وإذا نظرنا إلى رسم المصحف وكتابته في عهد عثمان رضي الله عنه، وهو الرسم الذي لا يزال بين أيدينا، وجدنا فيه اختلافاً في كتابة الآيات عن نطقها، فما السّر في ذلك؟، أحسب أن في ذلك فائدة عظمى هي حمل الناس على أن يتلقوا القرآن

---

(١) نهاية الأرب: النويري جـ١٨، ص٣٠٧.

(٢) النشر في القراءآت العشر، ابن الجزري، جـ١، ص٦.

(٣) صحيح مسلم، جـ٤، ص٢١٩٧.

(٤) النشر في القراءآت العشر، ابن الجزري، جـ١، ص٦.

من صدور الرجال، فلا يتكلوا على التلقي المكتوب. إذ أن للتلاوة أحكاماً ينبغي أن يأخذ بها تالي القرآن الكريم كالقلقلة، والروم، والاشمام، والإخفاء، والإقلاب، والإظهار، والإدغام، ونحو ذلك، وليس من السهل بل قد يتعذر كتابة مثل هذا. ولهذا قرر العلماء - رحمهم الله تعالى - أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التلقي عن حافظ متقن، وكانوا يقولون: (من أعظم البلية تشييخ الصحيفة)[1]، ويقولون: (لا تأخذوا القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي)[2]، وهو الذي يعلم الناس، وينظر إلى رسم المصحف، وكان الشافعي - رحمه الله تعالى - يقول: (من تفقه من بطون الكتب ضيَّع الأحكام)[3]، بل إنَّ أعلام حفَّاظ القرآن يميِّزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (حفظت من في رسول الله ﷺ بضعة وسبعين سورة)[4]، ويبينُ عمَّن أخذ باقيه فيقول في رواية أخرى: (وأخذت بقية القرآن عن أصحابه)[5]، ولإدراكه رضي الله عنه مكانة التلقي بالمشافهة، كان إذا سئل عن سورة لم يكن تلقَّاها عن الرسول ﷺ، صرَّح لهم بذلك، ودلَّهم على من تلقَّاها بالمشافهة عنه ﷺ، فعن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ طسم المائتين، فقال: ما هي معي ولكن عليكم مَنْ أخذها من رسول الله ﷺ خبَّاب بن الأرتّ، قال: فأتينا خبَّاب بن الأرتّ فقرأها علينا)[6].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، العسكري، ص١٠.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم: ابن جماعة، ص٨٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القرآء من أصحاب النبي ﷺ، جـ٦، ص١٠٢، واللفظ له، ورواه مسلم بلفظ آخر، كتاب فضائل الصحابة، جـ٤، ص١٩١٢.

(٥) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص٤٨، حيث قال: «زاد عاصم عن بدر عن عبد الله ثم ساق النص».

(٦) مسند الإمام أحمد، جـ٦، ص٣٤، بتحقيق أحمد شاكر، رقم ٣٩٨٠، وقال إسناده صحيح.

وما قاله ابن مسعود وغيره من أعلام الحفّاظ في وجوب التلقّي للقرآن مشافهة، لم يبتدعوه من عند أنفسهم، وإنّما أخذوه عن سنّة رسول الله ﷺ. فقد كان النبي ﷺ نفسه وعليه أنزل، يتعلّم القرآن من جبريل عليه السلام، ويشافهه به مشافهة، ويعارضه القرآن في كلّ عام في شهر رمضان، وعارضه عام وفاته بالقرآن مرتين. ويؤكد هذا لذوي الألباب أن الصلوات الخمس المفروضة يجهر في ثلاث منها، وكذا في صلاة الجمعة، والاستسقاء، والخسوف، والكسوف، ويسُرّ في باقيها، وكأنّما في هذا إشارة إلى تعلم الناس للتلاوة الصحيحة في الصلاة الجهرية، ثم تطبيقها في الصلاة السرية.

وقد كان الرسول ﷺ يبعث القرآء إلى من يدخل في الإسلام لتعليمهم التلاوة، وكان بإمكانه ﷺ أن يكتب لهم، فقد بعث ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم إلى أهل يثرب (المدينة)، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن[1]، وحين فتح مكة خَلَّفَ على أهلها معاذ بن جبل يقرئهم القرآن[2]، واقتدى بسنته من بعده الخلفاء الراشدون، فقد أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عبادة بن الصامت، ومعاذ بن جبل، وأبا الدرداء، ليعلموا أهل الشام القرآن بعد فتحها[3]، ولّما نسخ عثمان رضي الله عنه المصاحف، أرسل مع كل مصحف قارئاً يعلّم الناس عليه، فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمدينة، وعبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة[4]، والشواهد ـ أيها الأحبة ـ، على هذا كثيرة جداً، وما أظن مثل هذا إلاّ دليلاً قاطعاً على أن من أحكام القرآءة ما لايمكن إتقانه أبداً، إلاّ بالتلقي الشفهي، ولذا وضع العلماء كتباً غير قليلة في أحكام التجويد لتيسير التلاوة، يصفون بها كيفية نطق الحروف، وبيان مخارجها، بل استعمل بعضهم صوراً توضيحية لمخارج الحروف، وحركات اللسان، والشفتين،

(١) الطبقات الكبرى: ابن سعد، جـ٣، ص١١٧-١١٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي، جـ١، ص٤٤٧.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات: النووي، القسم الأول، ص٢٥٧.

(٤) الجمع الصوتي الأول: لبيب السعيد، ص١٤١، وقال نقله الجعبري عن أبي علي.

وظهرت في عصرنا هذا الأشرطة المسجلة بأصوات أئمة القرّاء للقرآن الكريم، ومع أن لهذا بلا شكٍّ أثره في تيسير القرآءة وتوضيحها، وهو عمل محمود، وسعيٌ مشكور، يُثاب عليه أهله إن شاء الله، إلاَّ أنه مع هذا كله ـ وأصحابه أنفسهم يدركون هذا ـ لا يغني ولن يغني عن المشافهة في تعلم القرآن الكريم.

ذلكم أن التلقي الشفوي من أفواه الرجال هو النقل السليم الذي يقل فيه اللحن، والذي يظهر به زيف التصحيف واللحن، ويصحِّح به القارىء قرآءته.

وعلى هذا المنهج السليم، سار سلف الأمة، وما زال المسلمون كذلك، ومدارس تحفيظ القرآن تنتشر، والإقبال على تلقِّيه مشافهة يزداد والحمد لله.

من خصائص القرآن الكريم:

اتصال السند،

وهذه الخصيصة وليدة الخصيصة السابقة، وهي التلقي بالمشافهة. فإذا كان القرآن الكريم اختصَّ من بين سائر الكتب بأنه يتلقَّى مشافهة، ولا يُكتفى بدراسته من المصاحف بدون معلم، فإن هذا يعني اتِّصال سند كل مسلم برسول الله ﷺ، عن جبريل عن ربِّه في القرآن الكريم.

ويظهر ذلك واضحاً جلياً في سورة الفاتحة، ما من أحد من المسلمين إلاَّ وتعلَّمها وحفظها قبل أن يتلوها في المصحف، لأنه لم يعرف القرآءة بعدُ، وإنَّما عن طريق السماع، والتكرار من أستاذه. انظر إلى أطفالنا في الصفوف الأولى، أو قبلها، أول ما يحفظون ـ بحمد الله ـ سورة الفاتحة، وهم حين يحفظونها، لا يعرفون الحروف الهجائية قبل ذلك، وقد يتم حفظها، وحفظ سور أخرى كثيرة قبل أن يستطيع أن يقرأ مستقلاً بنفسه.

وقل مثل هذا في أستاذهم في صغره، فهو مثلهم، حفظ قبل أن يقرأ، وهكذا أستاذه، لا تنقطع هذه الطريقة، إلى أن تصل إلى رسول الله ﷺ.

هذا في الفاتحة ظاهر، وهو أيضاً فيها شامل لكلِّ المسلمين، إلاَّ ما ندر،

أمّا في بقية السور فإنّ أغلب من يحفظ القرآن إنّما يحفظه عن طريق السماع من أستاذه، والتلقي منه مشافهة وهكذا كالأوّل.

وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلاً برسول الله ﷺ، وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شرّف الله هذه الأمة باتّصال سندها برسولها ﷺ.

قال محمد بن حاتم المظفر رحمه الله تعالى: (إنّ الله تعالى قد أكرم هذه الأمة، وشرّفها، وفضّلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلّها، قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، ممّا جاءهم به أنبياؤهم، وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات)[1]، وقال ابن حزم: (ونحن إن شاء الله تعالى، نذكر صفة وجوه النقل الذي عند المسلمين لكتابهم ودينهم).. إلى أن قال: (ان نقل المسلمين لكل ما ذكرنا ينقسم أقساماً ستة أوّلها شيء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلاً، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة وهو القرآن المكتوب في المصاحف، في شرق الأرض وغربها، لا يشكون ولا يختلفون في أن محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب أتى به وأخبر أنّ الله عزّ وجلّ أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا)[2].

ولا شك أن اتصال السند برسول الله ﷺ في القرآن كله سوره، وآياته، وكلماته، وحروفه بهيئاتها وحركاتها، وكيفية نطقها بطريق التواتر، خاص بهذا القرآن، وهو من خواص هذا الكتاب الذي امتاز به على سائر الكتب، وخواص هذه الأمة التي امتازت به على سائر الأمم.

---

(١) توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، جـ٢، ص٣٩٩، فتح المغيث، جـ٣، ص٤، شرح المواهب، جـ٥، ص٣٩٤.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم، جـ٢، ص٨١.

من خصائص القرآن الكريم:

تحريم روايته بالمعنى، ،

تتعلق العبادة بالقرآن الكريم من ناحيتين، الأولى: من ناحية ألفاظه، وذلك بتلاوتها في الصلاة، وفي خارج الصلاة، فالقرآن متعبَّدٌ بتلاوة ألفاظه، والثانية: من ناحية معانيه، وذلك بالعمل بها وتطبيقها والتزام أحكامها.

ولهذا فإن للفظ القرآن حرمته ومكانته، التي لا تبيح لأحد أن يغيِّر فيه حرفاً، إضافةً أو حذفاً، بل اتَّفق العلماء على: (أنَّ كلَّ ما في القرآن حقٌّ، وأنَّ من زاد فيه حرفاً من غير القرآءات المرويَّة المحفوظة المنقولة نقل الكافَّة، أو نقَّص منه حرفاً أو بدَّل منه حرفاً مكان حرف، وقد قامت عليه الحجَّة أنَّه من القرآن فتمادى متعمداً لكلِّ ذلك، عالماً بأنه خلاف ما فعل فإنَّه كافر)[1].

فإذا كان تغيير حرف منه يعدُّ كفراً، فإنَّ تغييره جملةً أشدُّ وأعظم، ومن هنا فلا تجوز روايته بالمعنى، قرآءة ولا كتابة في الصلاة ولا في خارج الصلاة.

ونصوص العلماء في ذلك كثيرة، فهذا ابن قدامة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: (ولا تجزئه القرآءة بغير العربيَّة، ولا إبدال لفظها بلفظ عربي، سواء أحسن قرآءتها بالعربية أو لم يحسن)، ثم استدلَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿قرآناً عربياً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿بلسانٍ عربيٍّ مبين﴾[3]، ولأن القرآن معجزة: لفظه ومعناه، فإذا غُيِّر خرج عن نظمه، فلم يكن قرآناً ولا مثله، وإنَّما يكون تفسيراً له، ولو كان تفسيره مثله لما عجزوا عنه لَما تحدَّاهم بالإتيان بسورة مثله)، وقال: (فإن لم يحسن القرآءة بالعربيَّة لزمه التعلّم، فإن لم يفعل مع القدرة عليه، لم تصحَّ صلاته)[4]، وقال الزركشي ـ رحمه الله تعالى ـ: (لا تجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها، بل تجب

---

(١) مراتب الإجماع: ابن حزم، ص١٧٤.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٨.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٩٥.

(٤) المغني: ابن قدامة، جـ١، ص٤٨٦-٤٨٧.

قرآته على هيئته التي يتعلق بها، الإعجاز لتقصير الترجمة عنه، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذي خُصَّ به دون سائر الكتب)، إلى أن قال: (وإذا لم تجز قرآته بالتفسير العربي المتحدى بنظمه، فأحرى أن لا تجوز بالترجمة بلسان غيره)[1]، وقال ابن عبد الشَّكور صاحب مُسَلَّم الثُّبوت: (اعلم أنَّ القرآن عندنا اسم لكلٍّ من النظم المعجز، والمعنى المستفاد، أمَّا المعنى المستفاد فليس بقرآن)[2].

وجاء في حاشية الدسوقي على شرح الدردير: (لا تجوز قرآءة القرآن بغير العربيَّة، بل لا يجوز التكبير في الصلاة بغيرها، ولا بمرادفه من العربيَّة، فإن عجز عن النطق بالفاتحة بالعربيَّة، وجب عليه أن يأتمَّ بمن يحسنها، فإن أمكنه الائتمام ولم يأتمَّ بطلت صلاته، وإن لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة، وذكر الله وسبَّحه بالعربيَّة، وقالوا: على كلِّ مكلَّف أن يتعلَّم الفاتحة بالعربيَّة، وأن يبذل وسعه في ذلك، ويجهد نفسه في تعلّمها، وما زاد عليها، إلَّا أن يحول الموت دون ذلك وهو بحالٍ من الاجتهاد، فيُعذر)[3].

وقال ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: (من قرأ أمَّ القرآن، أو شيئاً منها، أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربيَّة، أو بألفاظ عربيَّة غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى عامداً لذلك، أو قَدَّمَ كلمة، أو أخَّرها، عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق، لأن الله تعالى قال: ﴿قرآناً عربياً﴾[4]، وغير العربي ليس عربياً، فليس قرآناً، وإحالة عربية القرآن تحريفٌ لكلام الله تعالى، وقد ذمَّ الله تعالى قوماً فعلوا ذلك فقال: ﴿يحرِّفون الكلِمَ عن مواضِعه﴾[5]، ومن كان لا يحسن العربيَّة، فليذكر الله تعالى بلغته، لقوله تعالى: ﴿لا يكلِّف الله نفساً إلَّا وسعها﴾[6]، ولا يحلّ له أن يقرأ أمَّ القرآن، ولا شيئاً من القرآن مترجماً على أنه

---

(١) البحر المحيط: الزركشي، جـ٣، ص١٠٢٨، تحقيق: د/محمد بن عبد الرزاق الدويش.

(٢) مسلم الثبوت: محب الله بن عبد الشكور، حاشية المستصفى للغزالي، جـ٢، ص٨.

(٣) حاشية الدسوقي، جـ١، ص٢٣٢-٢٣٦.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢٨.

(٥) سورة المائدة: الآية ١٣. (٦) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

الذي افترض عليه أن يقرأه، لأنه غير الذي افترض عليه، كما ذكرنا، فيكون مفترياً على الله تعالى)[1].

هذه بعض نصوص العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ، في تحريم تغيير ألفاظ القرآن الكريم، أو روايته بالمعنى، وينبغي ـ هنا ـ أن أنبه إلى أنِّي لا أقصد بهذا منع جواز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية، أو إباحة ذلك، فهذا شأنٌ آخر، وإنَّما حديثنا هنا عن روايته بألفاظ عربيَّة غير ألفاظه.

فالقرآن الكريم معجزٌ بلفظه، كما هو معجزٌ بمعناه، فيجب الأخذ بهما معاً، فإنَّه لا يتيسَّر لأحدٍ كائناً من كان أن يأتي بألفاظ تشمل كل المعاني التي تشملها ألفاظ القرآن، وكلُّ من فسَّر ألفاظ القرآن، جاء ببعض معانيها، وهذا ميدان يتبارى فيه المفسرون، يحاول كل واحد منهم أن يأتي بمعنى، أو يفهم فهمًا لم يأت به أحد من قبله، ولو جاء أحد منهم بألفاظ تحتوي على كل معاني اللفظ القرآني، ما احتاجت الآية إلى من يفسِّرها من بعده، بل لكانت هذه الألفاظ التي جاء بها مساوية لألفاظ القرآن، سيَّما إن ساوتها بالإيجاز، وهذا لا يكون أبداً، وليس بقدرة البشر، ولا الجِنَّة معهم، لأن الله سبحانه تحدَّى الجنَّ والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

أمَّا من يسوق العبارة يفسِّر بها ألفاظ القرآن سواء كان تفسيره بالعربية، أو بغيرها، فلا يعدُّ هذا رواية للقرآن، بالمعنى، لأنه يعرف من نفسه، ويعرف القارىء منه، أنَّه لا يعدّ قوله قرآناً، ولا يُعلَّق بألفاظه ـ هو ـ أحكام القرآن، ولا يخصّها بخصائصه، فلا يدخل في المحظور، بل يدخل عمله هذا في تفسير القرآن الكريم، ونشر أحكامه، وعلومه، وهذا من أشرف العلوم وأفضلها.

(١) المحلى: ابن حزم، جـ٣، ص٢٥٤.

من خصائص القرآن:

أنه يتفلت من حافظه،،

وهب الله سبحانه وتعالى كلَّ إنسانٍ قوَّة في الحافظة، والناس فيها متفاوتون، منهم من لا تكاد حافظته تمسك شيئاً، إلَّا بعد تكرار كثير، وزمن طويل، ومنهم من يحفظ في زمن قصير، ومنهم من يحفظ الشيء عند أول سماعه، وقوة الحافظة لا تنتهي مهمتها عند استحضار ما حَفِظَت مرَّة أو مرَّتين، بل يتفاوت الناس أيضاً في استحضار ما حفظوه، فمنهم من ينسى ما حفظ بعد أيام، ومنهم من لا تمحوه الأيام، ولا السنوات، وحين يحفظ الحافظ، أو ينسى الناسي، فليس هذا إلَّا لقوة في الحافظة، أو لضعف فيها، وليس للنص من كبير أثر، فالنصوص لا تتفلت من حافظها بقوتها، بل بضعف حافظة صاحبها، إلَّا القرآن الكريم، فإنَّه يتفلت بنفسه من حافظة صاحبه، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكَيْت، بل نُسِّيَ، واستذكروا القرآن، فإنَّه أشدّ تفصّياً من صدور الرِّجال من النَّعَم»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها»[2]، وقال ﷺ: «إنَّما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكهَا، وإن أطلقها ذهبت»[3]، وعلاج تفلُّت القرآن الكريم من صدور حافظيه هو أيضاً خاصة من خصائصه، ألا وهو وجوب تعاهد القرآن الكريم بالتلاوة والحفظ، وسيأتي بيانها، ولا شكَّ أن لتفلّت القرآن الكريم حكمة، بل حكمٌ، أظهرها الابتلاء والامتحان لقلوب العباد، فيظهر القلب المتعلِّق بالقرآن دائماً وأبداً، المواظِب على تلاوته وترتيله. والقلب الذي تعلَّق به في وقت حفظ فيه ما حفظ، ثم فتر تعلّقه وانصرف عن القرآن حتى نُسِّيَه، فهل يستويان؟؟.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٩، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٤٤.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١١٠، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٤٥.

(٣) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٩، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٤٣.

من خصائص القرآن الكريم :

وجوب تعاهده والوعيد على هجرانه ، ،

حقٌّ لكتاب أمة أخرجت به من الظلمات إلى النور، واهتدت بهديه ، وسارت على نهجه ، أن تتعاهده بالتلاوة والتدبّر، وأن تحذر كلَّ الحذر من التقصير في حقّه ، أو الصدوف عن منهجه ، أو هجران تلاوته والعمل به ، فحاجتها إليه أشد من حاجة مريض أعياه الداء، وكَلَّ من البحث عن الشفاء ، حتى كاد أن ييأس وإذا به ومن حيث لا يحتسب، يجد الطبيب الحاذق، فيصف له الدواء الشافي، وما إن يستعمله حتى يحس بدبيب العافية يسري في عروقه ، وإذا بإشراقتها تبدو في محيّاه كما تشرق الشمس بعد ليل بهيم. أترون هذا المريض، أو من حوله يفرِّط في الدواء، أو في جرعة واحدة منه؟! ، أحسب أنه سينظر إلى زجاجة الدواء كما ينظر إلى إكسير الحياة .

ومن ثمَّ فليس بغريب ولا بكثير أن يعتني المسلمون بالقرآن الكريم ، ويتعاهدونه بالتلاوة، والحفظ ، والتدبّر، والعلم ، والعمل، ولا عجب أن ترد النصوص في القرآن نفسه ، وفي السنّة أيضاً، موجبة تعاهد القرآن الكريم ، ومحذِّرة كلَّ التحذير من هجرانه ، أو التقصير في حقّه .

ولقد حكى الله تعالى شكاية الرسول ﷺ لربه هجران قومه للقرآن، فقال سبحانه : **﴿وقال الرسول يا ربِّ إنَّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾**[1]، وتوعَّد الله سبحانه الذين يعرضون عنه : **﴿كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنّا ذكرا من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا، خالدين فيه، وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾**[2]، ثم صور حالةُ ذلك المعرض يوم القيامة : **﴿ومن أعرض عن ذِكري فإنَّ له معيشةً ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى، قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال: كذلك أتتك آياتنا**

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٢) سورة طه: الآيات ٩٩-١٠١.

فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى﴾[1]، ثمَّ أخبر سبحانه أنَّ هذا عام لمن لا يؤمن بالقرآن: ﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى﴾[1].

وحين ذَمَّ الله تعالى هجران القرآن، فإنَّما يدعو إلى تعاهده والإكثار من تلاوته، وأمر بذلك: ﴿ومن الليل فتهجَّد به نافلة لك﴾[2]، وأثنى على الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقاموا بتلاوة القرآن آنـاء الليل: ﴿من أهل الكتاب أمّة قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾[3]، الآيات...

وفي السنة أيضاً، ورد مثل ما ورد في القرآن من الأمر بتعاهد القرآن الكريم، والتحذير من هجرانه، والوعيد على ذلك.

وقد ضرب الرسول ﷺ من نفسه مثلاً لتعاهد القرآن، فقد كان يقرأ على أصحابه، ويستقرئهم، ويحثّهم على القرآءة، ويعقد الراية لأكثرهم حفظاً للقرآن. وكان ﷺ يقول لأصحابه: «تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمدٍ بيده، لهو أشدُّ تفلُّتاً من الإبل في عقلها»[4]، وعند البخاري: أشد تفصِّياً، ويقول: «إنَّما مثل صاحب القرآن، كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»[5].

ويقول: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بـل نُسِّـي، واستذكروا القرآن، فإنَّه أشد تفصياً من صدور الرِّجال من النَّعم»[6].

وحتى لا يقع الناس في هجران القرآن، فقد بحث العلماء: (في كم يُقرأ

---

(1) سورة طه: الآيات ١٢٤-١٢٧.

(2) سورة الإسراء: من الآية ٧٩.

(3) سورة آل عمران: من الآية ١١٣.

(4) البخاري جـ٦، ص١٠٩-١١٠، ومسلم حديث ٧٩١، جـ١، ص٥٤٥.

(5) البخاري جـ٦، ص١٠٩، ومسلم حديث ٧٨٩، جـ١، ص٥٤٣.

(6) البخاري جـ٦، ص١٠٩، ومسلم، جـ١، ص٥٤٤.

القرآن)، كلهم يلتمس زمناً محدداً، إذا تجاوزه المسلم من غير أن يختم خشي عليه أن يكون له هاجراً. والأقوال في ذلك كثيرة، من أوسعها ما قاله إسحاق بن راهويه وغيره: (يكره للرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن)[1]، كما أنه يكره له أن يقرأه في أقلّ من ثلاثة أيـام[2]، ومع هذه التوسعة، فوا أسفا ما أكثر الذين يهجرون القرآن في أيامنا هذه، ومنهم من لا يعرف ختمه إلاَّ في رمضان.

ولا يقتصر هجر القرآن على هجر تلاوته، بل على هجر النظر في المصحف، فدعا العلماء إلى النظر فيه، ولذا فضَّل بعضهم قرآءة القرآن من المصحف على قرآءته عن ظهر قلب، معلِّلين ذلك بأنَّه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف وهو عبادة، كما صرَّح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه)[3]. ورووا عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (أديموا النظر في المصحف)، وعن عمر رضي الله عنه، أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: إذا رجع أحدكم من سوقه، فلينشر المصحف، وليقرأ، قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف، فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان، فيستذكر منه، أو تحريف كلمة، أو تقديم، أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن، لأن الكتابة لا تدل على الأداء)[4].

وليس على وجه البسيطة كتاب يحرم هجره، ويجب تعاهده، تلاوةً ونظراً، حاشا القرآن الكريم، فهذا من خصائصه التي لا يشاركه فيها كتاب. . .

---

(١) يعني لا يختم فيها القرآن لأن مجرد القراءة لا يتركها المسلم بضع ساعات. فضلاً عن أن يتركها أربعين يوماً، فهو يقرأ في صلواته الخمس.

(٢) فضائل القران: ابن كثير، ص٨١.

(٣) المرجع السابق ص٧٦.

(٤) المرجع السابق ص٧٦-٧٧.

من خصائص القرآن الكريم:

التحذير من نسيانه، ،

ويراد به أن ينسى أحد ما حفظه من سور القرآن، فهو هجران وزيادة، فمن نسي شيئاً من حفظه فقد هجر تلاوته، وختمه، والنظر فيه، وقد يهجر إنسانٌ القرآن، ولا ينسى حفظه، ولهذا فرقت هنا بين الهجران، والنسيان، فجعلت ذم الوقوع في كل واحد منهما من خصائص القرآن.

ولِمَا لنسيان القرآن من الآثار الخطيرة، فقد حمى الله تعالى رسوله منه: ﴿**سنقرئك فلا تنسى، إلاَّ ما شاء الله**﴾(1)، وسمى الله القرآن ذكراً: ﴿**وقد آتيناك من لدنا ذكراً**﴾(2).

وقد جاء في السنة الوعيد الشديد لمن نسي القرآن فمن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ أجور أُمَّتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت عليَّ ذنوب أُمَّتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن، أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»(3)، وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من امرىء يقرأ القرآن، ثم ينساه، إلاَّ لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة أجذم» يعني: منقطع الحجة(4)، وقد اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - في المراد بالنسيان، فروى القرطبي عن سفيان بن عيينة أنه كان يذهب إلى أن النسيان الذي يستحق صاحبه الذم ويضاف إليه الإثم هو الترك للعمل به وأن النسيان في لسان العرب: الترك، قال الله تعالى: ﴿**فلما نسوا ما ذكِّروا به**﴾(5)، أي: تركوا، وقال: ﴿**نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾(6)، أي: تركوا طاعة الله فترك

---

(1) سورة الأعلى: من الآيتين ٦-٧.

(2) سورة طه: من الآية ٩٩.

(3) رواه أبو داود، حديث ٤٦١، جـ١، ص١٢٦، والترمذي حديث ٢٩١٦، جـ٥، ص١٧٨-١٧٩.

(4) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص١٣٧.

(5) سورة الأعراف: من الآية ٦٥.　　(6) سورة الحشر: من الآية ١٩.

رحمتهم، قال سفيان: (وليس من اشتهر بحفظ شيء من القرآن، وتفلّت منه بناس، إذا كان يحلّ حلاله، ويحرّم حرامه)[1].

قلت: لو كان المراد بالوعيد على نسيان القرآن هو ترك العمل به لما كان هناك مزية لتخصيص القرآن بالذكر، فقد ورد الوعيد على ترك الأوامر الشرعية كلها، فلا بد من معنى خاص بالقرآن عند الوعيد على نسيانه، فلا يصرف النص عن معناه الظاهر إلاّ لدليل، أما قوله ـ رحمه الله تعالى ـ: (إن النسيان في لسان العرب الترك)، فجوابه: أن من معانيه أيضاً ماهو(ضد الذكر والحفظ)[2]، وهو المتبادر للفهم من النصوص السابقة. ولكن ينبغي أن نقول: أن النسيان نوعان: نسيان نشأ عن اشتغال بأمر دنيوي ـ ولا سيما إن كان محظوراً ـ[3]، أدى بصاحبه إلى الاشتغال عن القرآن وهجره، وإهمال تلاوته، ولا أقصد بالأمر الدنيوي كسب قوته، ولكن الإفراط واللهاث وراء المادة، وهذا مُشاهد عند كثير من الناس ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ولا شك أن هذا مذموم غير محمود، بل يعده بعض العلماء من الكبائر[4]، والذي أراه أن هذا هو الذي تقصده الأحاديث السابقة.

ونسيان نشأ عن غير تفريط من صاحبه، بل هو ناتج عن ضعف الذاكرة، أو تقدّم السن، أو أشغال مباحة لا طاقة للإنسان في دفعها، خاصة إن نشأ نسيانه عن اشتغال بأمر ديني كالجهاد ـ كما قال ابن حجر رحمه الله تعالى[5]، فإن هذا لا يدخل إن شاء الله ـ في الوعيد الوارد في هذه الأحاديث.

وإذا نظرنا إلى عالمنا المعاصر، وجدنا أن نسيان القرآن بكل معانيه قد فشا

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص١٣٧.

(٢) لسان العرب، مادة «نسا» جـ١٥، ص٣٢٢.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص٨٥.

(٤) فتح الباري، جـ٩، ص٨٦.

(٥) فتح الباري، جـ٩، ص٨٥.

في كثير من الناس ـ نسأل الله لنا ولهم العافية ـ وما ذاك إلّا لكثرة الذنوب والمعاصي، حتى قال الضحّاك بن مزاحم ـ رحمه الله تعالى ـ: (ما من أحد تعلّم القرآن، ثم نسيه إلّا بذنبٍ أحدثه)[1].

ولم يرد الوعيد على نسيان شيء من النصوص والأقوال إلّا على نسيان القرآن الكريم، فذلك من خصائصه...

من خصائص القرآن الكريم:

رسمه،،

قلت في أسماء القرآن الكريم وصفاته أن من أسمائه: القرآن، وأن من أسمائه: الكتاب، وأنه روعي في تسميته بالقرآن كونه متلواً بالألسن، وروعي في تسميته بالكتاب كونه مدوناً بالأقلام.

وكما برز علماء وأئمة في قرآءته وتلاوته، فقد برز علماء وأئمة أيضاً في كتابته وتدوينه.

ورسم المصحف توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه، ولا يدركُ سره كل سره، فكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في (مائة) دون زيادتها في (فئة)، وإلى سر زيادة الياء في (بأييد)، أو الألف في (لا أذبحنه)، أو الواو في (سأوريكم)، وما سر قلب الألف واواً في مثل (الصلوة)، أو حذفها في مثل (الظلمين)، (خلدين)، ونحو ذلك من خصائص رسم المصحف مّما يجعلنا نوقن أن رسم المصحف لا يرجع إلى مصطلحات في الكتابة تعارف عليها البشر، بل يجعلنا نوقن أن القرآن كما تلقى الناس قرآءته تلقوا كتابته.

فالقرآن كله كتب بين يدي الرسول ﷺ، ولو وقع فيه خطأ لنبّه الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ لتداركه، فقد تعهّد الله بحفظه، وهو عام يشمل: حفظ قرآءته، وحفظ كتابته من التحريف، والتغيير، والتبديل. والكتابةُ هي سبيل القرآءة وحفظها حفظ للقرآءة.

---

(١) فتح الباري، جـ٩، ص٨٦.

أما نسبة الرسم إلى عثمان رضي الله عنه، فهي نسبة جمع، لا نسبة إنشاء وابتداء، فقد كتب القرآن الكريم بين يدي الرسول ﷺ وتلاه على أصحابه، وصدر عنه الصحابة، وقد حفظوا القرآن تلاوة، ونقلوه كتابة، ثم انتشرت كتابته بينهم، كما انتشرت قرآءته حتى وصل إلى عهد عثمان رضي الله عنه، فجمع القرآن في مصحف واحد، حقق في الآية أمرين: ثبوت تلاوتها، وصحة كتابتها، فليست تلاوة الآية من عثمان، وليس رسمها منه، بل نقلاً عن الرسول ﷺ. ولما أتمَّ عثمان جمع القرآن أرسل نسخاً منه إلى الآفاق الإسلامية يلتزمون قرآءتها، وكتابتها، وجعلوا مصحف عثمان رضي الله عنه إماماً لهم يقتدون برسمه فسمي بـ (المصحف الإمام).

وظفر جمع عثمان رضي الله عنه بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، فلم يخالف أحد منهم في تلاوته، ولا في كتابته، بل ذهبوا إلى مصاحفهم يمزِّقونها أو يحرقونها، حتى لا تخالف جمع عثمان، ولو كان المراد صحة التلاوة وحدها لأبقوا مصاحفهم وتلوا كما جاء في مصحف عثمان، ولكنهم لما علموا أن الأمر يشمل القرآءة والكتابة بادروا من فورهم إلى التخلص مما بأيديهم، وإلى الكتابة وفق جمع عثمان، وفي هذا، ولا شك، حجة قوية على صحة جمع عثمان من الناحيتين.

ثم أجمع التابعون ومن بعدهم على ذلك أيضاً، فلم يخالف أحد منهم مصحف عثمان رضي الله عنه، ثم ظهرت طائفة في المسلمين تدعوا إلى كتابة القرآن وفق الرسم الإملائي، بحجة تيسير قرآءة القرآن على الطلاب والمبتدئين، وتعلّمهم النطق الصحيح للكلمات القرآنية على الطريقة الإملائية التي يعرفونها في مدارسهم.

ومن هؤلاء من دعا إلى هذا بنيَّة خالصة وبدافع الغيرة على القرآن الكريم، وباعتقاد خاطىء أن رسم المصحف اجتهادي، وليس بتوقيفي، ومنهم من يدرك الجوانب الإيجابية للرسم العثماني، فدعا إلى خلافه مساهمةً منه في الكيد للإسلام والمسلمين، بل دعا بعضهم إلى كتابته بالأحرف اللاتينية، وهي دعوات مشهورة باءت بالفشل والحمد لله، وليس هذا مقام عرضها ونقاشها. وقد أكَّد كثير من

علماء السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ على وجوب التزام الرسم العثماني، وقد سئل مالك ـ رحمه الله تعالى ـ هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟، فقال: لا، إلاّ على الكتبة الأولى، وقال أبو عمرو الداني: ولا مخالف له في ذلك من علماء الأمة وبالله التوفيق[1].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك[2]. وقال البيهقي في شعب الإيمان: (من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانةً منّا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم)[3].

بل قال الجعبري في شرح العقيلة: أن ذلك هو مذهب الأئمة الأربعة[4]، وقال الزمخشري في تفسيره: (خط المصحف سنة لا تغير)[5].

وقد صدرت الفتاوى في تحريم مخالفة الرسم العثماني من آخرها فتوى لجنة الفتوى بالأزهر بعدم جواز طبع المصحف الكريم بقواعد الإملاء الاصطلاحي الذي يستعمله الناس اليوم، ورأت اللجنة لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه[6].

ولا شك أن لالتزام الرسم العثماني فوائد جليلة، وحكم كثيرة، يدركها ذوو الألباب، ومن أهم هذه الفوائد: حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، فلا يتكلوا على مجرد القرآءة من المصحف وفي هذا مزيتان:ـ

---

(١) المقنع: لأبي عمرو الداني، ص٩-١٠.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧٩، والإتقان: السيوطي: جـ٢، ص١٦٧.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٦٧.

(٤) انظر رسم المصحف: القدوري، ص١٩٩.

(٥) الكشاف: الزمخشري، جـ٣، ص٨٢.

(٦) مجلة الأزهر: المجلد السابع، الجزء العاشر، شوال، ١٣٥٥هـ، ص٧٢٩ وما بعدها.

المزية الأولى: التوثق من ألفاظ القرآن، وطريقة أدائه، وحسن ترتيله، وتجويده، فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف مهما تكن قاعدة رسمه، واصطلاح كتابته، فقد تخطىء المطبعة في الطبع، وقد يخفى على القارىء بعض أحكام تجويده: كالقلقلة، والإظهار، والإخفاء، والإدغام، والروم، والإشمام، ونحوها، فضلاً عن خفاء تطبيقها. ولهذا قرَّر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بدَّ من التثبت في الأداء، والقرآءة بالأخذ عن حافظ ثقة.

المزية الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ وتلك خاصة من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم[1].

وممـا يؤكـد عدم الاكتفـاء بالقـرآءة من المصحف ووجـوب التلقي عن القرآء، أنَّ الرسول ﷺ كان يرسل إلى القبائل التي دخلت في الإسلام بالقرّاء، ولا يكتفي بإرسال المصاحف وحدها. فإن قلت: إنه يرسلهم ليعلموهم الدين كله، قلت: فإن عثمان رضي الله عنه لَمَّا أرسل المصاحف بعد نسخها، أرسل مع كلِّ مصحف قارئاً يدلّ الناس على رسم القرآن، ويعلِّمهم قرآءته، فأمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يقرىء أهل المدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة[2]، فدل على أن التزام الرسم العثماني مقصود، وأن من فوائده الالزام بتلقي القرآن عن قارىء، حتّى يتحقَّق اتِّصال السند والتوثق من ألفاظ القرآن.

لو لم يكن في التزام الرسم العثماني إلاَّ هذه الفائدة بمزيتيها لكفت، فكيف إذا كان فيه فوق هذا أن الرسم العثماني يحتمل وجوه القرآءآت المتواترة عن رسول الله ﷺ، ولذلك شرط أئمة القرآء لقبول القرآءة موافقة الرسم العثماني، ولهذا نجد جميع القرآءآت العشر المتواترة، مطابقة للرسم العثماني قبل النقط والشكل، وعلى هذا فرسم المصاحف من خصائص القرآن التي لم يكتب عليها غيره، ولهذا قال

---

(١) مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني، جـ١، ص٣٦٩.

(٢) الجمع الصوتي الأول: لبيب السعيد، ص١٤١، وقال نقله الجعبري عن أبي علي.

أبو حيان: (فقد صار الإصلاح في الكتابة على ثلاثة أنحاء: اصطلاح العروض، واصطلاح كتابة المصحف، واصطلاح الكتاب في غير هذين)[1]، وقال ابن درستويه: (خطان لا يقاس عليهما، خط المصحف، وخط تقطيع العروض)[2]، وقال أبو البقاء: (ذهب جماعة من أهل اللغة إلى كتابة الكلمة على لفظها، إلاَّ في خط المصحف، فإنهم اتَّبعوا في ذلك ما وجدوه في الإمام)[2].

وبهذا يتبين لنا ضرورة المحافظة على الرسم العثماني، فهو الرسم الذي كتب بين يدي الرسول ﷺ، ودونه أصحابه، وأجمعوا عليه، فلم يخالفه أحد منهم، وبالحفاظ على الرسم ضمان لصيانة القرآن من التحريف والتغيير في حروفه. والاستجابة لكتابته على الرسم الإملائي لكل عصر يؤدي إلى تغيير خط المصحف من عصر لعصر.

أما الدعوة إلى كتابة القرآن الكريم بالرسم الإملائي بحجة تيسيره للطلاب فالحجَّة غير كافية: (فشيء أحكمته القدماء، لا يترك مراعاته لجهل الجاهلين، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة)[3].

وعلينا إن كنا حريصين حقاً على تعليم أبنائنا للقرآن الكريم أن نعوِّدهم القرآءة في المصحف، ففي التعوّد على قرآءته تآليف لأذهانهم على رسم المصحف، وسيدرك أولئك أن الصعوبة التي تواجههم بادىء الأمر قد تحوَّلت بعد زمن يسير إلى سهولة ووضوح.

وإنما تصعب تلاوة القرآن وإتقانه على الذين يهجرونه دهراً طويلاً ثم يعودون لتلاوته دقائق معدودة، فأولئك سيواجهون ـ حتمًا ـ الصعوبة وسيحملون تقصيرهم، جوراً وظلمًا، على رسم المصحف، وما هو من الرسم، ولكنه من تفريطهم بالتلاوة، والله المستعان.

---

(١) همع الهوامع: السيوطي، جـ٢، ص٢٤٣.
(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧٦.
(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧٩.

من خصائص القرآن الكريم:

أنه متواتر كله، ،

حين أنزل القرآن كان الناس في مجتمع جاهلي، تعدَّدت صور جاهليته، وتنوَّعت، فبدأ القرآن الكريم في طمسها، وإزالتها، فما لبثت الأمة أن تحوَّلت في فترة وجيزة إلى خير أمة أخرجت للناس. وكأنما في هذا إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم الذي أخرج هذه الأمة من أدنى درجات الانحطاط الفكري والعقدي إلى أسمى الدرجات، وأعلاها، كأنما في هذا إشارة إلى أنه أقدر على إخراج الأمم التالية التي لم تصل إلى انحطاط الجاهلية الأولى.

وإذا كان الشفاء والعلاج لداء المجتمعات هو هذا القرآن، فحقٌّ أن يبقى هذا القرآن ما بقيت الأمم، وحقٌّ أن يحفظ من التحريف والتبديل، وحقٌّ أن تصل درجة ثبوته إلى اليقين الذي لا يخالطه شك.

أما بقاؤه فلا يزال بين أيدينا نقرؤه، ونتلوه، وما زالت نسخه المطبوعة تزداد، ووسائل بقائه تتنوع، من ورق تطبع فيه حروفه، واسطوانات، وأشرطة صوتية، وحاسبات، وأجهزة إلكترونية، كلها تحمل في طيَّاتها آيات القرآن الكريم.

أما سلامته من التحريف والتبديل، فلا يزال القرآن بين أيدينا هو هو، لم يتغير، ولم يتبدل، نقرأه كما قرأه الجيل الأول، بلا زيادة ولا نقصان: ﴿إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾[1]، أما أن تصل درجة ثبوته إلى اليقين الذي لا يخالطه شك، فهذا من سمات القرآن الأولى وخصائصه الجلية التي لا يرتاب فيها ذو لب، دونكم التاريخ فاستعرضوه، ودونكم العلماء فاستشهدوهم، التاريخ يشهد بأنه لم ير كتاباً تواتر كلُّ ما فيه، غير القرآن الكريم، وأن جميع الكتب السابقة، لم تصل إلى أدنى درجات التواتر، بل نالها من قلة الرواة في بعض درجات الإسناد، أو ضعف الرواة، أو انقطاع السند، أو الوضع، أو التحريف والتغيير والتبديل.. الشيء الكثير، ولم يسلم كتابٌ غير القرآن من هذه الأمور أو بعضها.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

أما العلماء فقد اتفقوا على تواتر القرآن وتواتر ما فيه، بل جعلوا التواتر جزءاً من تعريف القرآن الكريم، وما نقل عن طريق الآحاد قطعوا بأنه ليس من القرآن، قال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ: (لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواتراً، في أصله وأجزائه، وأما في محله ووضعه وترتيبه، فكذلك عند محققي أهل السنة للقطع بأن العادة تقضي بالتواتر في تفاصيل مثله، لأن هذا المعجز العظيم هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، مما تتوفر الدواعي على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحاداً ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن قطعاً)(١).

وأحسب أن إثبات التواتر للقرآن بَيِّنٌ لا يحتاج لدليل.

وكيف يصحّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فإذا كانت تلاوة القرآن عبادة بذاتها، يتلوه المسلمون آناء الليل، وأطراف النهار، في مساجدهم، وفي بيوتهم، ويتبارون في حفظه، وترتيله، وتعلمه، وتعليمه، وفوق هذا هو ركن من أركان صلواتهم، يتلونه في كل ركعة منها فلا يصح الدين إلاَّ بالصلاة، ولا تصح الصَّلاة إلاَّ بالقرآن.

وما فتيء المسلمون منذ فرضت الصلاة، يقيمونها بفروضها، ونوافلها، ما تركوا منها فرضاً، ولا قصروا في راتبة، ولا تركوا نافلة، وهم في صلواتهم يتلون القرآن ويرددونه.

زِد على هذا أن حفظ القرآن كما قال السيوطي: (فرض كفاية على الأمة، صرَّح به الجرجاني في الشافي، والعبادي وغيرهما، قال الجويني: والمعنى فيه أن لا ينقطع عدد التواتر فيه، فلا يتطرق إليه التبديل والتحريف)(٢).

إذا كان الأمر كذلك، فكيف ينقطع عدد التواتر؛ بقي أن أقول: إن التواتر

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ١، ص٧٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ١، ص٩٩.

لم يكن لكتاب آخر غير القرآن، وما ذاك إلاّ أنه ليس هناك كتاب شرع له ما شرع للقرآن أو حظي من أهله بما حظي به القرآن فلا ريب إذا اختص القرآن بالتواتر.

من خصائص القرآن الكريم:

أنه آخر الكتب المنزلة، ،

رسالة محمد ﷺ عامة للناس كلّهم، والقرآن أيضاً كذلك، فعن عمومية رسالة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافّةً للناس﴾[2]، وعن عمومية القرآن الكريم قال تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[3].

وإذا كانت رسالة محمد ﷺ عامةً، والقرآن يخاطب الناس جميعاً، من كان في عهده ﷺ ومن سيأتي من بعده، فإنه يظهر بهذا العموم أنها خاتمة الرسالات، وأنه خاتم الكتب المنزلة، فليست البشرية بحاجة إلى دين جديد ما دام هذا الدين يشملهم جميعاً، والقرآن يخاطبهم جميعاً، وهذا الزمخشري يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس﴾[4]، (إلاّ رسالة عامة لهم، محيطة بهم، لأنهم إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم)[5].

هذا ما يظهر من عمومية الرسالة، فكيف إذا كان ختم النبوة قد وردت فيه النصوص الصحيحة والصريحة، قال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٥) تفسير الكشاف: الزمخشري، جـ٢، ص٧.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

وتواترت الأخبار عنه ﷺ بأنه لا نبي بعده[1].

وإذا كان محمد ﷺ، خاتم النبيين، فإن القرآن الذي أنزل عليه خاتم الكتب المنزلة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن ختم الرسالة بمحمد ﷺ وختم الكتب بالقرآن الكريم، وختم الأمم بهذه الأمة، وختم الأديان بالإسلام، أمراً هيناً، بل هو أمر عظيم يحتاج إلى وقفات ووقفات.

فكون القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية، يعني أن القرآن حجة قائمة على كل من بلغه من الإنس والجن في كل زمان وفي كل مكان، وقد أُمر الرسول ﷺ ببيان ذلك في قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم، وأُوحيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[2].

ولهذا قال مقاتل بن سليمان ـ رحمه الله تعالى ـ: (ومن يبلغ القرآن من الجن والإنس فهو نذير لهم، يعني القرآن إلى يوم القيامة)[3]، وقال أبو السعود في تفسيره: (أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر ومن الثقلين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة، وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله، ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة)[4].

ويعني ختم الكتب بالقرآن أيضاً كمال الدين، قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[5].

---

(١) أصول الدين: عبدالقاهر البغدادي، ص١٦٣، والفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم، جـ١، ص٧٧، وتفسير ابن كثير، جـ٣، ص٥١٣-٥١٤، والأزهار المتناثرة: للسيوطي، ص٣٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٣) تفسير مقاتل، جـ١، ص٣٦٨، والبغوي، جـ٢، ص٨٩.

(٤) تفسير أبي السعود، جـ٢، ص٨٧.

(٥) سورة المائدة: من الآية ٣.

نعم يعني كمال الدين، فليس من الحكمة أن تختم الأديان بدين ناقص، والله عز شأنه حكيم عليم.

وتأمّل أخي المسلم كمال هذا الدين، واستعرض موكب الأديان من قبله، منذ خلق آدم عليه السلام، إلى رسالة محمد ﷺ، سترى أنبياء تترى، فإن تأملت وتدبّرت، رأيت كلّ نبي إنّما أرسل لقومه، وأن كل رسالة محدودة بزمن معين، فكلّ رسالة إنّما هي لطائفة خاصة في بيئة خاصة، ومن ثم كانت كل رسالة محكومة بظروفها، ومتوازنة مع هذه الظروف، فكان لكل منها شريعة للحياة تناسب حال الجماعة والزمان، والمكان، والعوامل المؤثرة في حياتها.

حتى إذا ما أراد الله أن يختم الأديان كلها بدين واحد يجتمع عليه الناس كلهم، أرسل لهم جميعاً رسولاً، برسالة تخاطب الفطرة الإنسانية التي لا تختلف في بيئة أو في عصر عن عصر، لا تخضع لزمان معين، ولا تتقيد بظروف معينة، لأنها تخاطب في الإنسان ملكة لا تتغير ولا تتبدل، لا تتحور ولا تتطور: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم﴾**[1].

فجاء هذا الدين بكل ما تحتاجه البشرية. وبهذا كان كمال الدين، وبهذا كان إتمام النعمة، وهو الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين، .واصطفاه لهم من الدين.

ويعني أيضاً وفاء الشريعة، وكمالها، وشمولها لحاجات البشر كلهم، في كل مكان، وفي كل عصر إلى يوم القيامة، ففي القرآن التفصيل: **﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾**[2]، فهو النظام الشامل الكامل لشؤون الحياة كلها، فلا يبتغي المؤمنون به بديلاً، ولا يرتضون إلاّ حكمه، ولا يقبلون إلاّ شريعته، ليس فيه نقص يستدعي الإكمال، ولا قصور يطلب الإضافة، ولا اعوجاج يحتاج إلى التعديل، ولا جمود يطلب التطوير، ولا البلى الذي يستدعي التجديد.

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام: من الآية ١١٤.

بل هو الكتاب الكامل، الوافي، المستقيم، المتجدد في عطائه، الصالح لكل زمان ومكان، وهذا بعض ما يعنيه كونه آخر الكتب المنزلة.

ويعني أيضاً حفظه عن التحريف، والتغيير، والتبديل، فكتاب لن ينزل من بعده كتابٌ حقّه أن يخصّ بالحفظ فلا تطاله يد التحريف، ولا تناله يد التغيير، ولهذا تعهّد الله سبحانه وتعالى بحفظه: **﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾**[1]، دون سائر الكتب السابقة، قال الزمخشري: (وهو حافظ ـ أي للقرآن ـ في كل وقت، من كل زيادة ونقصان، وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتولَّ حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار، فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه)[2].

ويعني كونه آخر الكتب المنزلة أن الدين الذي جاء به هو الدين الصحيح، الذي يجب اتباعه، والذي ينسخ الأديان كلها، فلا يبقى في الساحة سواه: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**[3]، وقال سبحانه: **﴿إنَّ الدين عند الله الإسلام﴾**[4]، وقال سبحانه: **﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[5].

ويعني كون القرآن آخر الكتب المنزلة، أن دينه دين خالد، وشريعته باقية، وأنها الرسالة الأخيرة للبشرية كلها، فمن بدَّلها، فقد ابتغى غير الإسلام ديناً: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**، فلا مجال أبداً لمزاحمة هذا الدين بدينٍ آخر، ولا مجال أبداً لإقصائه عن مكانه الذي خصه الله به، وما حِفْظُ القرآن إلى يوم القيامة، إلاّ بقاء لهذا الدين إلى يوم القيامة، فالله سبحانه وتعالى مُتمُّ نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) الكشاف: الزمخشري، جـ٢، ص٣١١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٥) سورة المائدة: الآية ٣.

من خصائص القرآن الكريم:
هيمنته على الكتب السابقة،،

بعث الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ومعه التوراة، فحرَّفها قومه، وبدَّلوا وغيَّروا، حتى أصبحت التوراة غير التوراة.

وبعث سبحانه عيسى عليه السلام ومعه الإنجيل، فحُرِّف كما حُرِّفت وبُدِّل كما بُدِّلت، حتى أصبح الإنجيل غير الإنجيل.

وبعث الله أنبياء آخرين، وأنزل معهم الكتب، ولم تسلم مما أصاب أمثالها، إلاَّ القرآن الكريم، فقد أبى الله سبحانه وتعالى إلاَّ حفظه: ﴿**إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون**﴾[1].

بل جعل القرآن مهيمناً على الكتب السابقة: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتَّبع أهواءهم عمَّا جاءك من الحقِّ، لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً**﴾[2]، فجاء القرآن بالعقيدة الإسلامية التي اتفق عليها الأنبياء كلهم، صافية نقية، ليكون ما جاء به القرآن حجة على الناس، وشاهداً على تحريف الأمم السابقة لما نزل عليهم من الكتب، ومصحِّحاً لأغلاطهم، وفاضحاً لأباطيلهم: ﴿**يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلاَّ الحق إنَّما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد**﴾[3]، ﴿**ماالمسيح ابن مريم إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبيِّن لهم الآيات، ثم انظر أنَّى يؤفكون**﴾[4]، ورد على اليهود فريتهم: ﴿**ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستَّة أيام، وما مسَّنا من لغوب**﴾[5].

---

(١) سورة الحجر: من الآية ٩.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٤٨. (٣) سورة النساء: من الآية ١٧١.

(٤) سورة المائدة: الآية ٧٥. (٥) سورة ق: الآية ٣٨.

ونعى عليهم عبادة غير الله: ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾[1]، وأبطل زعمهم: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلّت أيديهم، ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[2].

وردَّ على الفريقين عقيدتهم الباطلة: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون، اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إله إلّا هو سبحانه عمّا يشركون﴾[3].

وأبطل زعم اليهود أنهم شعب الله المختار: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾[4].

ورد زعم اليهود والنصارى معاً: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذِّبكم بذنوبكم بل أنتم بشَرٌ مِمّن خلق﴾[5].

وقولهم: ﴿وقالوا لن تمسَّنا النار إلّا أياماً معدودة، قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾[6].

وأنكر زعمهم قتل المسيح عليه السلام وصلبه: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، ما لهم به من علم إلّا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[7].

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٢٥.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٦٤.

(٣) سورة التوبة: الآيتين ٣٠-٣١.

(٤) سورة البقرة: الآيتين ٩٤-٩٥.

(٥) سورة المائدة: من الآية ١٨.

(٦) سورة البقرة: الآية ٨٠.

(٧) سورة النساء: من الآيتين ١٥٧-١٥٨.

وكشف ابتداعهم الرهبانية: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاَّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقَّ رعايتها﴾[1].

والقرآن حين يكذِّبهم، يتحدَّاهم بالإتيان بالتوراة: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾[2]، والآيات في هذا المعنى كثيرة وكثيرة، كلها شاهدة على تحريف التوراة والإنجيل ومثبتة الحق الذي يجب اتباعه، ودالَّة على أن الرسول ﷺ لو كان تلقى هذه الأخبار من أهل الكتاب في الجزيرة كما زعم خصومه، لجاءت موافقة لمعتقداتهم. لكن القرآن من لدن حكيم عليم، أنزل هذا القرآن الكريم وجعله مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب، يرجع إليه المحققون، وطالبوا الحقيقة، لمعرفة الخبر الصادق، والقصص الحق.

وفي القرآن نصوص تؤكد هذه الحقيقة ـ هيمنة القرآن ـ وتدعو أهل الكتاب إلى اتباعه، والأخذ به، وتحذرهم من ضلالاتهم، وتحريفاتهم الباطلة: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾[3].

وبيَّن في موضع آخر أن من مقاصد القرآن الأولى أن يبيِّن لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه فقال سبحانه: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلاَّ لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿إنَّ هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وإنه لهدىً ورحمةً للمؤمنين، إنَّ ربَّك يقضي بينهم بحكمه، وهو العزيز العليم، فتوكَّل على الله إنَّك على الحق المبين﴾[5]، هذا قبس من هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة لم يجعله الله سبحانه وتعالى إلاَّ لكتابه المبين.

---

(١) سورة الحديد: من الآية ٢٧.

(٢) سورة آل عمران: من الآيتين ٩٣-٩٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٥.

(٤) سورة النحل: الآية ٦٤. (٥) سورة النمل: الآيات ٧٦-٧٩.

من خصائص القرآن الكريم:
أن له نزولين،،

قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للنَّاس وبيِّناتٍ من الهُدى والفُرقان﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلةٍ مباركة﴾[2]، وقال عزَّ شأنه: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة القدر﴾[3].

تحدَّثت هذه الآيات الثلاث عن نزول القرآن الكريم، وأنه نزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر في شهر رمضان، والمعلوم قطعاً أن القرآن لم ينزل على الرسول ﷺ في ليلة واحدة، ولا في شهر رمضان وحده، وإنما نزل عليه في سائر الأيام والشهور في ثلاث وعشرين سنة، زد على هذا أن هناك آيات تدل على أن القرآن نزل مفرقاً: ﴿وقرآناً فرَقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزَّلناه تنزيلاً﴾[4].

ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: أن المرَاد بالنزول في هذه الآيات ليس النزول على محمد ﷺ، وإنَّما يراد بها نزول آخر هو نزوله جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

واستدلوا لذلك بأدلة أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ: ﴿ولا يأتونك بمثل إلاَّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾[5].

﴿وقرآناً فرَقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزَّلناه تنزيلاً﴾[6][7].

---

(١) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٢) سورة الدخان: الآية الثالثة.

(٣) سورة القدر: الآية الأولى.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٦) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٧) رواه الحاكم في مستدركه، وقال هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، جـ٢، ص٢٢٢.

وعنه رضي الله عنه قال: (فَصِلَ القرآنُ من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلاً)[١].

وعنه رضي الله عنه قال: (أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض)[٢]، وعنه رضي الله عنه قال: (أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، جملة، ثم أنزل نجوماً)[٣]، وما ورد أن عطية بن الأسود ـ رحمه الله تعالى ـ سأل ابـن عباس رضي الله عنهما فقال: أنه قد وقع في قلبي الشك في قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾[٤]، وقوله: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾[٥]، وقوله: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[٦]، وقد أنزل في شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وشهر ربيع الأول، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: (إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة، جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على سواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام)[٧]، وهذه أحاديث موقوفة على بـن عباس رضي الله عنهما، ومن المعلوم أن قول الصحابي فيما ليس للرأي مجال فيه، إذا لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع للرسول ﷺ، ونزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلاّ عن الرسول ﷺ، فثبت الاحتجاج بها[٨].

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه، وقال هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، جـ٢، ص٢٢٢.

(٢) رواه الحـاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد على شرطهما ولم يخرجاه).

(٣) المعجم الكبير: الطبراني، جـ١١، ص٣١٢، رقم الحديث ١١٨٣٩.

(٤) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٥) سورة القدر: الآية الأولى.

(٦) سورة الدخان: الآية الثالثة.

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، ص٢٣٦.

(٨) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٨.

واستدلّ العلماء أيضاً بدليلٍ لغوي على أن المراد بالآيات الأولى نزول القرآن جملة، إذ ورد فيها التعبير بلفظ الإنزال: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة﴾، ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة القدر﴾، ولم يرد بلفظ التنزيل إلاّ في وصف النزول الثاني، وفرّقوا بين الإنزال والتنزيل، فقال الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات: (والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً مرة بعد أخرى، والإنزال عام)[1].

وقال الزبيدي في تاج العروس: (قال شيخنا وفرق جماعة من أرباب التحقيق فقالوا: التنزيل تدريجي، والإنزال دفعي، كما في أكثر الحواشي الكشافية والبيضاوية)[2]، وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة القدر﴾، (إنما خصَّ لفظ الإنزال دون التنزيل لما روي أن القرآن أنزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل منجمًا بحسب المصالح)[2].

وعلى هذا فإن الآيات المذكورة بتحديدها مدة النزول بليلة من شهر رمضان، وباستعمالها لفظ الإنزال دون التنزيل، مع ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما تدل على أن للقرآن نزولاً آخر هو نزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، بل قال القرطبي: (لا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملةً واحدة، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل عليه السلام ينزل به نجمًا نجمًا في الأوامر والنواهي والأسباب في عشرين سنة)، وردَّ القرطبي أحد الأقوال لمخالفته الإجماع فقال: (وقول مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع أن القرآن أنزل جملة واحدة)، والله أعلم[3].

هذا عن النزول الأول، أما النزول الثاني، نزوله منجمًا، على الرسول ﷺ،

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص٧٠٥.

(٢) تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي، مادة (نزل)، جـ٨، ص١٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٢٩٨.

فإن الأدلة عليه قاطعة، قال تعالى: **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزَّلناه تنزيلاً﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتَّلناه ترتيلاً، ولا يأتونك بمثل إلَّا جئناك بالحقِّ وأحسن تفسيراً﴾**[2]، وهذا الرد القرآني على طلب الذين كفروا يدل على أمرين: [3]

الأول: أن القرآن نزل مفرقاً على النبي ﷺ.

الثاني: أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة كما اشتهر ذلك بين العلماء حتى كاد أن يكون إجماعاً[4].

ومن الأدلة على النزول الثاني ـ نزول القرآن منجمًا ـ آيات كثيرة أخرى جاءت بلفظ التنزيل الذي قال عنه العلماء آنفاً أنه يختص بما ينزل مفرقاً ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وانه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسانٍ عربيٍّ مبين﴾**[5]، وقال سبحانه وتعالى: **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾**[6]، وغير ذلك من الآيات ودلَّت على نزوله منجمًا الأحاديث الصحيحة بأنه كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل[7].

ويدل على نزوله منجمًا الواقع العملي في حياة الرسول ﷺ بنزول القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة، والأدلة من سيرة الرسول ﷺ في هذا قاطعة ومعلومة من الدين بالضرورة.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٢) سورة الفرقان: الآيتين ٣٢-٣٣.

(٣) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٤٦.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ١، ص٤٢.

(٥) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢-١٩٥.

(٦) سورة الجاثية: الآية ٣.

(٧) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ١، ص٤٢-٤٣.

وبهذا يظهر أن للقرآن الكريم نزولين، نزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة مباركة هي ليلة القدر وهي في شهر رمضان، ونزول ثانٍ من بيت العزة في السماء الدنيا إلى الرسول ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، وليس لكتاب آخر غير القرآن إلّا نزول واحد جملة والله أعلم.

من خصائص القرآن الكريم:

نزوله منجَّمًا،

يصاب الإنسان بمرض من الأمراض فينهك بدنه، ويقض مضجعه، ويعكر مزاجه، وحين يذهب إلى الطبيب يبذل جهده في معرفة دائه، فإن عرف وصف له دواءً، ووصف له الاستعمال، خذ هذا الدواء، واشرب منه في اليوم ثلاث مرات صباحاً، وظهراً، ومساءً، واستمر على ذلك مدة كذا. وقد يرتقي به الطبيب بعد استعمال الدواء الأول إلى دواء آخر يناسب صحته وقتئذ، ثم يرتقي به إلى دواء ثالث حسب شدة المرض وحالة المريض.

ترى لِمَ أعطى الطبيب الدواء للمريض شيئاً فشيئاً، إذا كان الشفاء في هذا الدواء فلِمَ لَمْ يأمر بشربه دفعة واحدة؟! وإذا كانت آحاد هذا الدواء قادرة على القضاء على جراثيم المرض، أفلا يكون الدواء كله قادراً على القضاء عليها؟ إن لم يكن أقدر؟!.

هكذا قد يخطر الأمر ببال من لا يزن الأمور بموازينها، ولا يعرف من الحياة سننها، ولا من التجارب عبرها، فلا بد من إدراك الفرق بين الإصلاح والهدم.

فالإصلاح يحتاج إلى وقت قد يطول، أما الهدم فغالباً لا يحتاج إلى معشار وقت ذاك، وهذا أمر معهود مشهود، فكم من بنيان بني في سنوات، وهدم في لحظات، وعلة الأبدان قد تأتي في لحظات، أمَّا الصحة والعافية فقد تحتاج إلى أيام وشهور، وكم من ساق كسرت في زمن عثرة، ولم يجبرها إلّا زمن طويل.

ولحكمة أراد الله أن يكون الإصلاح كذلك، يبتلي الصالحين ويمتحنهم، ولو كان طريق الإصلاح سهلاً ميسراً لصاحبه، لا يظهر له في الطريق معارضون،

ولا يأتيه من خلفه مفسدون، لأمسى الناس كلهم مصلحين، ولكنه الابتلاء بطول الزمن يظهر به أصلب المصلحين عوداً، وأقواهم إيماناً، وأكثرهم عزماً، ويظهر به من دون ذلك. ويدرك ذووا الألباب من المصلحين: أن أمر الإصلاح يحتاج إلى صبر طويل وأناة وروية، فينظرون إلى أثر إصلاحهم ينمو، كما ينظر المزارع إلى زرعه حتى يستوي على سوقه.

وقد كان العرب عند نزول القرآن، وبعثة الرسول ﷺ في حال شديد من الانحطاط الفكري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وسائر أمورها كاد أن يودي بهم إلى الهلاك، لولا أن بعث الله إليهم رسولاً يخرجهم من درك الجاهلية إلى رفعة الإسلام.

واقتضت الحكمة الإلهية التدرج في الارتقاء بهذه الأمة وانتشالها من أوحال الجاهلية شيئاً فشيئاً، رأفة بها، ومسايرة لطاقاتها وقدراتها، فهي لا تحتمل بحال من الأحوال التحول المفاجيء في سائر أحوالها فنزل القرآن على مقتضى هذه الحكمة منجمًا، يساير أحوال هذه الأمة، يدب فيها كما تدب الحياة في شجرة يابسة كادت أن تهلك، فإذا بالخضرة يدفعها الماء إلى أغصانها، فلا تلبث أن تورق وتزهر، أو كأرض جرداء نزل عليها الماء فاهتزّت وربت، وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج.

سرى القرآن الكريم في كيان هذه الأمة، وأدلج، وإذا به يستولي عليها، ويسيِّر أمورها، فتنقاد له، وإذا بها أُمّة القرآن.

ونزول القرآن منجمًا أمر معلوم، لا شك فيه يدرك بالضرورة من سيرة الرسول ﷺ، ومن تاريخ ظهور الإسلام.

ونَصَّ القرآن نفسه على نزوله منجمًا، وبَيَّن الحكمة من ذلك فقال سبحانه وتعالى: **﴿وقرآناً فرَقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزَّلناه تنزيلاً﴾**(1).

---

(1) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

وقد وقع اختلاف بين العلماء في نزول الكتب السابقة هل كان نزولها مثل نزول القرآن منجمًا أم كان نزولها جملة واحدة، والذي قال به جمهور العلماء أن الكتب السابقة نزلت كلها دفعة واحدة، أما القرآن فقد اختص بنزوله منجمًا.

وحين يقول أولئك العلماء بنزول الكتب السابقة جملةً واحدة فإنهم ـ حتمًا ـ لا يقصدون تلك التوراة التي كتبت بعد موسى عليه السلام، أو تلك الأناجيل التي سطرت من بعد عيسى عليه السلام، وإنما يقصدون ما أنزل على موسى، وما أنزل على عيسى وإن كان شابهما التحريف والتغيير والتبديل، حتى لم يعد يعرف الحق فيهما، من الباطل، فإن سألت عن دليل جمهور العلماء على أن نزول الكتب السابقة كان جملة واحدة، قلنا إنهم استدلوا بقوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزِّل عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك لنثبت به فؤادك ورتَّلناه ترتيلًا**﴾[1].

ووجه الاستدلال من ناحيتين:ـ

الأول: أن الكتب السابقة لو نزلت مفرقة لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى استنكار نزول القرآن مثل نزولها بل كان نزوله جملةً واحدةً هو المستنكر لمخالفته سنة الكتب التي قبله.

الثاني: موافقة القرآن لاعتقادهم ذلك في الكتب السابقة، ولو كان نزول الكتب السابقة مفرقاً كما نزل القرآن، لردَّ عليهم بالتكذيب، وصحَّح مفاهيمهم، كما صحَّحها حين قالوا: ﴿**مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**﴾[2].

فصحَّح مفاهيمهم بقوله سبحانه: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلَّا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾[3]، وحين قالوا: ﴿**أبعث الله بشراً**

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٠.

رسولاً﴾[1]، صحّح الله مفاهيمهم بقوله سبحانه: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾[2]، وبقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم﴾[3].

لكنهم حين قالوا: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾[4]، أقرّ قولهم ولم يكذّبه، ولم يرد عليهم بأن الكتب كلّها تتنزل منجمة، وإنما بيّن الحكمة في ذلك بقوله سبحانه: ﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً، ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق، وأحسن تفسيراً﴾[5].

فدلَّ هذا على أمرين: . .

(١) أن القرآن وحده هو الذي نزل منجمًا.
(٢) أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة.

وعلى ذلك، فنزول القرآن منجمًا من خصائصه، وقد ذكر العلماء حكمًا عديدة، وفضائل كثيرة، لهذه المزية لنزول القرآن ليس هذا مقام إيرادها.

من خصائص القرآن الكريم:
نزوله بالأحرف السبعة، ،

حين نزل القرآن الكريم كانت الأمة العربية قبائل متعددة، اختلفت لهجاتها، وتباين أداؤها لبعض الألفاظ والعبارات.

واستصفى العرب لهجة قريش، وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة، ذلكم أنها باعتراف جميع القبائل العربية، كانت أغزرها مادة، وأرقها أسلوباً، وأغناها ثروة، وأقدرها على التعبير البليغ الفصيح بأساليب شتى، وفنون متعددة، حتى أصبحت

---

(١) سورة الإسراء: من الآية ٩٤.

(٢) سورة الإسراء: من الآية ٩٥.

(٣) سورة الأنبياء: من الآية ٧.

(٤) (٥) سورة الفرقان: الآيتين ٣٢-٣٣.

لغة الأدباء والشعراء، اصطفوها واصطفت لهم حتى كان الشاعر من غير قريش يتحاشى خصائص لهجته في بناء الكلمة، وتركيب الجملة، والنطق بالأحرف، ليتحدث إلى الناس بلغة ألفوها[1]، ويخرج قصيدته من ضيق لهجته إلى سعة لهجة قريش. إذاً فلقد كانت لهجة قريش حين نزل القرآن هي اللهجة المثالية المصطفاة عند خاصة العرب، لا عامَّتهم، وزاد من مكانتها ومن انتشارها نزول القرآن الكريم بلسان قريش.

بيد.. أن هذه الوحدة اللغوية التي صادفها الإسلام حين ظهوره، وقوَّاها قرآنه بعد نزوله، لا تنفي ظاهرة تعدد اللهجات قبل الإسلام، ولا تعني زوالها من بعده، بل من المؤكد أن عامة العرب وخاصتهم لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدثون بتلك اللغة المثالية الموحدة، وإنما يعودون إلى لهجاتهم، وتظهر على عباراتهم صفات لهجاتهم وخصائصها[2].

ومثل هؤلاء العامة قد يشق عليهم الالتزام التام بلهجة لم تألفها أسماعهم، أو تتوطن عليها ألسنتهم، والقرآن حين نزل، نزل للناس كافَّة بلسانٍ عربيٍّ مبين، فاقتضت رحمة الله أن ينزل القرآن بما ييسر على هذه الأمة تلاوة القرآن. فنزل القرآن بالأحرف السبعة وليس هذا لغير القرآن الكريم.

والأدلة على نزول القرآن بالأحرف السبعة متواترة أذكر منها:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» رواه البخاري ومسلم[3].

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، ص١١٣-١١٤.

(٢) دراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح، ص٥٩-٦٠.

(٣) صحيح البخاري في كتاب فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، جـ٦، ص١٠٠.

وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، جـ٢، ص٥٦١.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة، فتصبَّرتُ حتّى سَلَّمَ، فلبّبته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ أرسله. اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القرآءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القرآءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه» رواه البخاري ومسلم[1].

والأحاديث في ذلك كثيرة، بل تتَّبع ابن الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ طرق حديث واحد منها فقال: (وقد تتبَّعت طرق هذا الحديث في جزء مفرد جمعته في ذلك فرويناه من حديث عمر بن الخطاب، وهشام بن حكيم بن حزام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وأبي سعيد الخدري، وحذيفة بن اليمان، وأبي بكرة، وعمرو بن العاص، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، وسمرة بن جندب، وعمر بن أبي سلمة، وأبي جهيم، وأبي طلحة الأنصاري، وأم أيوب الأنصارية رضي الله عنهم)[2].

بل قال ابن الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ: (وقد نص الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله تعالى ـ على أن هذا الحديث تواتر عن النبي ﷺ)[3].

---

(١) صحيح البخاري، ج٦ ص١٠٠، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٦٠.

(٢) النشر في القرآءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢١.

(٣) النشر في القرآءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢١، والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٤٥. وفضائل القرآن: ابن كثير، ص٣٨.

وأخرج أبو يعلى في مسنده أن عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر: أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال:

(إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف)، لما قام، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك فقال:

وأنا أشهد معهم)[1].

ويشهد لاختصاص القرآن بنزوله على الأحرف السبعة حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

(كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرفٍ واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب، وعلى سبعة أحرف)، الحديث[2]، وفي رواية أخرى عن فلفلة الجعفي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إن القرآن نزل على نبيكم ﷺ من سبعة أبواب، على سبعة أحرف، أو قال حروف، وإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد)[3].

---

(١) النشر في القراءآت العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢١. الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٤٥.

(٢) أخرجه مرفوعاً الطبري في تفسيره، جـ١، ص٦٨، والحاكم في مستدركه، جـ١، ص٥٥٣، وانظر فضائل القرآن لابن كثير، ص٣٨، وعجائب علوم القرآن، لابن الجوزي، ص٩٤، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه). أ. هـ. وصححه ابن حبّان فتح الباري، جـ٩، ص٢٩، وقال ابن حجر: (وفي تصحيحه نظر لانقطاعه بين أبي سيلمة وابن مسعود)، وأورد قولاً لابن عبد البر: (هذا حديث لا يثبت لأنه من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ولم يلق ابن مسعود). (قلت): أخرج الحديث ابن الجوزي في عجائب علوم القرآن، ص٩٤، من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال لابن مسعود.. الحديث، وبهذا يكون السند متصلاً، والحديث صحيحاً لا مطعن في رجاله.

(٣) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٤٤٥، وأخرجه النسائي في فضائل القرآن، ص٥٣، وفضائل القرآن لابن كثير، ص٢٦، وأبو داود السجستاني في كتاب المصاحف، ص٢٥

وقد أدرك اختصاص القرآن بنزوله على سبعة أحرف كثير من العلماء قديمًا وحديثاً، فهذا الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول معلقاً على ذلك: (ومعنى ذلك كله الخبر منه ﷺ عمّا خصّه الله به وأمته من الفضيلة والكرامة، التي لم يؤتها أحداً في تنزيله[1]. وأكد ذلك مرة أخرى فقال: (وخصَّ الله نبيَّنا محمداً ﷺ وأمته بأن أنزل عليهم كتابه على أوجه سبعة من الوجوه التي ينالون بها رضوان الله ويدركون بها الفوز بالجنة إذا أقاموها فكل وجه من أوجهه السبعة باب من أبواب الجنة، التي نزل منها القرآن، لأن العامل بكل وجه من أوجهه السبعة عامل في باب من أبواب الجنة، وطالب من قبله الفوز بها)[1].

وقال الأستاذ إبراهيم علي عمر: (من الخصائص الكبرى للقرآن الكريم أن الله عزَّ وجلّ أنزله على سبعة أحرف، وهذه خاصية انفرد بها القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية)[2].

فإن سألت بَعْدُ عن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف قلنا: أن ابن الجزري ـ رحمه الله تعالى ـ بيَّن ذلك فقال: (فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها، شرفاً لها، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها، أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال له: (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال ﷺ: اسأل الله معافاته ومعونته، إن أمتي لا تطيق ذلك)، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف)[3].

= قال الأستاذ أحمد شاكر (إسناده صحيح)، مسند الإمام أحمد، جـ٦، ص٤٢٥٠، قلت: العلة التي أشار إليها ابن حجر رحمه الله تعالى في الحديث السابق منتفيةً هنا فهو متصل، ومثل هذا أمر غيبي لا مجال للراي فيه، ومعلوم أن لقول الصحابي في ما لا مجال للرأي فيه، حكم المرفوع.

(١) جامع البيان: الطبري: جـ١، ص٧-٧١.

(٢) القرآن الكريم تاريخه وآدابه: ابراهيم علي عمر، ص١٠٥.

(٣) النشر في القراءآت العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢٢.

ثم بينّ ـ رحمه الله تعالى ـ حكمة أخرى فقال: (وإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وذلك أن الأنبياء عليهم السلام، كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم، والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق أحمرها، وأسودها، عربيها، وعجميها، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتعليم، والعلاج، لا سيما الشيخ، والمرأة، ومن لم يقرأ كتاباً، كما أشار إليه ﷺ فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلّف المتكلف وتأبى الطباع[1].

ويبن حكمة التيسير أيضاً الإمام ابن قتيبة رحمه الله تعالى فقال: (فكان من تيسيره (سبحانه وتعالى) أن أمره ـ أي رسول الله ﷺ ـ بأن يقرىء كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم فالهذلي يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين)، لأنه هكذا يلفظ بها، ويستعملها، والأسدي يقرأ: تِعلمون وتِعلم (بكسر التاء) و(تِسود وجوه) و(ألم إعهد إليكم)، والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز، إلى أن قال. . . ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمِرَ أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً، وناشئاً، وكهلاً، لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلاّ بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات، كتيسيره عليهم في الدين)[2].

أيها الأحبة. . .

حين نزل القرآن الكريم لم يكن ثَمَّ اتصال وثيق بين القبائل العربية، فقد كان أهل كل قبيلة يعيشون في أقاليم خاصة بهم لها حدود ومسافات ومن ثمَّ لم يكن هناك تأثير وتأثر يذكر بين اللهجات، فاتسع الفاصل اللغوي بين لهجات

---

(١) النشر في القراءآت العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢٢.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص٣٩-٤٠.

العرب، وقد كان هذا الفاصل مهيأً للاتساع ثم الانفصال والتشتت، لولا أن الله تدارك هذه الأمة ولغتها بالقرآن الكريم، فهذّب الأمّة، ووثّق الصلات، والعلاقات الاجتماعية، وأزال الطبقية، والفروق القبلية، وعدّد وجوه الاتصال واللقاء، فتمازجت اللهجة، وانمحى الضعيف، وبقي الصحيح، واستمرت اللهجات تنصهر في لغتها الأم العربية، وتذوب فيها، حتى إذا ما جاءت خلافة عثمان رضي الله عنه وأرضاه، أدرك بثاقب نظره، ومعه الجَمُّ الغفير من الصحابة، أن الحاجة الداعية إلى تعدد الأحرف لتعدد اللهجات قد زالت، وأن الأيسر للأمة بعد أن اتحدت لغتها، أن تتحد على حرف واحد من الأحرف السبعة، فكان ذلك وكانت عين الحكمة.

من خصائص القرآن الكريم:
الأحرف المقطعة في أوائل السور، ،

افتتح الله سور القرآن الكريم بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها وهي إجمالاً:

(١) الاستفتاح بالثناء نحو (الحمد لله).
(٢) الاستفتاح بحروف التهجي نحو الم، المص، طه.
(٣) الاستفتاح بالنداء نحو (يا أيها المدثر).
(٤) الاستفتاح بالجمل الخبرية نحو (اقترب للناس حسابهم).
(٥) الاستفتاح بالقسم نحو (والذاريات) و(الضحى).
(٦) الاستفتاح بالشرط نحو (إذا وقعت الواقعة).
(٧) الاستفتاح بالأمر نحو (اقرأ باسم ربك).
(٨) الاستفتاح بالاستفهام نحو (هل أتى).
(٩) الاستفتاح بالدعاء نحو (ويل للمطففين).
(١٠) الاستفتاح بالتعليل في (لإيلف قريش).

وقد جمعها بعضهم في بيتين فقال:-

أثـنى على نفســه سبحـانــه بثبــو
ت المـدح والسلب لما استفتح السورا
والأمـر شرط النـدا التعليل والقسم
الدعاء حروف التهجي استفهم الخبرا[1]

وهذه الأنواع يستفتح بها عادة كثير من المتكلمين كلامهم، إلَّا نوعاً واحداً تميَّز القرآن بالاستفتاح به، ولم يشترك معه فيه كتاب، ولا متكلم، لا من قبله، ولا من بعده، ألا وهو الاستفتاح بحروف التهجي، أو الأحرف المقطعة في أوائل السور.

واعلم أن مجموع الأحرف المقطعة في أوائل سور القرآن الكريم ثمانية وسبعون حرفاً وبحذف المكرر منها تبلغ أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: (نص حكيم قاطع له سر).

وقد جاءت هذه الأحرف في أوائل السور على خمس حالات:

الحالة الأولى: على حرف واحد نحو ص، ق، ن.
الحالة الثانية: على حرفين نحو طه، يس، حم.
الحالة الثالثة: على ثلاثة أحرف نحو الۤم، الۤر، طۤسم.
الحالة الرابعة: على أربعة أحرف نحو الۤمص، الۤمر.
الحالة الخامس: على خمسة أحرف نحو كهيعص، حم عسق.

واختلف العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ كثيراً في المراد بهذه الأحرف فقالت طائفة: إن هذا علم مستور وسر محجوب، استأثر الله بعلمه، وقال الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ: (انها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونَكِلُ العلم فيها إلى الله عز وجل)[2].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص١٦٤-١٨١.
(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص١٧٣.

وقالت طائفة أخرى: إنَّ المراد منها معلوم، وذكروا فيه ما يزيد على عشرين وجهاً، قال الزركشي (منها البعيد ومنها القريب)[1].

وليس في وسعي أن أستعرض هذه الأقوال، وحسبي أن أذكر قولين أحسبهما أرجح الأقوال:ـ

القول الأول: حين أُنزل القرآنُ على يد محمد ﷺ، معجزة يظهر بها على قومه، لم يكتف بالتحدي، ثم ينزوي يرجف فؤاده خشية أن يأتي أحد بمثله، بل برز إليهم مكـرراً تحديه عدة مرات، ومستثيراً للهمم، وموقظاً لها، ومسفهاً لأحلامهم، وساخراً، وناقضاً لمعتقداتهم، ومبطلاً لمبادئهم، وعاداتهم، مما يرفع درجة قبول التحدي إلى أعلاها لو كانوا يملكون شيئاً من ذلك.

وكان القرآن يكرر عليهم التحدي بأساليب مختلفة ويدعوهم إلى أن يجتمعوا مع من شاؤوا حتى الجن ويخبر سلفاً أنهم لن يستطيعوا مع ذلك الإتيان بمثله.

ويكرر عليهم التحدي في أوائل السور فهو حين يقول: (الم) يقول بعدها: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾[2]، أو يقول بعدها: ﴿**تلك آيات الكتاب الحكيم**﴾[3]، وحين يقول: (طس) يقول بعدها: ﴿**تلك آيات القرآن وكتاب مبين**﴾[4]، وحين يقول (طسم) يقول بعدها: ﴿**تلك آيات الكتاب المبين**﴾[5]، وهكذا في الآيات الأخرى نجدها بعد فواتح السور بهذه الأحرف تتحدث عن القرآن الكريم، وكأنما في هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم الذي تحدَّاكم الله سبحانه وتعالى بأن تأتوا بمثله إنما هو مؤلف من الحروف التي تقرأون، والتي بها تكتبون، وهي الألف والنون والصاد والقاف، إلخ، وهي حروف تعقلونها، وتبنون كلامكم منها، فليست مادته ببعيدة عن متناولكم، وليست بشيء لا تعرفونه، فدونكم إن استطعتم الإتيان بمثله.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي جـ١ ص١٧٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢.

(٣) سورة لقمان: الآية ٢.

(٤) سورة النمل: الآية ١. (٥) سورة القصص: الآية ٢.

ولا شك أن في هذا استثارة وأيّ استثارة حين تُلقي بسهامك وبقوسك إلى خصمك متحدياً له أن يفعل مثل ما فعلت.

ومما يشهد لهذا الرأي ويقويه، أن هذه الأحرف قد استهلت بها السور المكية، إلاّ سورتي البقرة وآل عمران، حتى جعلوا ذلك من ضوابط السور المكية.

ومعلوم أن التحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن وُجِّه أصلاً للخصوم المعاندين وهم أهل مكة، فَصِلَةُ هذه الأحرف بالتحدي والإعجاز هنا ظاهرة.

القول الثاني: أن الرسول ﷺ حين تحدى القوم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ما استطاعوا وعرضوا عليه أن يتخلى عن دعوته فأبى، فلم يسعهم إلا محاربته، ومحاربة ما جاء به بكل وسعهم، حاربوه بالإيذاء المادي والمعنوي، وحاربوا القرآن، وتعاهدوا على أن لا يستمعوا إليه، بل تنادوا بمكرٍ وخبث: ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1].

وحين يهم إنسان، أي إنسان بتوجيه خطاب لقومٍ، وهُم في لغوٍ وهرج ومرج، لا شك أنه سيبذل وسعه لجذب انتباههم، وشدِّ أبصارهم، مستخدماً وسائل شتّى من الأحرف، أو الكلمات، أو رفع الصوت، أو حتى الجذب باليدين.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يأتي قومه يدعوهم ويُسْمِعَهم القرآن في أسواقهم، ومنتدياتهم، وأماكن تجمعهم، وحين يهم بالشروع في الآيات القرآنية، يكون القوم في حالتهم المذكورة من الهرج والمرج، فهم بحاجة إلى التنبيه للاستماع، فهل يستعمل معهم ما ألفوه من أدوات التنبيه كالهاء، وأدوات الاستفتاح. هذا قد يكفي مع قوم يميلون إليه، وإلى سماع قوله، لكنه حتماً لا يكفي مع قومٍ يناوئونه العداء، إذاً فهو بحاجة إلى أن يأتيهم بأدوات تنبيه لا عهد لهم بها، ولم تألفها أذهانهم، ولم تعتدها أسماعهم، فيكون لوقعها جسأة في أذهانهم، تنقلهم من حال الانشغال، إلى حال الانتباه، فإذا توجهت أبصارهم،

---

(١) سورة فصلت: من الآية ٢٦.

تلقاه عليه الصلاة والسلام، تلا عليهم آيات القرآن، فكان ذلك سبباً لاستماعهم وجذبهم إلى القرآن، فترق القلوب وتلين الأفئدة.

ولا شك، أن هذه الأحرف في أوائل السور على كل حال من خصائص القرآن التي لم ترد في غيره، حتى النصوص في الجاهلية وفي الإسلام، لم تعرف ذلك، يقول الدكتور زكي مبارك: أن من مميزات القرآن (الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل الم، حـم، طسم، الر، ص، ن، ق، إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون، والتي لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية، ولا الإسلامية)[1].

ونقول أيضاً أنه فوق أنه لم يرد في النصوص الأدبية الجاهلية، ولا الإسلامية، كما يقول فإنه لم يرد في الكتب السماوية أيضاً فهو من خصائص القرآن التي لم ترد في كتاب سواه.

من خصائص القرآن الكريم:
أنه لا يجوز تعدي غاياته، ،،

من خصائص القرآن الكريم أنه لا ينبغي لمسلم أن يتجاوز ما يضربه من أمثال، أو حكم، ولا يتجاوز ما يجعله غاية لشيء، فيزعم أن هناك غاية خلفه، ومثلاً أدقّ من عبارة القرآن.

ومن هنا أنكر بعض العلماء على الحريري قوله في إحدى مقاماته: (فأدخلني بيتاً أحرج من التابوت، وأوهن من بيت العنكبوت)[2]، فقالوا في إنكارهم عليه: (فأي معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه حيث قال: ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾[3]، فأدخل (إنَّ) وبنى أفعل التفضيل، وبناه من

---

(١) النثر الفني: د. زكي مبارك، جـ١، ص٤٧.

(٢) مقامات الحريري: ص١٤٣.

(٣) سورة العنكبوت: ٤١.

الوهن، وأضافه إلى الجمع، وعرف الجمع باللاَّم، وأتى في خبر إنَّ باللام! وقد قال تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾[1].

وكان اللائق بالحريري ألا يتجاوز هذه المبالغة وما بعد تمثيل الله تمثيل، وقول الله أقوم قيل، وأوضح سبيل[2].

وأنكروا أيضاً على الشاعر قوله:

ولـــو أن ما بي من جوى وصبـــابـة
على جمل لم يبق في النـــار خالـــد[3]

فقالوا: (غفر الله له، والله تعالى يقول: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾[4]، فقد جعل ولوج الجمل في السَّمِّ غاية لنفي دخولهم الجنة، وتلك غاية لا توجد، فلا يزال دخولهم الجنة منفياً، وهذا الشاعر وصف جسمه بالنحول بما يناقض الآية[5].

وتقوم هذه الخاصية على أن هذه الغايات الواردة في القرآن الكريم هي كلام الله تعالى: ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا﴾[6]، فهو سبحانه حينَ يجعل شيئاً غاية لشيء، فهو يعلم أنه ليس بعده شيء من جنسه، فمن الذي يجرؤ على تجاوز علم الله فيدعي ان هناك ما هو أوهن من بيت العنكبوت مثلاً.

فإن قلت إنَّ المقام مقام أدب وبيان يقوم على المبالغة في الوصف، وأن الشعراء والأدباء يقولون أحياناً ما لا يعقل ويصلون إلى درجة لا توصل، قلت: إلاَّ في أوصاف القرآن فلتبق لها حرمتها، وفيما دونه سعة لمن لم يسعه عالم الواقع ودون حقائقه سعة لمن لم يسعه عالم الحقيقة.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٤٨٤.

(٣) لم أعثر على قائله.

(٤) سورة الأعراف: الاية ٤٠.

(٥) البرهان في علوم القران: الزركشي، جـ١، ص٤٨٤.

(٦) سورة الطلاق: الآية ١٢.

خـــــاتمـــــة:

بحمد الله وتوفيقه، هذا ما استطعت جمعه من خصائص القرآن الكريم، وهي خصائص سامية، ومزايا عظيمة، وإن شاركه شيء في أحدها، أو في بعضها، فإنه لا يشاركه فيها كلها غيره.

وقـد أدركت الأمـة الإسـلامية مكـانـة هذا الكتاب الكريم، فأسكنته في صدورهـا، وبـوّأتـه قلوبهـا، تقبـل على تلاوته، وتلتزم العمل بأحكامه، وتقوم بحفظه، ورعايته.

وأدركت طائفـة منهم، أن عزة هذه الأمـة، وشرفهـا، ومكـانتها السامية، ونهضتها، ورقيها، مربوط برباط وثيق بالقرآن الكريم، لن ترتقي إلاّ به، ولن تعز ما لم تتمسك بمبادئه، ولن تنهض ما لم تسلك منهجه، ولن تحيا حتى تَعِبَّ من معينه.

ودونكم التـاريخ فاستشهـدوه، والأيام فاسـألوها، سلوا يوم بدر بما انتصر المسلمون وهم قلة!!، وسلوا يوم الأحزاب، والفتح، وحنين، وسلوا اليرموك، والقادسية، وبلاط الشهداء، وحطين، سلوا الأندلس، والصين، سلوا خالداً وابن الجراح، وبطل السند، وصلاح الدين، كيف كانوا مع القرآن وكيف كان النصر لهم.

ثم استقرئوه بعد ذلك عن هذه الأمة حين نأت بجانبها عن القرآن إلاّ من شاء الله على يد من أهينت ومن أراق كرامتها وعزتها ومن سلط الله عليها، يبتليها ويمتحنها به، ألا إنه لن تكون لهذه الأمة عزة، ولن ترفع رايتها وتشمخ بأنفها كأسلافها، ما لم تتمسك بالقرآن، وتعض عليه بالنواجذ.

ولعلَّ قائلاً يقول: مسلم أخذته عاطفة جياشة فقام يمجد كتابه ويفيض بالأوصاف، ويطلق السمات ويتعلق بها لا سند له صحيح ولا واقع له من برهان.

أقول لهذا: حسبك أن خصوم هذا القرآن وأعداءه قد أدركوا سر هذا القرآن، وأدركوا سرَّ نهضة هذه الأمة، التي ألمحت إليها في مقدمة هذا الكتاب، وأدركوا خصائص القرآن التي انطوى عليها هذا الكتاب، فقاموا يبذلون وسعهم للقضاء على هذا القرآن، وأعلنوها حرباً عليه، يطأطئون رؤوسهم بعدها منهزمين، ويرفعون حناجرهم أحياناً معترفين.

هذا الدكتور (وطسون) أحد قادة التنصير في بلاد المسلمين يقول: (واننا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية، ونجد فيه الخطر الداهم، ذلك أن القرآن وتاريخ الإسلام، هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير)[1].

وقال اللورد كرومر وزير المستعمرات البريطانية: (جئتُ ـ إلى مصر ـ لأمحو ثلاث ـ القرآن، والكعبة، والأزهر ـ)[2].

ويقول جلادستون ـ رئيس وزراء بريطانيا ـ (مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق الإسلامي، ولا أن تكون هي نفسها بأمان)[3].

ويقول (وليم جيفورد بالكراف): (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه)[4].

ويقول المبشرّ تاكلي: (يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضي عليه تماماً، يجب أن نُريَ هؤلاء الناس

(١) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون: أنور الجندي، ص٢٦.

(٢) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون: أنور الجندي، ص٢٩.

(٣) الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، ص٤١.

(٤) جذور البلاء: عبد الله التل، ص٢٠١.

أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً)[1].

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة سنة على احتلال الجزائر: (إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلّمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم)[2].

وأعلن وزير المستعمرات الفرنسي لاكوست حين عجز عن فَرْنَسة الجزائر، قال: (ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا)[3].

أما الذين اعترفوا منهم بمكانة القرآن الكريم فكثيرون ومنهم: (جاستون كارمن) وهو مستشرق فرنسي، والذي قال: (إن القرآن وهو منبع هذا الدين العقلي، ودستوره، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم. . ففي إمكاننا أن نقول: إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التي نشرها الإسلام)[4].

ويقول (كارليل) من أساتذة جامعة كمبردج: (إن علوية القرآن في حقيقته العالية، فهو حافل بالعدل والإخلاص، والدعوة التي بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة)[5].

وقال (ستنفس) في تعريف القرآن: (هو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية في حياتهم)[6].

وقال الفيلسوف الفرنسي (الكس لوازون) في كتابه (حياة محمد): (خَلَّف

---

(١) التبشير والاستعمار: مصطفى الخالدي/ عمر فروخ، ص٤٠ عن Lalam and Missions 217 F.

(٢) قادة الغرب يقولون: جلال العالم، ص٣١، عن مجلة المنار، عدد ٩-١١-١٩٦٢م.

(٣) قادة الغرب يقولون: جلال العالم، ص٥١، عن جريدة الأيام، عدد ٧٧٨٠، بتاريخ ٦ كانون أول ١٩٦٢م.

(٤) (٥) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٧.

(٦) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٧.

محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة وسجل الأخلاق، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية التي كشفت حديثاً، أو المخترعات الحديثة، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية . . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن، والقوانين الطبيعية، مع ما نبذله من المساعي للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية)[1].

ويقول المستشرق الألماني (يوجان يعقوب رايس) مخاطباً الذين يستهزئون بالقرآن من بني قومه: (ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة، والعظيمة المؤثرة، وأحسوا باللسان المحير للألباب الذي استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه، لوقعوا في الحضرة الإلهية ساجدين صائحين: يا رسول الله أغثنا[2]، ولا تحرمنا من شرف الدخول في أمتك)[3] وقال (ليون): (حَسْبُ القرآن جلالاً ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه، لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشيء ـ من أسلوبه الذي لا يزال غضاً كأن عهدها بالوجود أمس)[4].

ويقول (جيمي متشين): (لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم، وهو ـ بكل تأكيد ـ أيسرها حفظاً، وأشدها أثراً في الحياة اليومية لمن يؤمن به، فليس طويلاً كالعهد القديم . . . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه، وتزداد إيماناً وسمواً، ومن الملاحظ أنَّ القرآن يتّسم بطابع عملي متعلق بالمعاملات بين الناس، وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد، وبين التعاليم العملية جعل القرآن كتاباً فريداً، أو وحدة متماسكة)[5].

وقال (هيرشفيلد): ـ (وليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافة نواحيها في العالم الإسلامي)[6].

---

(١) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٧ .

(٢) الاستغاثة بالرسول ﷺ لاتجوز، لكنه يريد التعبير عن الإقبال على الإسلام .

(٣) (٤) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٨ .

(٥) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، ص٢٨ .

(٦) التربية في كتاب الله : محمود عبد الوهاب، ص٥٢-٥٣ .

وقال المؤرخ الإنجليزي الشهير (ويلز آن): (إن الديانة الحقَّة التي وجدتها تسير مع المدنية أنَّى سارت هي الديانة الإسلامية، وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن وما فيه، من نظريات علمية، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، فهو كتاب علمي، ديني، اجتماعي، تهذيبي، خلقي، تاريخي، وأكثر أنظمته وقوانينه، تستعمل حتى وقتنا الحالي، وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة)[1].

ذلكم نزر يسير من أقوال الغربيين في القرآن الكريم، منهم من يراه الجدار الصلب بينه وبين تنصير المسلمين، فأعلن فشله، واعترف بهزيمته، ومنهم من كشف لقومه السرَّ في قوة المسلمين، فدعا إلى فصلهم عن القرآن، حتى تسهل السيطرة عليهم، ومنهم من اعترف بإنصافٍ بفضل القرآن الكريم، ومكانته السامية، ومنزلته العظمى، وما أجدر بنا أن نوجه نداء الشاعر بعد أن نُعمِّمَ نداءه للمسلمين كافة:ـ

يا ابن العروبة سر فأنت الأسبق
بطريق مجدك فالنجاح محقق
هذا هو القرآن نبراس الهدى
دستورك الأسمى المنير المشرق
آياته نبع العلوم جميعها
من قال لا فهو الغبي الأخرق
علم الطبيعة والحياة وحكمة
الإيجاد من تبيانه تتدفق
وسياسة الدنيا بأقوم شرعة
بين الورى بسواه لا تتحرك[2]
فيه القضاء لحل كلِّ قضية
عن حلِّها أهل السياسة أخفقوا

---

(١) التربية في كتاب الله: محمود عبد الوهاب ص٥٢-٥٣.
(٢) هكذا وردت ولعلها (لا تتحقق).

عودوا إلى القرآن عودة باحث
ترك الهوى. والعقلُ حرٌّ مطلق
وخذوا دساتير الحياة جميعها
من آيه وعلى الخليقة أشفقوا
فهو الدواء لكل أدواء الورى
وهو الطبيب، لكلِّ سقمٍ، صدِّقوا
فالغرب لمَّا سار سار بنوره
وعلا، وقبل الغرب سار المشرق
يا قوم أحمد مجدكم قرآنكم
فهو الكتاب العالمي الأصدق[1]

وبعد:-

فإذا كانت هذه هي خصائص القرآن الكريم، وتلكم آثاره التي اعترف بها حتى الخصوم والأعداء، أفلا ينبغي أن نعض عليه بالنواجذ، وأن نجعله منار سبيلنا، وقوام حياتنا، وزمام عقولنا، وربيع قلوبنا، وحكم ما بيننا، وموئل فكرنا، وعلاج سقامنا، وعصمة أمرنا. بلى والله، إن هذا لبعض حقه علينا، ندعوا الله سبحانه وتعالى أن ينقذ عباده به، ويعيدهم إليه عوداً حميداً، إنه سميع مجيب. . .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) التربية في كتاب الله: محمود عبد الوهاب، ص٥٣-٥٤.

المراجـــــع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن: الإمام جلال الدين السيوطي.
شركة مكتبة مصطفى الحلبي ـ مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٧٠هـ.
والطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ.

٢ ـ إحياء علوم الدين: أبي حامد الغزالي/ مطبعة: مصطفى حلبي بمصر ١٣٥٨هـ.

٣ ـ أخلاق أهل القرآن: للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الأجري تحقيق محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار الباز ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٤ ـ الأزهـار المتنـاثرة في الأحاديث المتواترة: جلال الدين السيوطي: الناشر: مطبعة دار التأليف، مصر.

٥ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة
ملا علي القاري
تحقيق/ محمد الصباغ ١٣٩١هـ ـ دار الأمانة ومؤسسة الرسالة.

٦ ـ الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، ترجمة/ د. عمر فروخ، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ.

٧ ـ الأسماء والصفات: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٨ ـ أصـول الـدين: عبد القاهر البغدادي ـ الطبعة الأولى ـ استنبول، مطبعة الدولة، ١٣٤٦.

٩ ـ الاعتقاد على مذهب السلف: الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الناشر حديث آكاديمي ـ فيصل آباد ـ باكستان.

١٠ ـ الإعجاز الفني في القرآن: عمر السلامي. نشر مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٠.

١١ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، الطبعة الثامنة، ١٣٨٩هـ، المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.

١٢ ـ أعلام النبوة: الإمام أبي الحسن علي بن محمد الماوردي/ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣ ـ البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين الزركشي. تحقيق وتقديم/ محمد بن عبد الرزاق الدويش (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة)، ١٤٠٦هـ.

١٤ ـ البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

١٥ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق/محمد علي النجار ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر ـ الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

١٦ ـ البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.

١٧ ـ البيان والتبيين: الجاحظ: تحقيق فوزي عطوي، مكتبة الطلاب، شركة الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٨م.

١٨ ـ تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

١٩ ـ **تاريخ الأمم والملوك**: محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار سويدان ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

٢٠ ـ **تاريخ الخلفاء**: جلال الدين السيوطي، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ.

٢١ ـ **تاريخ عمر بن الخطاب**: أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي
دار إحياء علوم الدين ـ دمشق.

٢٢ ـ **تاريخ اللغات السامية**: أ ـ ولفنستون ـ دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

٢٣ ـ **تأويل مشكل القرآن**: أبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة. تحقيق/ السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ. دار التراث، القاهرة.

٢٤ ـ **التبشير والاستعمار**: د. مصطفى الخالدي ـ د. عمر فروخ ـ المكتبة العصرية، بيروت ـ الطبعة الخامسة، ١٩٧٣م.

٢٥ ـ **التبيان في آداب حملة القرآن**: الإمام يحيى شرف الدين النووي. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، وأيضاً طبعة دار النفائس، بتحقيق: عبدالعزيز عز الدين السيروان ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ بيروت.

٢٦ ـ **التحرير والتنوير**: محمد الطاهر بن عاشور ـ الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ، عيسى الحلبي، مصر، والنشرة الثانية ١٩٧٣م، الدار التونسية للنشر.

٢٧ ـ **التذكار في أفضل الأذكار**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. تحقيق: ثروت محمد نافع، دار التوحيد ـ مصر.

٢٨ ـ **تذكرة السامع والمتكلم**: بدر الدين ابن جماعة ـ دار الكتب العلمية.

٢٩ ـ التربية في كتاب الله: محمود عبد الوهاب فايد. دار الاعتصام ـ القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٨هـ.

٣٠ ـ التصوير الفني في القرآن: سيِّد قطب، دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة.

٣١ ـ التعبير الفني في القرآن: د/ بكري شيخ أمين، دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٦هـ.

٣٢ ـ تفسير أبي السعود (ارشاد العقل السليم): أبي السعود محمد بن محمد العمادي ـ دار المصحف ـ القاهرة.

٣٣ ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل): أبي محمد الحسين بن مسعود الفرآء البغوي، تحقيق: خالد العك، ومروان سوار. دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٤ ـ تفسير الفاتحة: شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب. تحقيق: فهد بن عبد الرحمن الرومي ـ مكتبة الحرمين ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٣٥ ـ تفسير ابن كثير: مكتبة النهضة الحديثة بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.

٣٦ ـ التفسير الكبير: الفخر الرازي ـ الطبعة الثالثة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٧ ـ تفسير مقاتل بن سليمان: تحقيق: عبد الله شحاته ـ الحلبي ـ ١٩٦٩م ـ القاهرة.

٣٨ ـ توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني ـ المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة.

٣٩ ـ تهذيب الأسماء واللغات: أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، مصوَّرة عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

٤٠ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري ـ تحقيق وتعليق وتخريج: محمود وأحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر.

٤١ ـ الجامع لأحكام القرآن: أبي عبد الله محمد القرطبي ـ أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٥م.

٤٢ ـ الجامع الصحيح: الترمذي ـ تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤٣ ـ جذور البلاء: عبد الله التل: المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٨م.

٤٤ ـ الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم: لبيب السعيد، دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ.

٤٥ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن قيم الجوزية ـ تصحيح: محمود عبد الوهاب فايد ـ ١٣٨٨هـ ـ مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر.

٤٦ ـ حرز الأماني ووجه التهاني: الإمام الشاطبي ـ تصحيح/ علي الضباع، مطبعة مصطفى الحلبي ـ ١٣٥٥هـ-١٩٣٧م.

٤٧ ـ حق التلاوة: حسني شيخ عثمان ـ دار العدوي، مكتبة المنار، الأردن ـ الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.

٤٨ ـ حلية الأولياء: أبي نعيم الأصفهاني: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٩ ـ الحيوان: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية/ مصطفى الحلبي.

٥٠ ـ الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون: أنور الجندي، دار الاعتصام، سلسلة (في دائرة الضوء)

٥١ ـ دراسات في العربية وتاريخها: محمد الخضر حسين، مطبعة دار الفتح ـ دمشق.

٥٢ ـ دراسات في فقه اللغة: د/ صبحي الصالح، الطبعة السادسة ـ دار العلم للملايين ـ ١٩٧٦م.

٥٣ ـ دفاع عن الإسلام: لورافاغليري، ترجمة: منير البعلبكي ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٣م.

٥٤ ـ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تعليق/ محمد عبد المنعم خفاجي ـ ١٩٧٧م، مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م، مكتبة القاهرة.

٥٥ ـ ذيل طبقات الحنابلة: ابن رجب ـ دار المعرفة، بيروت.

٥٦ ـ رسم المصحف: غانم قدوري الحمد، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري.

٥٧ ـ سنن الدار قطني: الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب ـ بيروت.

٥٨ ـ سنن الدارمي: دار الفكر ـ القاهرة، ١٣٩٨هـ.

٥٩ ـ سنن أبي داود: تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.

٦٠ ـ السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ.

٦١ ـ سنن المصطفى: ابن ماجة، الطبعة الثانية ـ دار الفكر ـ بيروت.

٦٢ ـ السنة: الحافظ أبي بكر عمرو ابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٦٣ ـ سير أعلام النبلاء: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، أشرف على التحقيق/ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٦٤ ـ السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق/السقا، الأبياري، شلبي، مطبعة مصطفى حلبي، مصر، ١٣٥٥هـ.

٦٥ ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف: أبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق/ عبد العزيز أحمد، الناشر مصطفى الحلبي بمصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٣هـ.

٦٦ ـ شرح المواهب اللدنية: محمد بن عبد الباقي الزرقاني: دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية ـ ١٣٩٣هـ.

٦٧ ـ الصاحبي: ابن فارس، المكتبة السلفية ـ مصر ـ ١٩١٠م.

٦٨ ـ صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية ـ استنبول ـ تركيا ـ ١٩٧٩م.

٦٩ ـ صحيح مسلم: تحقيق وتصحيح وترقيم/ محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية ـ الرياض ـ ١٤٠٠هـ.

٧٠ ـ الطبقات الكبرى: أبو عبد الله محمد ابن سعد، مطبعة بريل، ١٣٣٢، ليدن، وطبعة دار صادر، بيروت ـ ١٣٨٨هـ.

٧١ ـ علوم القرآن: د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٤٠١هـ.

٧٢ ـ فتح الباري: ابن حجر العسقلاني: تصحيح/ عبد العزيز بن باز، ترقيم/ محمد عبد الباقي، دار الفكر، تصوير عن الطبعة السلفية.

٧٣ ـ فتح المبين لشرح الأربعين: أحمد بن حجر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٣٩٨هـ.

٧٤ ـ فتح المغيث شرح ألفية الحديث: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣هـ.

٧٥ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ـ دار المعرفة، بيروت.

٧٦ ـ فضائل القرآن: للإمام أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق الدكتور/ فاروق حمادة، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠هـ، دار الثقافة البيضاء.

٧٧ ـ فضائل القرآن: أبي الفداء إسماعيل بن كثير، طبعة دار الأندلس.

٧٨ ـ: فضائل القرآن الكريم وحملته في السنة المطهرة: محمد موسى نصر، المكتبة الإسلامية ـ عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٢هـ.

٧٩ ـ فقه اللغة وسر العربية: الإمام أبي منصور إسماعيل الثعالبي، دار الباز ـ مكة المكرمة.

٨٠ ـ فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: د. فتحي عامر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر، ١٣٩٥هـ.

٨١ ـ في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث ـ القاهرة.

٨٢ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، الطبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ، دار الشروق ـ بيروت، القاهرة.

٨٣ ـ قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله جلال العالم، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

٨٤ ـ القاموس المحيط: الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٦هـ.

٨٥ ـ القرآن الكريم، تاريخه وآدابه: إبراهيم علي عمر، مكتبة الفلاح ـ الكويت، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٤هـ.

٨٦ ـ القرآن: محاولة لفهم عصري: مصطفى محمود، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.

٨٧ ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٣هـ.

٨٨ ـ الكشاف: الزمخشري، طبعة انتشارات آفتاب ـ تهران، وطبعة دار المعرفة ـ بيروت.

٨٩ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٣٩٩هـ.

٩٠ ـ كيف نحيا بالقرآن: نبيه زكريا عبد ربه، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، دار الحرمين، الدوحة، قطر.

٩١ ـ لسان العرب: ابن منظور، دار صادر ـ بيروت.

٩٢ ـ لغة القرآن الكريم: عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، عمان، الطبعة الأولى ـ ١٤٠١هـ.

٩٣ ـ لمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٣٩٤هـ.

٩٤ ـ لهجات العرب: أحمد تيمور باشا، العدد (٢٩٠) سلسلة المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

٩٥ ـ اللهجات العربية في التراث: أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، ١٩٨٣م.

٩٦ ـ مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، ١٩٧٤م.

٩٧ ـ **مجموع فتاوى ابن تيمية**: جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مطابع الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨١هـ.

٩٨ ـ **محاسن الإسلام**: أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري، دار الكتاب العربي، بيروت ـ الطبعة الثانية.

٩٩ ـ **محاسن التأويل**: جمال الدين القاسمي: صحَّحه ورقَّمه وخرَّجه/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، الطبعة الأولى ـ ١٣٧٦هـ.

١٠٠ ـ **المحلى**: ابن حزم: دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

١٠١ ـ **مراتب الإجماع**: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ضمن كتاب محاسن الإسلام للإمام البخاري.

١٠٢ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: جلال الدين السيوطي: شرح/ محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الرابعة ـ ١٣٧٨هـ.

١٠٣ ـ **المستدرك/ للحاكم**: دار الكتب العلمية.

١٠٤ ـ **المستشرقون وترجمة القرآن الكريم**: محمد صالح البنداق، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٠هـ.

١٠٥ ـ **مسلم الثبوت**: محب الله بن عبد الشكور: حاشية المستصفى للإمام الغزالي، مؤسسة الحلبي ـ القاهرة ـ مصوَّرة عن الطبعة الأولى بمطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٣٢٢هـ.

١٠٦ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت، مصورة عن الطبعة الميمنية ـ ١٣١٣هـ، وطبعة دار المعارف بمصر ـ ١٣٧٠هـ، تحقيق/ أحمد شاكر.

١٠٧ ـ **معالم في الطريق**: سيد قطب: الطبعة الثالثة ـ ١٣٨٦هـ.

١٠٨ ـ **المعجزة الكبرى**: القرآن: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

١٠٩ ـ **المعجم الصغير**: الطبراني، المكتبة السلفية ـ المدينة المنورة ـ ١٣٨٨هـ.

١١٠ ـ **المعجم الكبير**: الطبراني: حقَّقه وخرَّج أحاديثه حمدي السلفي، الطبعة الثانية، مطبعة الزهراء ـ العراق، والطبعة الأولى ـ ١٣٩٨هـ، الدار العربية للطباعة، بغداد.

١١١ ـ **المغني**: ابن قدامة: مكتبة الجمهورية بمصر ـ ومكتبة الرياض الحديثة. الرياض.

١١٢ ـ **المغني في أبواب التوحيد والعدل**: عبد الجبار الهمداني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق/ مجموعة من الباحثين ـ ١٩٦٦م.

١١٣ ـ **المفردات في غريب القرآن**: للراغب الأصفهاني، المطبعة الميمنية بمصر ـ ١٣٢٤هـ.

١١٤ ـ **مقامات الحريري**: المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.

١١٥ ـ **مقدمة جامع التفاسير**: أبي القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق/ د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥هـ.

١١٦ ـ **المقنع**: أبو عمرو الداني: تحقيق/ محمد أحمد دهمان، دار الفكر ـ دمشق ـ ١٤٠٣هـ.

١١٧ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.

١١٨ ـ **من روائع القرآن**: د. محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الخامسة، رمضان ـ ١٣٩٧هـ، مكتبة الفارابي ـ بيروت.

١١٩ ـ الموافقات: الشاطبي: دار المعرفة ـ بيروت.

١٢٠ ـ موطأ الإمام مالك: رواية يحيى بن يحيى الليثي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥هـ.

١٢١ ـ النبأ العظيم: د. محمد عبد الله درّاز، دار القلم ـ الكويت، الطبعة الرابعة ـ ١٣٩٧هـ.

١٢٢ ـ النثر الفني: زكي مبارك: دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٧٥م.

١٢٣ ـ النشر في القراءآت العشر: الحافظ أبي الخير محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٢٤ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد النويري، مصوّرة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

١٢٥ ـ الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح بن إبراهيم البليهي، الطبعة الأولى ـ ١٣٩٧هـ، المطابع الأهلية للأوفست ـ الرياض.

١٢٦ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع: جلال الدين السيوطي: دار المعرفة ـ بيروت.

المجـــلات

(١) مجلة الأزهر المصرية.

(٢) مجلة الدعوة السعودية.

(٣) جريدة الجزيـرة السعودية.



دليل الآيات القرآنية (1)

(١) ما بين القوسين رقم الآية وما بعده رقم الصفحة.

دليل الآيات القرآنية

□ □ □

دليـــل الأحاديـــث

دليـــل الأحاديث

دليل الأحاديث

□ □ □



دليل الأعلام



الفهارس



العبيكان
Obeikan
(01) 4983392

